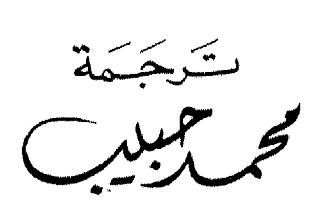
سندوي ماجونا

صوفيا



مجموعة قصصية

ترجمة



الإشراف الفني   زهير أحمد

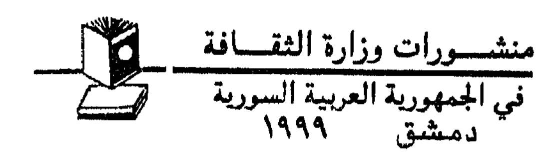
سِندوي ماجونا



صُوفيا

مجمُوعة قصَصِيّة

ترجمة
محمد حبيب



منشــورات وزارة الثقــافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٩

العنوان الاصلي للكتاب :

Living, Loving, and
Lying Awake at Night
Sindiwe Magona

David Phillip
Africasouth new writing

صـوفيـا : مجموعـة قصصيـة = Living Loving and lying
Awake at Night / سيندوي ماجونـا ؛ ترجمة محمـد حبيب . ـ
دمشــق : وزارة الثقافـة ، ١٩٩٩ . ـ ٢٠٠ ص ؛ ٢٤ سم .

١ ـ ٨٢٣ م ا ج ص ٢ ـ العنوان ٣ ـ العنوان الموازي
٤ ـ ماجـونـا ٥ ـ حبيب

مكتبـة الأسـد

الايداع القانوني : ع ـ ١٧٢١ /٩/١٩٩٩

إهداء الكاتبة

إلى فْرِدْ
الذي منحني مكاناً للكتابة

إهـداء المترجـم

إلى
اللذين يعتصران لي
من قحط الزمان
صداقة نديَّة
إلى
إياد غانم و نوال لايقة



الجــزء الأول

نســــاء فــي الخــدمــة



رحيـــل

في ذلك الهزيع من الليل عندما الاحلام تطبق الأجفـان على بعضـها بقوة ، والارواح خيّرة وشريرة ، تركب الهواء ، آن يهتاج العشـاق ، والنار التي خمدت يستعر اوارها من جديد ، والتنهيدات المختارة تغادر الجسد متجهة ، باتجاه بيت . على أرضية مدوارة لكوخ طيني صغير ، على حصيرة قشّية تستلقي امراة بعينين ساهرتين .

كانت تعبة . منهكة ، عقلاً وجسداً . تعب عقلها وجسـدها اتحدا في واحد . سرقها من النوم . أجبرها ثانية على عيش اليوم الذي مضى ، اليوم الذي خافته وعرفت انها لم ترغب في رؤيته ثانية قط . لكن رغم مقاومتها ، بقي اليوم يرسم نفسـه في مخيلتها . مراراً وتكراراً ، بقـي يجذبها إليه ويبعدها عن النوم والنسيان .

تحت أجفانها المغلقة ، شاهدته كله . وقعت في الشرك . إلا إذا ؟

امس ، كالعادة ، استيقظت مع زقزقة اول عصفور ، قبل طلـوع الفجر ، بدأ يومها . تركت حصيرتها زاحفة ؛ كي لا توقظ طفلتها النائمة. مترعة بالخوف ، زحفت الى صندوق كرتون حفظت فيه الطعام . دقيق ذرة يكفـي لصنع عصيدة صـباح اليوم . إن جعلتهـا دقيقة القـوام ، واستخدمت أقل ما يمكن من دقيق الذرة ، ربما استطاعت توفيره لوجبة الغـد . لكن رغم ذلك يمكن الا تكفي .

نهضت ، لم ترضع طفلتها من ثديها الذي كان يذوي . الأفضل ان تجزّىء الرضعة على مدار اليوم. حملت شمعة، خرجت واشعلت النار.

القمتها من حزمــة حطب قرب الكــوخ . عندما استيقظ الأولاد ، كــان القِدرُ يغلي فوق الموقد الثلاثي الأرجل ووجبة الصباح تنضج .

سرعان ما كان الأولاد راضين ، يلعبون سعداء ، الكبار منهم يقومون بعملهم اليومي . بعد أن أرضعت المرأة الطفلة،وضعتها على ظهرها وراحت تجمع روث الأبقار الأخضر من الحقل المجاور حيث رعى قطيع .

جاثية علــى ركبتيها العاريتين ، تنورتهــا شُمرت عالياً ، بجوار طست روث ــ البقر ، شرعت بالعمل . غَرْفَةٌ أو غَرفتان من الطست، طراخ ــ طراخ ، على الأرضية . تثبتها باليد اليسرى ، واليمنى ، كسكين تشطر زبدة فول الصويا شطرين فوق رغيف خبز ، أو كملوّق بنّــاء ، يعالج الإسمنت فوق قرميدة ، ببطء وهدوء ، تجرف الــروث فــوق الأرضية : راسمة بيدها دوائــر كبيرة ، بلون أخضــر رطب ، لون روث البقر الأخضر . جزء من الأرضية في كل مرّة ، حتى لوّنت كل الأرضية ؛ لقد نشرت حبّها عبر اصابعها: الروث والماء ودموعها امتزجت في قربانها، منسربة عبر اصابعها كما انتشرت باعثة رائحتها الى منخريها .

ومن ثم الى النهــر . على جنبها يتدلى ســطل تعزف الريح علــى حنجرته الجافة لحن الخواء . في طريق العــودة ، انتصب بثبات فــوق راسها؛ مترعاً بالحياة من النهر ، كان راضــياً وبذلك لم يثــر صخباً . ولا الطفلة التي كانت نائمة على ظهر المراة ايضاً . لقد رضعت غير عابئــة بقلق والدتها ، على ثديها الذي كان يذوي . كانت الام خائفة على حيــاة صــغيرتها .

كوبان من دقيق ذرة ، ثديــان يذويان ، دجاجــة عجوز ، قطعت البيض ، زريبة فارغة حتى من روث بقر جاف تستخدمه لإشعال النار ، لأنها من زمن بعيد لم يدخلها قطيع ، وخمسة اطفــال يحتاجون لإطعــام يومي ؛ هذه هي الافكار التي رافقت المراة في رحلتها الى ومــن النهر ، وبقيت معها طول اليوم .

الآن ، وهي تتمدد يقظـة ، نفس الأفكار سلبتها نومهـا ؛ سلبتها نسيانها ؛ سلبتها القليل مـن السلام الذي كان يجب أن يتوفر لهـا في منتصف الليل .

جَمْعُ توت السياج من الغابة . لكن الخريف فصل بخيل . قطف الهندباء البرية من الحقل هذا إن تركت الماعز والغنم شيئاً منها . حفرت نفس الحقل بحثاً عن جذور. هذا إن استطعت أن تسبق عرّاف * القرية إليها . أمضت اليوم تفكر بطرق للخروج من ورطتها . الآن في منتصف الليل ، رفضت المشكلة المزعجة أن تتنازل عنها للنوم والراحة .

ضوء ، شاحب ، ضعيف عديم الجدوى ، يتراقص في نهاية الغرفة، على الأرضية العارية التي توهجت من تلطيخ ذلك اليوم ، منبعثاً من علبة تنك صغيرة كانت يوماً ، منذ زمن بعيد ، تحتوي مرملاداً أو حليباً مكثّفاً أو شيئاً آخر من هذا القبيل . مـن غطائها نتأ فتيل قطـن قذر مشـبع بالبارافين . ومن هذه البدعة الغريبة كان ينبعث ذلك الضـوء الشحيح محاولاً بشجاعة . لكن عبثاً ، تمزيق عتمة الغرفة الكثيفة .

المراة التي لم تبلغ الثلاثين بعد ، نامت مع أطفالها الخمسة في هـذا الكوخ . لقد زوّجت في الرابعة عشرة ، لأن ذلك كان شائعاً في تلك الأيام. وكلما عاد زوجها من مناجم الذهب في جوهانسبورغ ، حيث كان يعمـل لأحد عشر شهراً في العام ، تصبح حبلى على جناح السرعة . لو سلمت كل البطون التي حبلتها ، لكان لديها الآن ربما أكثر من ضعف هذا العدد .

في هذه الليلة التي غاب فيها القمر ، بقي ذهنهـا يعمل ويعمـل ، يسأل نفسه أسئلة لم تسـمع صاحبته أحـد يسألها من قبـل . أسئلة اخافتها وجعلتها تشعر انها خفيفة مثل صوص فقس حديثاً .

(*) العرّاف هنا هو الطبيب الشعبي الذي يداوي بالأعشاب والنباتات . (م) .

لو رحلتُ ، فكرت المراة ، من سيهتم بأولادي ؟ من سيطبخ لهم ؟ وإن مرض احدهم ، ماذا سيحدث ؟ وقبل ان يجيئها الجواب ، تداهمها اسئلة اخرى تحرق عقلها بإلحاحها : لو بقيت معهم هنا ، ماذا سنأكل ؟ إن مرض احدهم ، ماذا سأفعل ؟ ماذا سيحل بنا إن لم ارحل ؟

لم يكن زوجها بالرجل الذي يتذكر زوجته وهو في مناجم الذهب في جوهانسبورغ : مع مرور السنين عرفت المراة ذلك في زوجها ؛ ورغم انها لم تزل تحبه ، ادركت انه ، بخلاف ازواج معظم نساء القرية ، ليس بالرجل الذي يعيل زوجته ، واولاده ؛ حتى إنه لم يقدم مساعدة لوالدته ، وذلك ، في الواقع ، كان غريباً ، لانه من النمط الشديد الارتباط بوالدته . فما كان يثير دهشة البعض .

في تلك الليلة ، فكرت المراة لنفسها ، ويعتبر نفسه زوجك فقط عندما يستلقي بجسده الى جانبك ويدفع بإسفينه عالياً بين فخذيك .

لدينا كل هؤلاء الأولاد ، قالت المراة لنفسها ، واحد في كل مرة عاد من المناجم . لكن حتى ذلك لم يجعل لزوجي قلباً . ينسانا حالما يغادرنا .

في الغرفة الضعيفة الإنارة استطاعت الأم أن تميز اشكالاً معتمة على ارضيتها ، اولادها النائمين غافلين عن المعركة المحتدمة في عقلها ؛ في قلبها في مكان ما في منتصف الغرفة سمعت انيناً وعرفت انها سيزوي ، التي جاءت بعدها الطفلة الأخيرة . كيف كانت تستطيع التفريق بينهم ، ليس من وجوههم فحسب بل حتى من سعالهم ، ضحكهم ، وطريقة كل منهم في التقلب ليلاً فوق حصائرهم القشية الصغيرة . لكن عندئذٍ فكرت ، إن لم أستطع فعل ذلك ؛ لن أكون أماً . لن أكون ، لن أكون أماً إن لم أستطع فعل ذلك. وجدتها ! صاح عقلها ، متنبهاً للإمكانية. وجدتها

وحدتها . قالها وكأنه تعثر بكتلة ذهب او بركة حلوى باردة ، ماء نميراً في صحراء لا متناهية . لقية ، خلاصاً .

قفز قلبها . وجدت المفتاح : لن اكون أماً بتلك الطريقة . ستقوم بواجباتها كما فهمتها وستضحي في سبيلهم . رأت أن الطريقة الوحيدة لتصبح أماً لأطفالها ، هي في أن ترحل عنهم .

تحركت كقطة تتسلل منسحبة من ورطة . لم ترغب في إيقاظ احدهم . بألم ، فكرت بصغيرتها ، نوما خويزي التي تنام كالدجاجة ؛ عين مغمضة واخرى مفتوحة ، على حافة الاستيقاظ . كانت نوماخويزي المرشحة للاستيقاظ إن هي تحركت بحركة صاخبة أكثر من حركة الفأر .

ارتدت ثيابها تحت البطانية . الآن انزلقت يدها تحت قميصها القطني الى خصرها . ها هي ، ضغطت يدها عليها ، فركتها بأصابعها ؛ صرة النقود الصغيرة في زنار صنعته من مئزر قديم . ها هي . بإمكانها تحقيق ذلك . نهضت وانتصبت فوق حصيرتها كقصبة . بينما عدت افكارها بعيداً .

شدت بطانيتها حولها ، ببطء وحذر وقلب قانط ، مشت الى الباب فتحته وخطت خارجاً .

متلفعة من الراس الى القدمين ، تواجه برودة الليل بوجهها وقدميها وهي تغلق الباب خلفها بهدوء . للحظة قصيرة وقفت امام الباب خارجا ساكنة منصتة لتنفس اولادها يتنفسون في نومهم الأعمق .

اصغت المرأة وتخيلت انها سمعت : مه ـ به ، به ـ مه ؛ وعلى الاغلب استطاعت تخيل صعود وهبوط صدور اولادها . نائمين ، مطمئنين .

الآن ، تحرك في قلبها شوكة انطمرت فيه طويلا : تسيب .

قطرة دم انعصرت من قلبها واضاءت كل سماء الليل ــ المسوّدة .
أمطرت النجوم ضوءاً ، جعل طريقها واضحة اكثر ما يمكن : تسيب !

رات طريقها كماء نبع صاف تحت جلاميد جبل عال : تسبب . تلك
كانت الشوكة . تسيب تسيب تسيب .

خفيفة كبذرة هندباء برية يحملها نسيم نيساني ابتعدت عن الكوخ
حيث ينام أولادها . اسرعت مبتعدة ؛ سريعة ، قبل أن تجف قطرة
الدم التي أسالتها الشوكة ، معيدة لها قلب صوص جبان . قبل أن تتذكر
أن ثاندوي الطفلة بنت الأشهر الستة ، ستنفجر رئتيها قبل صياح
الديك بحثاً عن ثدي لن تجده . اين ماما ؟ أين ماما ؟ أين ذهبت ماما ؟

ستأتي مانالا ، وجدتها ، على البكاء . مانالا التي لم تغفر لها البتة
أنها المرأة التي وجد فيها ابنهـا عسل الليالي العميقة ، حلاوة المرأة .
ستعتني مانالا بالأولاد ، هكذا عزت المرأة نفسها : هم أحفادها في النهاية.
رغم أنها لم تحبني ، قالت المرأة لنفسها ، ويبقى عليها أن تعتني بهم .

بدا قلبها ينزف . لكن الشوكة جنبتها ذاك الألم : تسيب ــ تذكرت
لن اكون أما ، إن لم استطيع فعل هذا .

تجاوزت الزريبة حيث تمدد كبش وحيد يجتر ؛ اجتازت البوابة
العريضة المفتوحة التي لم تغلق منذ تلك السنوات
الماضية ، عندما حُملت ، كعروس جديدة ، الى هذا البيت ؛
غادرت بيتها ، نازلة الدرب طائرة باتجاه النهر متجاوزة حقول الذرة
التي نمت حتى اصبحت بطول ولد في العاشرة ، وكانت ساكنة في هذه
الليلة الساكنة .

كل من يراها الآن سيعرف أنها غير شريفة المقصد . سيقول البعض،
انها ساحرة تمارس سحرها . سيقول آخرون انها فاسقة ، مومس لم
تستطع انتظار عودة زوجها وهي في طريقها ، الآن ، لملاقاة عشيقها غير

الشرعي . الأكثر تخيلاً سيصفونه : لن يسموه فحسب بل سيعطونه مشكلاً اكثر تعذيباً . التلميحات الغامضة أقوى من الكذب الصريح ؛ لا احد يستطيع دحضها عملياً . وسيختم عليها البعض بخاتم التصديق بقولهم إنهم رأوا ، بأم أعينهم ، هذه المرأة الوغدة في عناق شهواني مع « لا أستطيع تسميته ، تعرف ، يضعك البيض في السجن بسبب أشياء من ذلك النوع » . في النهاية ، عرفت انهم سيقولون إنها هربت لتخفي حملها الذي بدأ بعد عدة اشهر من رحيل زوجها . مهمتها البريئة ، التي وُلِدت من اليأس ، ستثير حكايا يسعدها أنها لن تكون هناك لتسمعها .

تسيب ! لقد جاع أولادها يومياً . تسيب ! زوجها كلب يغمد غمده في كومة قش . نسي العشب الذي بال عليه . نسي ما نتج عن ذلك . تسيب ! تسيب ! بعيداً طارت المرأة على قدميها اللتين بالكاد لامستا الأرض ، بطانيتها التفّت وانشمرت عاليا حول خصرها .

نازلة باتجاه النهر ، سلكت درب الهضبة الشديد الانحدار ؛ متجنبة الطريق السهل . لم تشعر باعتراض ركبتيها على الأذيّة حين تدوس قدماها الجسأتان كتل التراب ، متجاهلة الحصى والحجارة الحادة الحواف .

على طول ضفة النهر أسرعت ، خطوتها سريعة كجريانه ، خرير مائه يحفر في شرايينها .

امتعض عصفور ليلي من اقتحامها عالمه ضرب بجناحيه وبزعقة حادة طار مبتعداً .

وصلت الأماكن الضحلة من النهر معدجى الليل الذي يسبق الفجر . فرشت بطانيتها على الأرض ؛ خلعت كل ثيابها ولفتها في البطانية في لفة محكمة الربط ؛ ووضعتها على رأسها وانطلقت .

يد تقبض بقوة على ممتلكاتها ، والاخرى توازنها ، ببطء خاضت في النهر البارد ، الماء المدوّم . المدّ قويّ ؛ ثبتت قدميها وهي تخوض تلك الدوّامات ، التدفقات الماصّة : تباطأ تقدمها بسبب مقاومتها للجَرْف .

اخيرا وصلت الضفة الاخرى . متدثرة أيضا بالحرارة التي منحتها قطرة الدم لجسدها ، تحثها الى الأمام ، لم تفكر ولا مرة بالساحرات وهي تجاهد لعبور النهر .

توقفت لتستطلع الافق . سترتاح في القطار . امامها حقل لتعبره ، حقل ذرة في منتصف نموّها . شقت طريقها عبره .

بقع حمراء غاضبة انتشرت في السماء البعيدة عندما وصلت سفح جبل عال جدا . تطلعت عاليا ، فوق حيث القمة تطاولت وقبّلت السماء الموشّاة بالأحمر ـ بسرعة ، غابت في عتمة شجرة كثيفة . شجرة ومن تحتها شجيرات .

طعم الرحلة الطويلة جفف حلقها . تسيبب ! الجوع الذي تركته خلفها ، وخز قدميها الملتهبتين . استطاعت ان تشمّه ، الجوع ينخر أطفالها ، ينخر قلبها . صعدت انفها رطوبة كثيفة : أوراق دافئة ، رطبة ، تتعفن مانحة الحياة لتربة جديدة .

الجبل في مواجهة وجهها ، مسوّدا كل شيء . كانت كالعمياء . اجفلها هبوب عش انقلب وسقط أرضا . لكنها لم تتوقف . بعدئذ ، نقيق علجوم كبير ، ينادي بحماس ، وتجيبه شريكة لطيفة ، بمرح . هنا وهناك ، كلما أوغلت كانت اشياء ليل الجبل تفر من الفجر .

احمر مائل الى الارجواني ـ الذهبي الموشّى بالقرمزي . زقزقت العصافير ، اختبأت في الأكمات ، ونعب بوم الليل ، رفرف جناحيه هابطا ببطء باتجاه مخبئه . توغلت المرأة في المسير . تحجرت حلمتاها

من احتقان الحليب الذي لا يكفي والمنتظر . شعرت كأنهما ينتميان لامرأة أخرى ، وكأنها لم تعد تعرف لماذا يتوهجان .

في ممر ضيّق قرب القمة تعثرت بقرد يحلم ، جَفِلَ ، لفظ هياجه وهو يقفز مختفياً في عتمة اقتم . رقّ الهواء تدريجيا ، تلاشت الرطوبة من منخريها . وصلت القمة .

كمحارب غازٍ ، تفحصت الأفق . استحم بتدرّجات اللون القرمزي ، حتى عندما يميل الى القرمزي المصفر متحولاً الى ابيض ناري لشمس عفيّة . امتدت أومبابا عارية وصامتة ؛ لم يتحرك فيها أحد مُرَحِّباً أو صاداً .

باختصار . تساءلت إن كان احد أطفالها قد استيقظ . هل كانت الطفلة عندئذ تبكي غذاءَها ؟ هل جاءت حماتها الآن الى البيت حيث أولادها ؟ هل ستعتني بهم ؟ أو ؟ . . . أو . . . ؟ رفضت أفكارها أن تمضي أبعد . بدلا من ذلك ، ذكّرتها الشوكة لماذا كانت تفعل ما تفعله : إن لم أفعل ، لن أكون أمّاً : تسيب !

كانت المرأة قالب ــ جليــد ، مبللة بالعرق ، عندما وقفت هناك تحدّق في البلدة النائمة الممتدة تحت قدميها .

جاثية اخرجت ثديها الأول ومن ثم الثاني . محتقنين ومعروقين ، كانا حارين بالنسبة ليدها الباردة . تشت ــ تشت ؛ دفقات حليب أبيض تزبد الأرض . تشت ــ تشت ، رَوّت الأرض النهمة عطشها من حياة طفلتها بينما صنعت دموع المرأة بِركتي طين عند ركبتيها .

وقد ارتاحت . اعادت ثدييها تحت ثوبها الحائل . نظرة أخيرة ، كانت الطريق واضحة . تنهيدة اخيرة لأجــل الأولاد الذين اخرجوها

بعيدا ، الذين قادها جوعهم عبـر الليل ، النهر ، الحقل ، الغابة ، والجبل . كم احبتهم .

وقطرة دم جديدة دفئات تصميمها وجددته . استيقظت خطوتها التعبة ، انتصب جسدها مـن استرخائه الذي كان فيه . ورغم أن عينيها ما زالتا لم تفنيا ، جففتا نفسيهما ونظرتا الى الأمام. لقد حسـمت امرها . لا عودة الى الوراء .

* * *

أتينــي

أنا أتيني رغم أن السيدة ريد تسميني تيني . مضى عليّ ثمانية عشر شهرا في خدمة السيدة ريد . وإن سألتني ، فقد كانت أياما عصيبة مشوشة أيضاً . أنا لا أكره السيدة ريد ؛ ليست سيئة على الإطلاق . لكن مع ذلك ، لست خبيرة كفاية بالسيدات ، ولقد كانت حالتي مزرية لدرجة أن أية سيدة كانت ستبدو لي ملاكا حارساً ، على ما أعتقد .

حسن ، كثير من الخادمات هنا يطلقن أسماءً شتى على السيدة ريد ، في الواقع هن يفعلن ذلك . لكنني أشك أن إحداهن ستسميها أي شيء يشبه الملاك ولو من بعيد . حتى أن معظمهن لن يسميها ابنة عم ملاك . وأعرف أن بعضهن قلن أشياء تشير الى أنها أقرب الى الطرف الآخر من الصورة ، حسب رأيهن .

لكن أنا ، يا صديقتي ، كنت مُعْوِزة وأعطتني المرأة عملاً . بعض الخادمات اللواتي يعملن في الجوار واللواتي عرفن إميلدا ، المرأة التي عملت مكانها ، لم يحببن طريقة حصولي على العمل وحاولن الهزء مني ؛ كما حاولن مقاطعتي ، أو ، إن لم يمتلكن الشجاعة لمقاطعتي عندئذٍ كنّ يعاملنني ببرود « مرحبـا » ؛ مكفهرّات الوجوه . لكنني تابعت عملي ما دامت السيدة ريد تدفع لي وما دمت قادرة على إرسال النقود الى أولادي .

ولكن ، احيانا ، أتساءل ان كان لديهن ما يبرر امتعاضهن من طريقة حصولي على العمل ؟ هل اخطأت ؟ ان اخطأت ، هل كان الخطأ اقل لو تركت أطفالي يتضورون جوعا وربما يموتون ؟

ايا يكن ، لقد غفرن لي الان . على الاقل ، اعتقد ذلك ، لانهن بدأن يجئن إلى غرفتي في المساءات . المضحك في الأمر أيضاً ، ان عددهن لا يزيد عن زائرتين كل مرة . وان جاءت احداهن ووجدت اثنتين قبلها ، فاما ان تغادر او تغادر إحدى اللاتي كن قبلها . استغرب لماذا يفعلن ذلك ؟ حقيقة ، نساء البلدة هؤلاء لسن مثل النساء في القرية . اعتقد انني سأتعلم واكون مثلهن يوما ما بعد ان يمضي زمن طويل على وجودي هنا ، انسى فيه طرق العيش في القرية .

كنّ لطيفات معي عندما وصلت ولم يكن لدي مكان اقيم فيه . كنت اعرف نومبيني ، بنت قريتي ، فقط ولم أكتب لها لاخبرها بقدومي . لكن كيف كان بوسعي اخبارها بينما أنا نفسي لم اكن أعرف أنني قادمة الى هنا حتى غادرت دون أن أعرف حينها اين كنت ذاهبة ؟

عندما وجدت نومبيني ، أخذتني وخبأتني في غرفتها دون معرفة سيدتها بوجودي . لا تحب النساء السيدات ذلك . أن تخبىء خادمتهن احدا في غرفتها . يقلن ، ذلك سيجعلها تسرق لتطعم من تخبئه في الغرفة .

ابقتني نومبيني في غرفتها وساعدتها الخادمات الاخريات بالطعام والثياب لانني جئت عارية . احرقت نومبيني ثيابي التي وصلت بها ، كانت اسمالا عندما غادرت . بعد رحلة بعضها سير على الاقدام عبر الغابات والانهر ، وعندما وصلت كانت مجرد خيوط تتدلى على جسدي لكنها سترت جسدي وحمدت الله على ذلك .

كان قد مضى شهران على وجودي هنا عندما اضطرت إميلدا للعودة الى بيتها في قرية مالينج في مزيمخولو . احد أفراد اسرتها كان مريضا ، لم أستطع التذكر ان كانت والدتها ام والدها . ما كانت سيدتها لتسمح لها بالذهاب ما لم تجلب لها فتاة تحل محلها . سعدت إميلدا كثيرا لانني لم اكن اعمل . لم يهمها أنني لم اعمل من قبل وان سيدتها كانت صعبة الإرضاء من صنف الـ هذا ــ وذاك وقالت لها : ولو سمحت

لا تجلبي لي مامبارا ، حسن يا حبيبتي ، لقد كنت أكثر من مامبارا .
حتى انني لا أعرف ماذا تعني مامبارا ، وذلك يريك أية مامبارا كنتها .

اعتقد ان السبب الوحيد لقبول السيدة ريدلي انها لم تحتمل التفكير في نفسها بدون خادمة . فحتى خادمة عديمة الفائدة لها ، أفضل من لا خادمة قط .

بعد اسبوع ، مع ذلك ، بدات تريني ابتسامتها . عرفت أنها أحبت طريقة عملي . كنت حريصة على فعل كل شيء كما علمتنيه اميلدا . وطبعاً ، تلقيت عوناً كبيراً من السيدة ريد : « هكذا يا تيني » ، كانت تقول ، تريني كيف تريد انجاز شيء ما . أعتقد أنها في الاسبوع الاول ، قامت بكل العمل وهي منهمكة تعلمني كيف أفعل .

طلبت إميلدا ثلاثة اسابيع إجازة من السيدة ريد . قالت لي أنها ستبقى شهرا وحتى شهرا ونصف . لكنني أعتقد أن ما قالته للسيدة ريد لا يغير في الامر شيئا . كما قلت ، في نهاية الاسبوع الاول ، كانت السيدة ريد سعيدة بعملي ، في الواقع ، لقد دفعت لي ، على الاغلب ، ضعف ما كانت تدفعه لاميلدا . أنت شغّالة أنيقة جدا ، ياتيني . عملك نظيف ، قالت لي ، وهي تعطيني النقود .

أوه ، تيني . تصغير لاسمي أتيني . اشعره مضحكاً أن ادعى تيني ، أنا امرأة كبيرة . سيدودلا ، اسم يطلقه الناس على شخص سمين لا يستطيع حتى أن يتظاهر بالرشاقة . لكن السيدة ريد قالت : أوه ، لا أستطيع لفظ اسماءكن ، انها صعبة . بكل تلك الطقطقات والزوائد . سأناديك تيني . وهكذا رغم سمنتي أصبحت تيني(*) . مخيفة هي الأشياء التي يفعلها المرء دون أن يقصد فعلها . الله شهيدي ، أنا لم أشأ أخذ عمل أحد . مع نهاية الاسبوع الثاني ، كانت السيدة ريد مهتمة في جعلي اشعر بالأسف لأجلها . كانت ، طول الوقت ، تخبرني كم أنا فتاة جيدة وانها كانت سعيدة بي وستدفع لي جيدا . لم تقل صراحة ، انها لم

(*) تيني : صغيرة جداً .

تعد تريد عودة إميلدا . لكنني عرفت ما كانت تقوله رغم أنها لم تقله ، وعرفت هي انني عرفت .

صديقتي ، مع عودة المسكينة اميلدا ، بعد أحد عشر اسبوعا من مغادرتها ، رغم انني لم استطع تخيل كيف استطاعت أن تأمل باستعادة عملها . هل كان سيبقى عملها لو أنني غادرت ووجدت عملا اخر . أما كانت السيدة ريد ستجد خادمة أخرى عندئذ ؟ هكذا ، وفرنا على انفسنا المتاعب وبقينا مع بعضنا ، كلانا ، السيدة ريد وأنا .

سأكون كذابة كبيرة لو قلت انني هجست بالحصول على أجر افضل من أجل إميلدا . لقد قبلت العلاوة كحق لي ، كنت أعتقد أنني أعمل بنظافة كما قالت السيدة ريد . وعندما سألتني : تيني هل لديك عمل آخر تذهبين اليه عندما تعود اميلدا ؟ أخبرتها الحقيقية عارية : كلا ، يا سيدتي ، وابتسم قلبي مسبقاً .

طبعاً رات إميلدا المسالة كلها من زاوية مختلفة ، راتني امراة ، ثانية عديمة الحساسية .

« جلبتك هنا لتنوبي عني لا لتاخذي عملي مني » زمجرت . لكنك تغيبت أكثر مما قلت ستغيبين . ولو غادرت لكنت فقدت عملك على أية حال ، وذكرتها ايضا انها قالت لي ربما لم تعد تريد العمل ، في الواقع ، عند عودتها وانني ساكون أكثر من مرحباً بي فيه .

أتيني ، أختي ، دعي تلك المراة البيضاء تبحث بنفسها عن خادمة لها . لا تفعلي بي هذا . كيف يسعك فعل ذلك ؟ قالت هذا بالهكسوسية لغتنا الام ، لغة لم تزعج السيدة ريد ومثيلاتها انفسهن في تعلمها قط .

كانت تقف خارجا ، والسيدة ريد تخاطبها عبر شق الباب . استطاعت أن تراني خلف ظهر مستخدمتي ، لابسة مريولها الذي يصغرني بعدة مقاسات .

سمعت اليأس في صوتهـا . في الواقـع كانت تريد ــ لا ، كانت بحاجـة ، هذا العمـل . لكن بعدئذٍ ، ماذا عني ؟ أياً يكن ، خلصتني السيدة ريد من آخر اثر للشك في داخلي حين قالت : سواء بقيت أم لا لن اعيد اميلدا . لم يكن شكا قويا ، لكنه تلاشى ومات بسهولة . تكلمي الى سيدتك ، قلت لإميلدا . ان ارادتك فلن أمنعك من استعاة عملك .

ما الفائدة من تشردنا كلينا ، يائستين في الشوارع ؟ هكذا بقيت مع السيدة ريد بينما راحت اميلدا تلطـخ اسمي ، تسخمه كالغرب في كل مكـان .

في البداية ساندتها الفتيات الاخريات ، ووضعن اللوم علي . حتى بنت ــ قريتي نومبيني ، قالت لي أنها خجلة مما فعلت ، طعنت إميلدا هكذا في الظهر . لكن ، ماذا كان بوسعي أن أفعل ؟ بقيت ادخر من اجل أطفالي الجوعى الذين غادرتهم بينما كانوا نائمين مطمئنين . بقيت أذكر نفسي أن أولادي استيقظوا ذات صباح ليكتشفوا اني رحلت ، لم يعرفوا أين كنت أو ماذا حدث لي حتى ارسلت اطمئنهم عندما وجدت شخصا عائداً الى القريـة . ذكرت نفسي انني لم اغادر أطفالي لآتي الى هنـا وأساعد الخادمات اللواتي لا يستطعن الاحتفاظ بعملهن ان يبقين فـي اعمالهن . أووه ! لو أجادت إميلدا عملها فلماذا كانت هـذه السيدة قالت أنها لم تعد تريدها ؟ اش قلت لنفسي ، اتيني ، انسي الأمر كلـه ــ من يحبك ومن لا يحبك . تذكري أطفالك واعملي من أجلهم ، لم تأت الـى هنا للبحث عن صديقات .

عندما وجدنَ أنّ تجاهلهن لي لم يزعجني البتة ، بدأن الواحدة بعد الاخرى يكلمنني : واحدة بعد الأخرى .

الآن ، يجب أن أحترس كي لا أجد نفسي في ورطة أخرى . النساء يحببن اغتياب بعضهن بعضاً وينسين أنهن قلن ما قلنه وفجأة ، تجدين

نفسك تحيبين على أسئلة حول ما قلت لفلانة عن فلانة . لا وقت لدي لذلك . لكنني أكون كذّابة لو قلت ان قصصهن ليست مسليّة .

في الواقع ، إنني اتعلم الكثير عن هـذا المكان : النساء البيض ، ما يحببن وما يكرهن . ايْ من رجال السيدات يطارد خادماتهن . من يعاملن خادماتهن باحترام . واتعلم عن أنفسنا أيضا ، نحن الخادمات .

نجلس هنا في غرفتي ، ولأنني الخادمة الأحدث ، فكل واحدة من جاراتي تساعدني لمعرفة ما يلزم : مثل كيف تبدو سيدتي ، كيف تبدو حقيقـة مقارنة بسيداتهن ، أيـة امرأة يجب أن احـذر بعـد أن اجـد عشيقا لي ؛ أية امرأة لم تتعلم بعد ما الفرق بين أن تعطي وتقرض عندما يتعلق الأمر بنقود الآخرين ؛ من تشرب أكثر مما يناسبها (طبعاً ، اللواتي لا يشربن يخبرنني عمن تشرب ، نقطة انتهى) .

ولكن من بين كل القصص احببت ، تلك التي تظهرني في صورة أفضل من صورة إميلدا . ويا بنت ، اتوجد قصص عنها ! ذلك ما يحدث عندما تنطلق تلطخ اسماء الآخرين بالأسود . كلها ترتد عليك . نعم ، في الواقع ، إننا نحصد ما نزرع . طبعا ، سمعت كثيرا من الأشياء التي راحت تحكيها للناس عني ، معظمها افتراء ، كما يمكن تخيّله . لكن بعدئذ ، يبدو أنهـا كانت واحدة ممن تنسج الحكايات عن الأخريات : خادمات ، سيدات ، ازواجهن ، عشاق ، ومحبين سريين . كانت إميلدا تعرف عمل كل واحد ولديها صدر انفتح واسعاً جرّاء رفسة حصان . فلم تستطع حفظ الأشياء لنفسها ، تلك المرأة . كانت الأشياء تسيل خارجة من صدرها . حتى إنني اسمع حكايات عن خادمات كن هنا منذ زمـن طويـل ويحتمل كثيراً الا التقيهن . عـالم جديد بكليّته ينفتح أمـام عيني .

ستيلا

رايت سيارة سيدتك تبتعد . اعتقد انهــا ذهبت الى ممارســة دفاعها ــ الذاتي . فكرت ان أزورك . ضعي غلاية القهوة على النار ، يا بنت . تعرفين سيدتي الغنمة العاشبة ، برّادها مليء بالحشائش ، البذور ، أشياء تنمو ، واشياء عفنة الرائحة . تقول لي : إن الحليب من الفول : فول . لم أترعرع بين ناس يحلبون الفول . وهــل للفول اثداء ؟ هيه ، أقول لك ، إن لم تحترس فإن هؤلاء النسوة الغريبات اللواتي نعمل لديهن سوف يطعمننا ذات يوم أفاعي وضفادع .

انتبهي الماء في الغلاية يغلي . لا يوجد في ذلك البيت شاي ولا قهوة : « تلك مخدرات ، يا ستيلا » ، تقول لي سيدتي . لكن راسي تقول لي شيئاً آخر .

شكراً لك ، رائحتها ذكية بالتاكيد . شكراً . لو كان لدي نقود ، لاشتريت لنفسي قهوة على الأقل ووضعتها في غرفتي .

تعرفين ، لا ادري لماذا استمر في العمل لدى هكذا إمراة نكدة ؟ صدقيني ، أعرف أننا نقول أشياء سيئة جداً عن سيدتك ، الرقعاء (*) ، لكن على الأقل تعرفين معها ، أين تقفين . لا كوجه ــ الحرباء تلك ، التي اعمل عندها .

(*) الرقعاء : طويلة الساقين نحيفتهما .

أنا واثقة انك رايتها بوجهها ـ المفتوح ـ الفم ـ دائماً : يمكن أن تربح جائزة مسابقة سيدة الابتسامة الأجمل ، اليس كذلك ؟ تبدو دائمة الغبطة ، هيه ؟ لا تنخدعي . يمكن أن أخبرك اشياء عن تلك المراة ـ اشياء لن تصدقيها .

أجنّ تماماً عندما افكّر كيف استخدمتني طيلة تلك السنين ، لكنني ، انتقم . أرد لها الصاع صاعا ؛ واحياناً صاعين .

تستبدل ابتسامتها المشرقة بتكشيرة عندما تكلمني وتريد ان تقول لي شيئاً تعرف انه ليس لطيفاً .

« ستيلا » ، تناديني ، يوم الخميس ، وقت الغداء ، « اتسمحين بالعودة من أجل العشاء ؟ لدي ضيوف اليوم . »

الآن ، قولي لي ان هذا ليس قسوة . هذه امراة لديها اسبوع بسبعة أيام مثل كل الناس ، ومتى تختار استقبال الضيوف ؟ في تلك الأمسية من الاسبوع التي هي وقت راحة خادمتها . وتشهر ابتسامتها ليعرف الجميع كم هي لطيفة .

من اول كلمة عرفت ان هناك شيئاً غير لطيف في هذه المراة التي اعمل عندها . ماذا وجدت ، في اليوم الأول هنا ؟ حوض استحمامها مليء بالماء . ماؤها الذي استحمت فيه . ماؤها القذر . قذر من جسمها هي . قذر جداً عليها لأن تضع يدها فيه وتسحب سدادة الحوض . أتستطيعين أن تصدقي ذلك ؟ هذه المراة ستترك لي ماء استحمامها القذر لأصرّفه لها ؟

لا أقول ان عليها أن تغسل حوض الاستحمام . هيه ، فهي تدفع لي لأفعل ذلك ـ تمام . لكن ، اتعنين انها لا تستطيع ان تصرّف ، ماءها هي ؟

وإن اعتقدت أن ذلك كل ما رأيته في ذلك الحوض تكوني مخطئة . هناك كان سروالها التحتي يسبح ، عائماً ، في مائها هي ... تركته لي لأغسله .

ماذا ! انا ؟ لقنتها درساً ، في اليوم الأول ذاك ، تناولت شيئاً ، عوداً ، على ما اعتقد ، ورفعت به سروالها ووضعته ينقّط ماءً قرب الحوض الذي غسلته بعدئذٍ حتى أصبح يلمع من شدّة النظافة .

أتعتقدين انها فهمت رسالتي ؟ غلط . ألم تترك لي ملاحظة : « ستيلا ، اغسلي السروال التحتي عندما تغسلين الحوض . »

ماذا تقصدين بماذا فعلت ؟ لم أذهب الى المدرسة عبثا وجدت قلما في مكتبتها وورقة وكتبت لها ملاحظة أيضاً :

« سيدتي » ، كتبت لها . « اعذريني من فضلك لكنني لا اعتقد ان بوسع اي إنسان أن يطلب من الآخر أن يغسل له سرواله التحتي . لقد تعلمت أن السروال التحتي هو قطعة الثياب الأكثر حميميه ... قالت لي والدتي ، أن لا احد آخر أيضاً يجب أن يرى سروالي التحتي . حقيقة لا افهم كيف يمكن أن يطلب مني غسل السروال التحتي لشخص آخر . »

تلك كانت نهاية هراء السروال التحتي ، تعرفين ، تغادر البيت باكراً جداً . وفي ذلك الوقت لعبت معها لعبة ـ النائم وهكذا اعتدنا ان نكتب لبعضنا رسائل كثيرة .

ومن ثم فهي تذهب الى الكنيسة كل احد . منافقون هؤلاء الناس البيض . منافقون حقيقيون . لا يمارسون ما يعظون به أبداً .

تذهب الى الكنيسة كل أحد ، لكن عندما لا يكون السيد هنا ، يجب أن تري ما يحدث في هذا المكان . عندئذٍ تعود باكراً من العمل وتقول : « ستيلا يمكنك أن ترتاحي اليوم . »

ماذا سأفعل بنصف نهار إجازة لا اعرف انني كنت سأنالها ؟ اتعتقدين أن لدي مالاً انفقه هنا وهناك على التواقه ؟ لكن ، ذلك لم يقلق صاحبة الابتسامة المشرقة . كل ما تريده الا توجد خادمة ترى ما تفعله ، منافقون وانذال فوق ذلك أيضاً .

لكنني اخذت الوقاحة منها . آخذ الإجازة التي تعطينها . لكنني ابقى في غرفتي وارتاح .

وهي لا تعرف انني احتاج الراحة . تظن انني حمارة يمكن ان تعمل وتعمل . وعندما اذهب في إجازة ، أتعرفين أنها تعطيني حقيبة ملأى بالثياب . لا تعتقدي أنها مثل السيدات الأخريات اللاتي يعطين ثيابهن القديمة لخادماتهن . لكن ليست هذه ، يا صديقتي تريدني أن ابيعها لها .

« خذي ، ستيلا » ، والابتسامة اوسع من كل السماء ، « انا واثقة ان صديقاتك في لانجا سيحببن هذه الثياب . جديدة على الأغلب . »

تلك هي المرأة التي اعمل عندها . لا يكفي انني اعمل عندها ستة على ستة ، ستة ايام في الاسبوع . وفي إجازتي نصف اليوم يجب ان أعمل لها أيضاً . ابيع لها ثيابها المستعملة . حتى إنها تثبّت السعر على كل قطعة .

الآن ، لا تظني أن هذه الثياب الجديدة على الأغلب منظّفة على البخار . أتعتقدين انها تنفق نقودها هكذا ؟ لا ، بل عليّ أن احمل ثياباً تفوح منها رائحتها ، احملها الى بيتي وابيعها لصديقاتي طبعاً ، الثياب التي الحمار وحده يستطيع غسلها ، تلك الثياب التي تعتبرها هي مغسولة ومكوية . إنها لا تبخل بقوّتي ، أوه ، كلا !

بعدئذ تأخذ قطعة من تلك الثياب ، تنظر إليها وكأنها طفل يفارقها ، وتقول ــ « خذي هذه لك . » هكذا تدفع لي لحمل حقيبة ثقيلة ، تضحك

صـديقاتي مني ّ لبيعهم ثيـاب تافهـة . تعرفين ، أحياناً أجنّب نفسي المتاعب ، آخـذ الثياب وأدفع لهـا ثمنها ــ بالتقسيط ــ حتى أوفّيها الثمن . بعدئذ ، عندما أجد أحداً ذاهباً الى القرية ، أرسل الثياب لأهلي هنـاك .

الا تعتقدين أنك ستمرضين من العمل لدى إمرأة كهذه ــ تجعلك تعملين كالحمار وتطعمك طعام خروف ؟ في الواقع إنها تثير اعصابي . لكن يجب أن أحترس ــ فإن كان هناك شيء يجننها ويفقدها صوابها ــ فهو مرضي .

مرضي هو الشيء الذي لا تفهمه . تعتقد انني قُدِدّت من حجر . هي ، يمكن أن تمرض وعندما تمرض يجب أن أركض بالطول والعرض لأجعلها تشعر بالراحة : « اشعلي التلفاز ، أطفيء التلفاز . اصنعي لي شـاياً اسود . سخّني لي قليلاً من الحليب . اريـد خبزاً محمّصاً ــ اعطني المـارجرين . اذهبي اشتري لـي الصحيفة . لقـد نسيت ، الكوزموبوليتان معطّلة اليوم . تلقّي المكالمات وسجلي الرسائل . هل ذلك هو جون ؟ سأرد عليه . »

لكن يجب الا أمرض أبداً . « اتعتقدين انني مديرة مشفى هنا ، يا فتاتي ؟ » ذلك ما قالته لي أول يوم مرضت فيه . في اليوم التـالي : « ربما يجب أن تذهبي الى البيت وترسلي لي إحدى بناتك للخدمة . »

تعرفين لدى هذه المرأة اطفال من عمر أطفالي . يجب أن ارسـل اطفالي الى هنا لمساعدتها ومساعدة أطفالها بينما انا مريضة . يجب أن يغيب اطفالي عن المدرسة ليأتوا الى هنا لتتأكد من طعامهم العشبي قد جُهّز ، وأسرتهم رتّبت واحذيتهم لُمّعت ، وثيابهم غُسلت .

واكتشفت أيضا أنها لا تحب أن أمرض وأبقى هنا . تعتقد أن مرضي سيعديهم ويقتلهم . لا بأس عليّ أن التقط جراثيمهم عندما يمرضون . لكن جراثيمي ــ تلك قصة مختلفة .

هوه ! الناس البيض ! تَستَعَبدين لهم . تَستَعَبدين لأطفالهم ، تَستَعَبدين لأصدقائهم . تَستَعَبدين حتى لقططهم وكلابهم . ويشكرونك برفسة في قفاك .

على اية حال ، يجب أن اذهب . إنني احضّر لهم خبز اليوغورت ، لا بد أن العجينة قد اختمرت الآن . هيه ، شكراً لك على القهوة ـ الآن ، لقد استيقظت حقاً .

* * *

شـيـلا

هل أيقظتك ؟ لم تكوني نائمة بالتأكيد ؟ إمرأة شابة مثلك ، تعرفين، يجب أن تخرجي من البيت قليلا . ولكن ، أي هراء أقول ... متى ستخرجين إذا كانت سيدتك تبقيك في المطبخ حتى وقت متأخر من الليل . متى انتهيت الليلة ؟

دعيني أخبرك شيئاً ـ سيدتك هذه ، كلبة حقيقية . لا تستطيع هذه المرأة الاحتفاظ بخادمة ؛ تغيّر الخادمات أسرع مما تبدل النساء الأخريات جواربهن . كل يوم ترين عندها خادمة جديدة تنشر الغسيل في حديقتها . وأحياناً تغادر الخادمة حتى قبل أن تستطيع خادمات الجيران معرفة اسمها . كم مضى على وجودك هنا الآن لا شهراً ؟

ماذا ! اكثر ؟ يا إلهي ، يجب أن تقيم حفلة . لا أعرف كم فتاة ، باستثناء الأخيرة ... تلك بقيت عندها وقتاً طويلاً ... لا أعرف كم فتاة غادرتها في نهاية الشهر الأول . وبعضهن قبل ذلك ؛ والعديد منهن تركن اجرهن وراءهن أيضاً .

تضحكين ؟ أنا جادّة فيما أقول . اطلبي منها زيادة يجب أن تطلبي . شهر واحد مع امرأة مثل سيدتك يعادل عمل سنة في مطبخ امرأة أخرى . هذه المرأة تستهلك الخادمات حقاً .

خبّريني ، كم تدفع لك ؟ كلا ، خبريني . أستطيع أن اخبرك إن كان نفس ما دفعته لآخر فتاة قبلك . إنها مذهلة من تلك الناحية ؛ يبقى الأجر الذي تدفعه في صعود وهبوط مستمرين . أعتقدها تنظر أولاً الى

الفتاة ومن تم تفكّر لنفسها ـ « اهـا ! هـذه غرّة(*) . . . جاءت من القرية مباشرة . لا تعرف شيئاً عن النقود . لم ترقط أكبر من ورقة العشر راندات . إن كان ذلك ما ظنته في الفتاة ، والله العظيم ، لن تنال منها تلك الفتاة ولو بالسلاح أكثر من مئتي راند شهرياً .

ذلك ما تدفعه لك ، اليس كذلك ؟ انا وانقة انه كذلك . بما انك خجولة جداً وصغيرة ، ستقول أنك غرّة ؛ وعندئذ تبدأ تنهبك ، تدفع لك فتاتاً .

ذلك شيء آخر أيضاً ، هيه ؟ وقاحة صفيقة ! ماذا تعتقد النسوة البيض أنهن يعنين بكلمة ـ غرّة . هل يُفتَرضُ أننا نأكل طعامنا نيّئاً ؟

وتعرفين ، هؤلاء النسوة مغرورات بأنفسهن قليلا ، الا تعتقدين ذلك ؟

هكذا ستقول أنك غرّة وتدفع لك بغذاء صوص . هل ترسلك الى مدرسة لتتعلمي كيف تغسلين ثيابها القذرة ؟ هل تعلمك كيف تكوين قمصان زوجها ؟ أتستطيع أن تعلمك الطهي ؟

تعرفين أنهن لاعقات عديمات الفائدة بأفواههن الكبيرة ، يضحكنني كثيراً . ومن ثم يمتلكن الوقاحة ليقلن أننا قذرات . أين سَيَكُنَّ من غيرنا ومن غير تنظيفنا خلفهن كي يبقين نظيفات ؟ صلّي لله القدير ، يا عزيزتي ، انك لم تعرفي سوء الحظ في شغل مكان لم تدم فيه خادمة اكثر من أسبوع . كنت سترين عندئذٍ من هو النظيف أو غير النظيف . يوم ، يومان ، بلا خادمة، وسيبدأ يتعفن . المكان كله يتعفن في ظرف أسبوع ؛ حتى ولو اشترين علب ملطّف الهواء . التي لا تملك ايدي مثل الخادمات . كل ما تستطيع فعله هو تلطيف الهواء ؛ والرائحة تضحك

(*) غرّة : عديمة الخبرة .

هاهاها ، مثل ، أيـة جهنم هـذه ؟ من تظنين يخاف من ملطف هوائك التافه ؟كلا ، يا عزيزتي ، لا شيء كالخادمة يمكن أن يجعل البيض نظيفين. لكن ، طبعاً ، لا يستطعن القول أننا المسؤولان عـن كونهن نظيفات . لا يعطيننا مستحقاتنا أبداً ، لكن لا بأس ، نعرف الأمر ، وذلك هو المهم .

سيدتي تعرف كل الشكايات : أنا واثقة أنها تقرأها من كتاب . إنها تقرأ دائماً . بتلك الطريقة خرّبت عينيها ، كما تعرفين . بدون نظارتها السميكة ، لا تستطيع رؤية أصبعها حتى لو رفعته أمام وجهها ، لكن ، طبعاً ، لا يستطعن القول أننا المسؤولات عن كونهن نظيفات . يا صديقتي . إنها تتذمر من كل شيء دائماً :

« لم تطوي السجادة لتكنسي تحتها . »

« تركت الغسيل في الهواء كثيراً ؛ ستضطرين لترطيبه الآن قبل كيّه . »

« هل شطفت هذه الأقداح ؟ يجب أن تشطفي الصحون دائماً وإلا أكلنا الحساء بالصابون . وشيء آخر ، لم تزيلي العقد من البطاطا التي طبختها ليلة أمس . استخدمي ظهر قشّارة البطاطا ، النهاية المدببة ، تعرفينها ؟ لذلك جعلوها مدببة . »

ذات يوم ، عندما أكون مرتاحة وقد تغذيت جيداً ، سأقول لها في وجهها مباشرة . قشريها وأريني كيف تريدينها مقشرّة . أرني كيف ؟

وإن كان يوم سعدي ، سأتفرّج عليها تحرق يديها أو تجرح إصبعاً . إنها لا تعرف الحد القاطع من السكين . ذلك سيسد فمها الكبير ويريح أذني التعبتين . لكنها على الأقل ، تحترمني ، كثيراً أو قليلاً ، في هذه المنطقة ، أقصد النساء البيض في هذه المنطقة لا يفعلن ذلك كثيراً . إن أردت أجراً جيداً فعليك بالعمل في كيب تاون ، في كونستانيا أو في

كامبس بي أو ليلاندو أونو . عندئذ لن تشاهدي خادمة اخرى حتى تركبي باص العودة . لكن هناك يدفعن أكثر لمعرفتهن أن المنطقة بعيدة ، وأن خادمتهن لن ترى سوى القرود . وهكذا يندفع لك عاليا مقابل العيش مع الملونجو(*) والقرود ، ستة أيام أسبوعياً .

اسمعت كيف أنه على الخادمات الا يسمحن للنساء البيض مناداتهن د بنات أو خادمات بعد الآن ؟ يجب أن نشكل مجموعة للنضال من اجل حقوقنا ، اتعتقدين أن ذلك يمكن ؟ أيمكن ان تتعلم النساء البيض عدم مناداتنا بـ بنات ؟ بعد كل هذه السنوات التي اعتدنا فيها أن تنادبننا مابردنه — لم يعبأن بنا أحببنا ذلك أم لا؟لم يعبأن بتعلم اسمائنا ؟ تعتقدين أنهن سيتعلمن ذلك حقا ؟ أنا شخصيا لا أعتقد . في الواقع لا أعتقد ذلك حقاً .

طبعاً ، أعتقد أنها فكرة عظيمة . يجب أن نشكل مجموعات خدم . والنساء اللواتي نعمل عندهن لابد انهن يمتلكن مجموعاتهن ايضا . وإلا إن لم تكن لديهن مجموعات في تل المنطقة فكيف يعرفن كم يدفعن لنا ؟ إنهن يتكلمن عن هذه الأشياء يخبرن بعضهن كيف يعاملن الخادمات . نحن فقط بكماوات كثيراً على أن نعرف أنهن يفعلن ذلك ويسيطرن علينا . حتى إنك لاتستطيعين تغيير عملك لأن التي تهربين إليها هي مثل سيدتك . يعاملننا نفس المعاملة لأنهن يعرفن ما هو السائد .

ويمكن ان تسألي في الجوار إن اردت، إسألي أية فتاة هنا في الجوار، لن تحصلي على أجر أعلى . كيف تستطيع المرأة قول ذلك ، إن لم تكن متأكدة ؟ إن كانت متأكدة ، اسألي نفسك وكيف تستطيع معرفة الكثير عما تدفعه السيدات الأخريات لخادماتهن ؟ يتكلمن عنا ، كم يدفعن لنا ، ماذا يطعمننا ، اقول لك ، إننا مشكلتهن الأولى . لو تكلمن كثيرا عن

(*) السيدة البيضاء .

أطفالهن لما أصبحوا الحيوانات المفسدة التي نضطر للاعتناء بها . لكن لا ، يجب ان يتكلمن عن أجرنا .

تريدين أن تضحكي ؟ دعيني أخبرك كم تدفع لي السيدة التي أعمل عندها . بعد ثماني سنوات . وعندما أشتكي تقول لي : « اذهبي اسألي الفتاة التي تعمل في البيت المجاور كم تدفع لها سيدتها فان ينكرك . اذهبي . وهي تعمل عندها منذ عشرين عاماً » . كيف تعرف . . مع أن هؤلاء البيضاوات لا يتبادلن الزيارات ويثرثرن مثلنا ؟

ولكن سيدتك يا عزيزتي ، شيء آخر . بخلها ليس من النوع المعتاد . بخلها مرض . تعرفين شيئاً ؟ إنها تبيع حتى ثيابها القديمة إلى خادمتها. انتبهي عندما تعطيك أي شيء. تأكدي أنهاتعطيه لك لا تبيعه لك . إحدى الخادمات قبلك انتهت إلى السجن . كانت مدينة لسيدتك بأجر ثلاثة أشهر . ثلاثة أشهر من عرقها . وهي سريعة ، سيدتك تلك ، في استدعاء البوليس ، انتبهي لعلاقتك معها .

إذا رفضت أن تدفعي ثمن شيء ما ـ ثياباً لم تعرفي حتى إنك كنت تشترينها أو صحناً كسرته خطأ : واحد ـ اثنان ـ ثلاثة ويصل البوليس ـ اربعة ، خمسة ستة : تكونين في الزنزانة .

تعرفين لن يسمح البوليس حتى أن تفتحي فمك القذر . تعتقدين انهم سيسمحون لخادمة كافيرية أن تتهم سيدتها بالكذب ؟ كل من يعتقد ذلك مجنون او أعمى . احذري منها . احذري إنها حقيقة أفعى من تحت تبن .

تذهب ايضا إلى غرفة الخادمة في غيابها : في إجازة . لترى أن كانت قد سرقت أشياءها : انتبهي لذلك ـ هيه ! اليست مليئة بالترهات؟ لا تظنيها تأتي إلى غرفتك لأنها فقدت شيئاً ما من بيتها . أوه ، كلا تأتي إن كان فيها شيء ما تعتقد أنه يجب الا يكون فيها ، شيء ما أثمن من أن تشتريه انت . عندئذ ، طبعاً ، تعرف أنك سرقته ، لأنها تعرف انها

تدفع لك مايكفيك فقط وانك لا تستطيعين شراء شيء يكلف اكثر مما تدفع لك . كانت محقة في شكها ، لقد وجدت شيئا جميلا في غرفتك — لكنه ليس لها . لايوجد في غرفتك شيء لها .

لاتظني أن تلك نهاية القصة .

الآن ، ستفكر من اين سرقته . إن لم يكن منها، فمن إذن ؟لاتستطيع أن تشغل نفسها بالتفكير أنها أخطأت بالمجيء إلى غرفتك لترى ماذا سرقت منها وربما لم تسرقي شيئا من اي شخص . لا . لن تقول لنفسها : « آه ، يا إلهي ، ربما أنا مخطئة . ربما خادمتي ليست سارقة . ربما تكون فتاة محترمة وأنا مخطئة » . لا . بل ستقول : « حسن ، هذا ليس لي : لكن هذه الفتاة لم نشتره . والآن من أين سرقته » ؟

نهاية القصة ، هؤلاء النسوة اللاتي نعمل لديهن ، يعتقدن جميعا اننا سارقات . لا شيء سوى سارقات . كلهم جميعهن يعتقدون ذلك . لكن سيدتك تدخل غرفتك من خلف ظهرك وتفتشها بينما انت في قرية دنكان ، في زيارة أهلك .

هل قلت أن لديك طفلاً صغيراً ؟ صبي أم بنت ؟ بنت ، لا بد أنها تفتقدك كثيرا ، هيه ؟ تبكي عندما تعودين من إجازتك ؛ لا تبكي ؟ ياه ! مشين هذا القانون الذي وضعوه ليمنعك من اصطحاب أطفالك وإبقائهم معك حيث تعملين . كما جرى الأمر معي ، من قبل ، عندما كان أولادي صغاراً وتعرفين كان العمل كثيراً وكأنك تعملين عملين في وقت واحد ! ترعين أطفالك وأطفال السيدة ومن ثم إنجاز العمل كله ، هيه . لكنني أعتقد أنه كان أفضل بتلك الطريقة . الآن ، يجب ان تدفعي لامرأة اخرى للاعتناء بطفلك . ولا تستطيعين دائما التأكد من أنها تعتني به جيدا أيضاً ، هيه ؟ شيء مخجل .

كنت اخبرك عن اجري بعد ثماني سنوات مع هذه المراة ، م؟ لا في كانون الثاني من هذا العام ، فقط ، قالت لي . . « أوه ، بقول السيد نعم ، بوسعنا ان نزيد أجرك قليلاً ، يا بنت » .

شيء هائل . تتكلم عنه في أول ايام السنة الجديدة . كلام ، كلام ، كلام . مما يجعلني اتحرق شوقاً لرؤية هذه الزيادة . كطفل ينتظر هدية عيد الميلاد . أنتظر نهاية شهر كانون الثاني هذا ، متحفزة . أنتظر ، وأنتظر وانتظر . حسن « دعيني اخبرك شيئا ، نهايتا شهرين أبطأ من رجل هرم سمين ، اعرج وأعمى . نهاية كانون الأول ونهاية كانون الثاني . هذا ، متحفزة . انتظر . وانتظر وانتظر . نهايتا هذين الشهرين متعبتان دوماً . تعرفين لماذا ؟ لأنك تكونين مديونة فيهما بسبب شراء هدايا عيد الميلاد . ومن ثم تأتيك مصاريف المدرسة واللباس المدرسي . تعرفين كيف ان اللباس المدرسي لا يدوم أكثر من عام ! هذا اللباس المدرسي ؟ يصنعونه بتلك الطريقة ، تعرفين ، في المصنع . يصممونه كي لا يدوم كثيراً ، وإلا فمن اين سيجنون المال ؟ كل الطاقم : المعلمون ، المدراء ، المفتشون جميعهم يأخذون نصيباً من المصنع . المدرسة تشتري عدداً كبيراً من البذات سنوياً ، يكسبون نقوداً كثيرة . سواء من المصنع أو من شراء الجملة . من يدفع نقوداً كثيرة . سواء من المصنع أو من شراء الجملة . من يدفع لهم ؟ « حكلي لحكلك » نحن خادمات منزليات مسكينات . . اصغي إلي ؛ أنا أول من ستنسى ، انا لم أعد خادمة بعد الآن . أنا عاملة ! يجب أن نتذكر ذلك . انا سيئة مثل النساء البيض تماما . هيه ؟ من شب على شيء شاب عليه ، كما يقولون ، هيه .

مثلهن تماما . انظري إلى الساعة تعرفين ماجئت لأخبرك به ؟ إننا سنجتمع كلنا في مطبخ صوفي ، الليلة القادمة . تعرفين صوفي ؟ هناك عند المقهى اليوناني على منعطف هذا الشارع ومتنزه العشاق . سيدتها تلك المجنونة التي تسمح لنا باستخدام بيتها لاجتماعاتنا . لاغرابة في أنها على خلاف دائم مع الحكومة .

على اية حال ، ذلك مكان الاجتماع ليلة الغد . في التاسعة والنصف تماماً . ولا تدعي هذه المرأة تعطلك عن الاجتماع . أخبريها منذ الصباح

الباكر ، قبل أن تبدأ بتلاوة تفاهاتها التي تريدك ان تنجزيها لها في المساء، قولي لها يجب أن ترسلي نقودا وغذاء، لطفلك حالما تنهي شطف الصحون.

في الواقع ، دعيني أتصل بك صباحاً . فسيدتي ستذهب الى لعب البولينج في العاشرة . وبعد ان أنهي المكالمة ستسألك من كان ذلك . يردن دائماً معرفة من كان ذلك عندما تتلقين مكالمة هاتفية ، عندئذٍ ، يمكنك ان تخبريها ان المرأة التي تعتني بطفلك تقول ان طعامه قد نفد .

عندئذ تسمح لك بالانصراف باكراً، ربما في الثامنة أو الثامنة والنصف، عندئذ لا تضيعي الوقت ، تعالي فوراً إليّ ، يمكنك الانتظار عندي ، حتى موعد الاجتماع . إن بقيت هنا ، سترتاب بشيء ما . عندها ستجد لك شيئاً لم تنهيه أو لم تنجزيه جيداً . تلك هي حيلتهن دائما لإعادتك الى المطبخ في منتصف الليل .

عزيزتي ، يجب أن أذهب وادعك تعودين للنوم . يمكنك تخيل ما سنشعر به غداً صباحاً عندما تنطلق منبهاتنا بالرنين .

شيء اخير — ومن ثم يجب ان اذهب . دعيني انصحك يا صديقتي ، لا تصغي لأي شيء تقوله لك الخادمات الأخريات عن سيدتك أو عن زوجها — يخبرك الناس احياناً بأشياء لأنهم غيورون فحسب ، تلك هي المسألة . هؤلاء الخادمات كثيرات الهراء . فقط ، تابعي عملك — ابقي فمكِ مغلقاً . وعندما يخبرنك اشياء — اسمعيها بأذن واحدة فقط . كثيرات سيرون نفس الشيء الذي سيخبرنك به : لا تفعلي ذلك . تسمعين .

هيه ، إن لم تدعيني اذهب فسوف يرنُّ جرس منبهك وأنا ما زلت هنا . دعيني اذهب .

صوفي

اينتك ! لماذا لم تأتي الى الاجتماع ليلة أمس ؟ طيلة صباح اليوم وسيدتي تسألني لماذا لم تأتي . تعرفينها ــ بالنسبة لها ، سواء كانت في مكتب الاستشارة أم هنا في البيت ، فالأمر واحد . يجب أن تحشر انفها في شؤون كل شخص .

قلت لها إنك وعدت بالمجيء وإنني لم اعرف سبب تغيبك . « تتبيئني الامر ؟ أم اتبيئنه انا ؟ » هذا ما تطلبه مني خصوصاً انها تعرف انني لا اريدها ان تتحدث مع كل الخادمات وسيداتهن . هكذا تختم سؤالها لي عن امر لا احب ان اكلمها عنه ؛ وتورطني في مشكلة مع سيدات تلك النساء . تعتقدين ان المراة الملونجو لن تشغل نفسها بنميمة الخادمات . لكن ليست المراة التي أعمل عندها .

كيف حال ام ساقي اللقلق هذه الأيام ؟ آمل انها مريضة وتعبة من تبديل الخادمات . لقد تعبنا من رؤية وجوه جديدة في مطبخها كل يوم ، لكنني أعتقد انك تشغلين عقلك ؛ اعتقد انك ستبقين عندها ، لا تعبئي بهرائها . ذلك جيد . يجب أن تفكري بأطفالك فقط .

تعرفين ؟ اعتقد ان سيدتي قلقة من أن تضيعك سيدتك الملونجو كما ضيعت إميلدا . تعرفين ان إميلدا لا تستطيع الإنجاب ؟ لذلك السبب غير ذلك الشاب الوسيم الذي يعمل في مشفى سكورجروت رايه بشأن زواجه منها . لقد أرسل أهله الى اهلها ليتفاهموا حول أمر الزواج .

لكنه كان قلقاً ، حاولا كثيرا إنجاب طفــل ، حاولا كثيراً . لكن عبثاً . لم تستطع ان تحبل ــ وعرّافة بعد عرّافة لم تستطع مساعدتها . وتعرفين ، كونها حبلت من قبل (قبل ان تعرف هذا الشاب الوسيم) عرفت انها قادرة على الإنجاب . حاولا وحاولا وحاولا . لكن عبثا ، لم تستطع إميلدا أن تحبل .

اخيراً اخبرهما طبيب ابيض بالسبب :

« متى حبلت آخر مرة ؟ » سألها :

« هنانا ــ بنانا ؛ هنانا ــ بنانا » ، ... إميلدا تزرع المكان جيئة وذهابا وتتذكر ، صديقها زوجها ــ تقريبا لم يسمع بعد بالأمر ــ « هيه بالمناسبة ، كدت اصبح اُمّاً ذات يوم . » م ؟ لكن عندئذٍ فقط ادركت إميلدا الحقيقة ؛ عرفت ما حدث لها من قبل طبيب سيدتها .

ذلك الطبيب الذي اخذتها إليه سيدتها عندما اجهضت ، ذلــك الطبيب اجرى لها تجريفاً . نظفها ليس مما كان داخل رحمها فقط ، بل من كل ما يمكن أن ينمو فيه مستقبلا .

ماذا بوسع الرجل المسكين أن يفعل بعد سماع ذلك ؟ لماذا يريدها بعد ذلك ؟ لو كان يريد ثوراً لاشترى لنفسه واحداً .

سيدتي تعتقد ان سيدتك هي السيدة الأسوا ، طبعاً ، لذلك السبب تعرفين ، المراة التي اعمل عندها ، لا ترى إلا القليل من الخير في السيدات ــ في البعض عموماً . أقول لك ، تلك المراة إنسان ، كائن بشري رغم أنها بيضاء تشعر بالشخص الآخر .

تعرفين انها اشترت لي البيت الذي اعيش فيه في ماونستان ؟ مّ ؟ تعرفين ذلك ؟ وهذه التي أتحدث عنها ليست ابنة أمي . ليست اختي ،

بل مجرد امرأة ملونجو أعمل عندها . هذا كل شيء . لكنها تشتري لي بيتاً . كم سيدة ستفعل مثل ذلك لخادمتها ؟ كم سيدة ؟

طبعاً ادفع ثمن لطفها معي . أوه ، يا صديقتي ، أدفع لها الثمن . تعتقدين ان كائنا يمشي على قدمين يمكن أن يفعل لك الكثير دون مقابل ؟ الا يقول لنا البائع الهندي في دكانه : « لا شيء مقابل لا شيء وقليل جداً المعروض للبيع ؟ »

امتلك بيتاً جميلا مزوداً بالكهرباء والماء ؛ لكن كتفي وقدمي تؤلماني دائماً : عمل . عمل ، عمل . أعمل حتى اقع منهكة كل يوم . يهووه ! تسترد نقودها مباشرة من كتفي وركبتي ؟ ذلك ما تفعله . أوه نعم ، ذلك ما تفعله .

هيه ، انا لم ار نومبيني منذ فترة . كيف حالها ؟ ماذا تقصدين انك لا تعرفين ؟ أعتقدت انكما بنات عم . لستما كذلك ؟

يدهشني انها لا تأتي لزيارتك يومياً . نومبيني زعيمة بالولادة . كان يجب أن تكون مدرسة او أن تتجنب اثني عشر ولداً ، ولديها زوج يكسب نقوداً كافية وبذلك تستطيع أن تبقى مع الأولاد طيلة الوقت تتزعمهم .

ارى انك لم تسمحي لها ان تتأمر عليك . لا بد انه سبب عدم مجيئها! الى غرفتك لتقول لك ماذا تفعلين وماذا لا تفعلين . صحيح ؟

في الواقع ، اتذكر الآن شخصاً ما ، اعتقد انها ستيلا ، اخبرتني انها قابلت نومبيني الأسبوع الماضي واخبرتها أنها تلقت درساً ولن تساعد احداً ثانية لأنها جاءت بك الى هنا . والآن تختارين خادمات اخريات صديقات لك .

تعرفين ما قلت لستيلا ؟ قلت لها « اراهنك عن سمكي وبطاطتي المقلية يوم السبت أن تيني لم تسمح لنومبيني أن تعاملها كطفلها البكر » .

بالمناسبة انا اعرف نومبيني . إذا لم تقولي لها نعم على كل شيء تريدك أن تفعليه ـ فستقول انك ، لست جيدة . بالنسبة لها صديقتي تعني « غنمتي التي تتبعني أينما اذهب ، تنفذ أوامري ولا تسأل أية اسئلة » .

لقد اعتادت أن تتنمر علي أيضاً . ليس كثيراً . نادتها سيدتي ووبختها . قالت لها أن تتركني وشأني وإلا واجهت متاعب جمة .

كيف أطفالك ؟ هل تدبرت امر إحضار الصغار التي قلت إنك قلقة ؟ عليهم ؟ شيء مخجل .

اخبار جيدة : لقد وجدت سيلڤيا عملا إضافياً بعد ظهر السبت . وبأجر جيد . هذه الكلبة سيدتها تدفع لها مصروف جيب ، كما تعرفين . لكن الشيء الجيد هو انها لا تريد ان تطعمها في عطلة نهاية الاسبوع لذلك تصرف سليڤيا من الخدمة بعد ظهر السبت ويوم الأحد .

الآن ، سليڤيا لديها عمل ، بعد ظهر أيام السبت . خمسة عشر راندا ، فقط لفترة بعد الظهر . قلت لها الا تتقاضى اجرها حتى نهاية الشهر . ستون راندا الاربعة اسابيع . اليس مبلغاً جيداً ؟ حقيقة ، الطلاب يدفعون اكثر وينقون اقل . هؤلاء النساء اللاتي نعمل لديهن يعاملننا كالكلاب ، واسوا مما يعاملن كلابهن ، في الواقع ، اقصد معظمهن .

اشعر بالاسى كثيراً كثيرا عندما اتذمر من سيدتي لانها في الواقع جيدة . كل الفتيات الأخريات يشكين من اشياء واقعية ـ مشاكل حقيقية كبيرة . سيداتهن يدفعن لهن أجراً زهيداً . لا يتركنهن يرتحن كفاية ؛ ساعة واحدة يوميا ، نصف يوم اسبوعياً ، واسبوعين عطلة ، فقط ، سنوياً . أنا احصل على كل هذه الاشياء .

الست الفتاة التي تحسدها كل الفتيات الاخريات ؟ « اوه ، صوفي ، الله يحبك ، يا عزيزتي . كيف وجدت امراة ملونجو جيدة هكذا ؟ » استمع لتلك الكلمات وقلبي يقول لي إنها صحيحة .

لا يسعني التشكي مثل الفتيات الاخريات : احصل على اجر جيد . عندما أواجه مشاكل في البيت ، عندما تعرف بها ، تفعل شيئاً ما لتساعدني . وتغضب إن لم أخبرها بمتاعبي . هكذا ، ترين ، يجب الا اشتكي .

اقول لنفسي يجب ان اتفهم وضعها عندما تغضب ـ مثل عندما اتأخر . بوسعي أن اتأخر إن لم تكن ذاهبة الى أي مكان أو ان لم تكن تستضيف ناسا . لكن إن جعلها تأخري تبدو غاضبة ، عندئذ بوسعها ان تسلقني حية .

سيدتي طيبة ؛ تلك هي الحقيقة . لكن عندما تجلب لي كل قرية دونكان للعشاء هنا ـ ويجب علي ان اطبخ واشطف صحون حتى التاسعة ليلا ، عندئذ في قرارة قلبي اتذمر .

اتذمر كثيرا رغم اني لا اقول لها شيئاً ـ اتذمر لانني لا اعرف لماذا تجعلني اخدم اناساً سودا مثلي . اشعر انها عقوبة .

انا خادمة وهم اساتذة ، وممرضات ، وعمال اجتماعيون ، وهلم جرا . وماذا يعني ! اهجر القرية وسكانها وآتي هنا للعمل في مطبخ امراة بيضاء . وها هي تأخذ سيارتها ، تأخذها الى القرية لتجلبها الى هنا ، إلى مطبخها . هل هي التي ستخدم كل هذه القرية التي تجلبها الى هنا ؟ كلا . فالخادمة هنا . الآن ، انا خادمة اخدم الناس السود .

لا اقول : إنها يجب الا تحب الناس جميعا . لكن ، في الحقيقة ، هذا ليس عدلا ، ان تجعلني اتعرق من اجل ناس فقراء مثلي . ولا واحد من هؤلاء الناس اعطاني بقشيشا قط . ولا واحد منهم . الناس البيض يبقششون . السود يجلسون ويأكلون فقط . واكون محظوظة عندما يقول احدهم « شكرا لك » ، على الطعام . لا تهذيب حتى وان كانوا مثقفين .

احياناً اغضب جدا وافكر في ترك هذه المرأة . لكنها اشترت لي بيتاً جميلاً في مادانستان . ارضية مفروشة بالسجاد . فيه غرفة

حمام حقيقي ، غرفة حمام بوسعي استخدامها . كيف تتركين امرأة ملونجو اشترت لك بيتاً ؟

اشعر أن البيت قيد ؛ لأنني بسببه لا استطيع ترك هذه المراة . هكذا هو القيد . لا تضعي قدميك البتة في اسمنت طرى . إن فعلت ذلك ، احرصي على اخراجها قبل أن يجف الاسمنت. لقد جف اسمنتي وقدماي الاثنتان في بيت تلك المراة . لقد علقت ــ بقية عمري . لكن ، لا يجب ان اتذمــر .

ولدي بيت ، بيتي الخاص بي . كم واحدة منا تستطيع قول ذلك؛ بما فيهم المثقفين ؟ حتى بعد حياة طويلة من العمل اليومي المضني . هذه المراة جيدة جداً معي . كم واحد منا يستطيع ان يقول : لدي بيت إنــه ملكــي ؟

عندما افكرّ بذلك ، اشعر بالخجل مــن تذمري في قرارة قلبي ــ حتى لو لم تسمعني السيدة ، يجب الا اتذمرّ : ليس صحيحاً ما افعله، هذه المراة جيدة جداً معي .

اشعر بالأسى لأن ليس غالبية البيض مثل سيدتي . لكن هناك قلة من البيض الجيدين الذين يبتلعهم السيؤون ولا نرى الجيدين . ومن ثم ننسى انهم موجودون .

* * *

فرجينيا

يقول الناس ، يأتيك النحس ثلاث مرات . لقد جاءني ، البارحة ، ثلاثاً ، يا اختي .

الاولى ، كنت اشطف الصحون بعد الإفطـار عندما القطة الغبية تمسّحت بساقي ؛ جعلتني اسقط صحناً . اليس هذا نحساً ؟ قولي لي، وخاصة في الصباح .

خمس راندات من اجري ، في نهاية الشهر ، وتعرفين المفتشة لا تنسى ــ لذلك أطلقت عليها الفتيات اللواتي خدمن عندها قبلي اسم المفتشة . إنها تعزو كل خطأ الى الفتاة . خمس راندات : قولي لي كيف سأدفع إيجار البيت . أو ربما سأدفعه على حساب الطعام . بعدئذٍ هل سيأكل أولادي تراباً ؟

النحس الثاني : مضى على عملي عند هذه المرأة خمس سنوات ، الآن . تعرفين ما قالته لي اليوم ؟ يوه !

ربما يجب ان ارى عرّافة . حقيقة ، دون مزاح ، ربما واحدة ما تحاول جعل هذه المرأة تطردني لتأخذ مكاني . أين سمعت عن امرأة تقول لي إنني عفنة ؟ أنا ؟ عملت لدى هذه المـرأة خمس سنوات . واليـوم . تكتشف أن رائحتي عفنـة .

بعد ان انهيت شطف الصحون اليوم ، اخذت صحن طعامي الذي اعطتنيه لأذهب الى غرفتي سمعتها تقول : « خذي ، فرجينيا ، خذي ، هذه لك ، استخدميها » .

نظرت الى ما اعطتني ؛ عجبي ! المرأة تناولني صابون شمس وكريم ــ مزيل رائحة عرق ــ لا بد انها رات عينيّ تسالانها « لماذا ؟ » لم أنبس بكلمـــة . فقطنظرت الى الأشياء في يدها .

« انا متأكدة انك تتعرقين كثيراً جراء هذا العمل المرهق . لا اقـــول إنك لا تستحمين او شيئاً كهذا . »

نظرت إليها ولم اتكلم . افكّر لنفسي ؛ بعد كل هذه السنوات التـــي عملتها عندها ؛ عشت معها هنا ؛ هذه المرأة تعزو كل روائح بيتها الكريهة الى جســـدي ؟

اخذت الأشياء منها ووضعتها هناك على عتبة نافذة مطبخها ، فوق المجلى . يمكن ان تبقى هناك حتى تتعفن . ستراها تزهر في مطبخ .

لولا بطاقة إقامتي ، لكنت تركت هذه المجنونة ، امرأة مجنونة . غير جيدة . غير جيدة على الإطـلاق . تمتلك قلباً قاســياً : قلب لا يستطيع الإحساس بالآخرين .

اقول لك ، يا اختي ، فقـــدت شهيتي للطعـــام . وضعت صحني في غرفتي ، خلعت مئزري ، قبعتي ، الخفين . لبست صندلي وخرجت . إنني لم اسأل نفسي اين كنت ذاهبة . خرجت فحسب .

ومن ثم ، في الشارع الرئيسي قابلت إميلدا (ك) . الم تخبرني واحدة ما أنها تعمل في ناحون ؟ فماذا تفعل في منطقة بعيدة جداً عن مكان عملها ؟

تعرفين ، عندما تعتادين شخصاً ما لا ترين عيوبه . قبل ان تسألني عن حالي سألتني عنك : من يزورك ؟ مَنْ صديقاتك مِنَ الخادمات هنا ؟ هل ما زلت عند السيدة التي تمشي ــ على ذراعيها ؟ كم تدفع لك ؟

أقول لك ، الشيء الوحيد الذي لم تسأله عنك هــو لون سراويلك التحتية . لكن تعرفينني ، لم أخبرها شيئاً .

ذلك كان نحسي الثالث : مقابلة إميلدا . الآن تريـد لَوْمَ الجميع على فقدانها عملها هنا . أتعرفين كيف اعتادت هذه الإميلـدا ، نفسها ، التشهير بالسيدة ساقي ــ اللقلق ؟ كانت تخبرنا أنها تكره العمل عنـد اولئك الناس لأنهم قذرون من الداخل ، في أعماق قلوبهم وأنهم يعتبرونها لا اَمَةً فحسب بل كلبة . واليوم ، تنسى كل تلك الأشياء ، تغير رأيهـا وتريد العمل عندهم .

تعملين هناك فحسب . لم يكونا متزوجين . ثم عندما تعملين عند امراة فأنت لا تتزوجينها . فهي قادرة على تغيير فتياتها متى أرادت ؛ فهي التي تدفع .

اسـتطيع أن أقول لك ، كـل الفتيات سعيدات بذهاب إميلـدا ، يا اختي . كانت محتالة ، محتالة درجـة اولى . تقترض النقـود دائماً . وتخترع لك قصصاً كلما حان وقت السداد .

لا اعرف كم واحد مات عدة مرات في أسرة تلك المراة . لا أظن بقي فيها احياء ؛ لقد نفذ أقاربها .

في البداية اعتدت أن أعطيها نقوداً . تعرفين تلك هي ضمانتنـا ــ مساعدة بعضنا البعض . لا نستطيع الذهاب الـى المصرف عندما تنفـذ نقودنا : ها ! ها ! ها ! إننا لا نذهب الى المصرف أبداً على أية حال . ماذا سنفعل هناك ؟ الأرجح أن يرمينا موظفو المصرف خارجاً نحـن وسنتاتنا التافهـة . ها !

تعرفين كيف اوفّر النقود : بالمجالسة . كل النساء هنا في الجوار يعرفن أن ڤيرجي جاهزة ــ دوماً لأعمال المجالسة ــ إن كانت خادماتهن في إجازات ، مريضات ، لا يستطعن مجالسة الأطفال ــ لأي سـبب كان ــ ڤيرجينيا موجودة دائماً . ذلك ما أفعله لأحصل على بعض النقود الإضافية ولا أسرقها من أخواتي ، نساء يتعرقن طوال اليوم مثلي . لا أذهب إليهن

اخترع قصصاً ليعطينني نقوداً وبعدئذ لا استطيع إعادتها لهن . اجالس ـ يومياً . وتعرفين ماذا ؟ بعض هؤلاء النسوة الرخيصات ـ تعرفين ما يفعلن بي ؟ « ڤرجينيا ، يا فتاتي ، اكوي هذه الثياب لتمضية امسيتك بدلاً من الجلوس هنا دون فعل شيء » .

اتستطيعين تخيّل ذلك ؟ انت تجالسين الاطفال . لكن المراة تدفع لك ، تريدك ان تعملي فوق ذلك . يعتقدن ان مراقبة أطفالهن امراً سهلاً ؛ يعتقدون انها زبدة نباتية أو مرملاد ؛ إنه ليس عملاً . ذلك ما يعتقدنه . هذا يظهر لك كم يعرفن أطفالهن .

إن فتاة تجالس أطفالهن طيلة غيابهن عن البيت ؛ تجلس هناك وتستمتع بوقتها . ويقلن لانفسهن : « لماذا ندفع لها » كي تجلس وتمتع نفسها في بيتنا الجميل ، تعتني باطفالنا الجيدين . هو ـ هو ! اتمنى لو انهن يجالسنهم . لكنهن لن يرين عندئذ اي شيء على اية حال ، حتى لو جالسنهم . سيبقى الأطفال هادئين لان سوادنا هو ما يجعل الأطفال البيض لا يحترموننا . لا يستطيعون احتماله ؛ يتعلمون ذلك من آبائهم . ايـن رأيت صغار السلطعون تدبُّ مباشرة ؟ الأطفال يتعلمون من آبائهم .

بالنسبة للنساء البيض ، أن تراقبي اطفالهن ، تضيّعين راحتك ونومك ، تتلقين كل وقاحة اطفالهن : ويعتقدن انك تستمتعين بوقتك . هنّ اللاتي يرقصن وانت التي تراقبين اطفالهن . لكنهن رسخن في عقولهن انك انت من تستمتع بوقتها . يدفعن لك راندا لكل ساعة ؛ ويغضبن لانهن يدفعن لك لتستمتعي بوقتك . اقول لك ، انا ؟ لن ادهش إن طالبتني امراة بيضاء ذات يوم ان ادفع لها لانها سمحت لي ان اجلس في بيتها الجميل وامضي الوقت مع اطفالها الجيدين .

النساء البيض سريعات في رؤية المعروف الذي يقدمنه لنا لكنهن لا يرين ابداً اي معروف تقدمينه لهن . تذكرني سيدتي دائماً كيف تدبرت لي بطاقة إقامتي . الآن ، برايها ، يجب ان اموت على ركبتي

وأنا أمسح أرضية بيتها . لقد اشترتني عندما تدبرت لي بطاقة إقامتي ؛ ذلك ما تعتقده . لأنها تدبرت لي بطاقة إقامتي فبوسعها أن تفعل أي شيء قبيح ـ لا أستطيع أن أتركها . بوسعها أن تدفع لي أجراً أقل من كل الفتيات الأخريات ـ أنا المحظوظة : « من تدبرت لك بطاقة الإقامة يا فتاتي ؟ » ذلك هو جوابها لأي شيء أقوله عندما أتذمّر .

سأذكّرها ذات يوم أنها ليست من رفعت ساقيها لذلك الكلب الأبيض ، مفتش البانتو الذي ختم لي بطاقة إقامتي . أعتقد أنها نسيت ذلك .

أنا حريصة جداً على نقودي ، يا عزيزتي ؛ فهي لا تهطل علي من السماء . ومن ثم ، ناس مثل صديقتك إميلدا ، يفتحن أيديهن ويعتقدن أنك يجب أن تضمي نقودك فيها وتنسين ما فعلت .

هل طلبت منك سيدتك أن تجالسي الأطفال ؟ اعتدت ان اجالسهم طويلا ؛ قبل أن تعمل إميلدا هنا . إنهم يدفعون جيدا للمجالسة إن كنت لا تستطيعين فعل ذلك ، تذكري : ڤيرجي ـ جاهزة دوماً . أعرف أن الفتيات يهزرن كثيرا عن سيدك . يقلن انه يحاول خداع الخادمات .

الآن ، ذلك، ما لا أعرف عنه شيئا ، ويجب ان يكون الناس حريصين فيما يقولون . يجب لا يقولوا أشياء لا يملكون إثباتا عليها ؛ ستودي بهم الى السجن ، الافتراء على الناس البيض . وهناك قانون بخصوص ما يتقوّلنه عن ذلك الرجل . تشيعين أن رجلا يخرق القانون . أيمكنك إثبات ذلك ؟ لا ؟ صوني لسانك إذن ؛ ذلك ما أقوله ، أنا . صوني لسانك . تذكري ، لسانك شرطيك . يمكن أن يوصلك الى السجن .

* * *



جويسي

جاءتني امي بهذا العمل ، لكن صدقيني ، لن يطول بي المقام كخادمة. كنت طالبة مرشحة لدخول الجامعة . لكن الدراسة علّقت منذ احداث الشغب . هكذا ، قالت امي : « نتومبي ، اذهبي الى العمل حتى ينتهي هذا الوضع ومن ثم تعودين الى المدرسة » .

تعرفين عدد الطبيبات الأفريقيات السـود ؟ في هذا البلد كله ؟ خمس فقط .

حسن" ، انظري إلي . انظري إلي جيداً ! سيصبحن ستاً ــ ذلك ما أعدك به .

إني انظر الى الناس الذين أعمل لديهم ، انظر إليهم واشعر بالأسى لأجلهم ، تعرفين . إن أيـام الأسياد والسيدات والعبيد الكثر ، الى زوال . صدقيني قبل زمن ليس طويلا ، سيتعلم هؤلاء الناس أن يطبخوا لأنفسهم ، وينظفـوا لأنفسهم ، ويشطفوا أرضيات بيوتهم بأنفسهم ، ويغسلوا ثيابهم بأنفسهم .

سيتوقف استغلال العامة هذا . أيامه معدودة . وسيُدفع للعمال أجر جيد . هل سبق ورأيت رغيف خبز غير أبيض ؟ أيمكنك شراء حليب أسود ؟ هل ينخفض سعر الجبنة عندما يبيعها شخص أسود ؟ جميل ان تحصلي على عمل رخيص.الكن سعر العلف لا يتغير سواء كان الحصان الذي يأكله اسود أم ابيض .

سيدة عمتي صوفي محقة نوعاً ما . العمال المنزليون يجب ان يعملوا ساعات عمل حضارية مثل كل العمـــال الآخرين . يجب أن تتاح لهم إمكانية العيش مع أسرهم . ويجب أن يعتبر جريمة إعطاء امرأة ناضجة أجراً اقل من مصروف الجيب الذي تعطيه لإبن الثانية عشر .

وهي محقة في انه على العاملة المنزلية ان تطوّر نفسها . لكنني لا اوافقها على فكرتها حول وسائل التطوير .

شكرا جزايلا ، لكنني لا أريد أن اتعلم كيّ القمصان المنشاة على نحو افضل . لا اريد أن اتعلم اسلوب ترتيب طاولة الطعام الاكثر إثارة للشهية . اشعر انه يجب الا يتحكم على امرأة بالعمـــل في مطبخ امرأة اخـــرى .

يجب أن يوجد قانون ــ لا يسمح لاية واحدة أن تعمل كخادمة اكثر من عشر سنوات ما لم يكن لديها وثيقة معتمدة بأنها معاقة ذهنيا وان لا امل في إعادة تاهيلها .

المعاقات ذهنيا ، فقط ، الغـــير قابلات للشفاء يسمح لهن العمل كخادمات منزليات طيلـــة حياتهم العملية . ويجب أن تكون السيدة مسؤولة عن تقديم خادمتها ــ الذي يجب أن يوازي امتيازها بالحصول على الخدمة .

ويجب الا يكون لون الخادمة اســـود بالضرورة . النساء البيض والرجال من كل الالوان يجب أن يسمح لهم أو يضمن لهم امتهان اعمال الخدمة المنزلية بالتكافؤ . يجب الا تحصر هذه الاعمال بالنساء السود . ولا موقع السيدة والمدام ايضا : يجب ان يتبوا السود هذه المواقـــع ايضاً . جميعنا بحاجة للتطور ، للازدهار ، للتفرق ، وان نكون احراراً . يجب ان نقلع عن العيش وفقاً لوصفة .

تخبرينني عن السيدة البيضـــاء اللطيفة التي تشتري كتبا لأولاد خادمتها . لكن اليست تلك الخادمات نساء عاملات ؟ لماذا يحتجن لشخص آخر بدفع ثمن كتب أولادهن ؟ ولماذا تشعر المراة البيضاء أنها مجبره على شراء الكتب لأولاد ليسوا أولادها ؟ أيمكن أن يكون هناك في ضمائرهن المشوشة اضطرابات غامضة ؟ أيمكن أن يكن أنفسهن مقتنعات بعدم كفاية الأجر الذي يدفعنه لمستخدماتهن ؟ إن كانت تلك هي الحالة ، حتى نصف الحالة ؛ عندئذ فإن شراء الكتب من الصعب أن يكون الحل .

بالتأكيد ، حتى في أذهان الناس الذين نسوا منذ زمن طويل ماذا يعني أن ترى الأشياء بوضوح ، لا بـد انه واضح أن الرجال والنساء البيض لا يدفعن لخادماتهن أجراً كافيا : دع جانباً ذكر الأجر العادل . فذلك يمكن ان يصدر فقط عن سيدة أو سيد عادلين .

تستطيع المراة البيضاء ان تفعل كل شيء لأجل خادمتها . تستطيع ان تأخذ الخادمة الى طبيبها ، تستطيع أن تعطيها الخضار لتأخذهـا لأولادها يوم إجازتها ، يمكن أن تعطيها ثيابها القديمة ؛ يمكن أن تدفع تكاليف تعليم أولاد الخادمة ؛ يمكنها ان تأخذ الخادمة معها عندما تذهب في إجازة الى بامبونيستاد ؛ وآلاف الأشياء الجميلة الأخرى مثل هذه : لكن ، هي ، تقدم للخادمة ما كانت ستفعله الخادمة لنفسها لو امتلكت النقـود .

لو أن المراة البيضاء اشترت الجنة ذاتها للمراة السوداء التي في خدمتها ، فستكون جهنماً لها . لا شيء يمكن أن يعوض المستخدمة المغبونة الأجر . لا شيء ، سوى زيادة أجرها .

الفتات الذي تعتبره المراة البيضاء كحسنة ليس أكثر من مهدىء لضميرها ، امتهان لكرامة الخادمة ، وانتهاك لاحترامها ــ ذاتها . تبقى الخادمة في موقع المدينة الذي ــ لا ينتهي ، أبدا . انها تعمل . ادفعوا لها وادفعو لها بالعدل . عندئذ وعندئذ فقط تصبح ــ حتىفي عينـي السيدة ــ انسانه راشدة كما هي بالفعل .

المساواة بين الجنسين في هذه البلاد اعيقت ، جزئيا ، بسبب هذا الموقف الابوي للنساء البيض تجاه النساء السود . كيف يمكن أن أكون اختا لابي ، المرأة البيضاء ؟

الحياة تَعَلّم . متى ستتعلم العاملة المنزلية أن تدبر نقودها ان كانت لا تراها ؟ مئتا راندا . مبلغ لا يكفي ثمن طعام . أين ايجار الغرف الاربعة في مداز بهي ؟ يمرض الاطفال . تلك نقود المعاينة ، نقود الدواء، ونقود للغذاء الخاص الذي يصر الأطباء والممرضات أن يتناوله الولد المريض : أعطها حليبا . اعطها فاكهة ، اعطها خضارا طازجة . لايخبرونك من أين تأتين بالنقود لشراء هذه الاشياء . أوه ، كلا . واجساد الاولاد تغطيها التقرحات بسبب الطريقة التي يخزقون بها ثيابهم . لا تدوم ثيابهم طويلا . والمواد التافهة التي تصنع الثياب منها قصيرة العمر أيضا . يصنعون ثيابا قصيرة الاجل ، يصنعونها بتلك الطريقة كيما نعود ونشتري ثيابا اخرى في أقرب وقت . ومن ثم هناك مصاريف المدرسة لشراء فيتكويك وشراب بارد . يريد الاولاد مصروفهم المدرسي والا فلن يذهبوا الى المدرسة . انت التي تعملين لتحصيل هذه النقود وأنت آخر من يستخدمها للانفاق على نفسك . لا تنسي ، الكنيسة تريد أيضا ثمن بطاقاتها . م ؟ كلا ، النساء اللواتي يعملن في المطابخ لا يمتلكن نقودا البتة . وهذه امرأة تعمل ، لا عملا مؤقتا بل دائما انها تنام في مكان عملها بحيث ، بطريقة ما ، تعمل اربعا وعشرين ساعة يوميا . عدا وقت الاستراحة والنوم اذا كانت محظوظة ترى اسرتها أقل من عشر ساعات يقظة اسبوعيا . من أجل مئتي راند تافهات شهريا .

بدل من ان تكون لطيفة وتشتري هذا وذاك للخادمة ، لتترجم هذا اللطف الى أجر لهذه المرأة ــ الى راندات وسنتات تستطيع ان تعدها وتعتبرها حقها الشهري ، سواء أصيب أولادك بالجدري أم لا أو اضطررت لتغيير لون عدساتك اللاصقة أو ان مرسيدس زوجك بحاجة للاصلاح .

حتى تفعل النساء البيض هذا . ستبقى الخادمات غارقات في الفقر في استخدامهن المربح . وقد سئمت وتعبت من الناس الذين يخبرونني عن هذه المرأة التي اشترت لخادمتها بيتا . من اشترى البيت الذي تنظفه الخادمة يوميا ؟ البيت الذي تقطنه السيدة البيضاء مع أسرتها ؟ هل سمعت برئيسها او رئيس زوجها يتبجح هنا وهناك كيف اشترى بيتا لمستخدمه ؟ لم لا ؟

لانه ربما لا يعرف الرئيس ان كان بيت مستخدمه يطل على الغرب ام الشرق ، الشمال أم الجنوب . هذا ليس من شأنه ما لم يكونا صديقين . لم لا نصبح لا أصدقاء فحسب بل أسرة للناس الذين نعمل لديهم ؟ الناس الذين اسرهم محرومة من الانسباء ؟

البيض يعملون . يتعلمون ، يعيشون .

نحن نعمل أيضاً . نكسب فتاتاً . نعيش على أمل أن نعيش ذات يوم . لكن ذلك ــ الذات يوم ــ لا يأتي أبدا ونموت فقراء باقين على الامل .

صدقيني ، اقصد ما اقول عندما اقول انه لن يطول بي المقام في هذا النوع من العمل . افضّل ان أقتل نفسي من أن أكون مربية بقية عمري . أمي خادمة منزلية ، وكذلك أمها . وكذلك كانت أمها وأمها من قبلها . أربعة أجيال من الخادمات المنزليات ــ ذلك يكفي ــ لا مزيد . أنا ارفض أن أكون عبدة .

عندما أرى نفسي محشورة في هذا الصندوق الذي يسمونه غرفة الخادمة أسأل نفسي كيف لم تجن الخادمات اللواتي عملن هنا ؟ تخيلي النوم في غرفة تبدو جدرانها وكأنها قادرة أن تطبق عليك في أي وقت تزعجيتها . ومن ثم أفكر بكل أولئك النسوة اللواتي يعملن هنا في الجوار . بعضهن لم يعدن شابات ؟ لماذا مازلن يعملن هنا ؟

هل لاحظت كل هؤلاء الرجال ، في وقت متاخر من الليل ، آباء اطفال تركوا اطفالهم يهتمون بانفسهم ليلا ، يقتلون الوقت قرب الدكاكين بانتظار ان يذهب الناس البيض الى النوم كي يزحفوا الى زوجاتهم او عشيقاتهم ؟

في الصباحات ، ترين كل اؤلئك النسوة في زيّهم الموّحد برافقن البيض الى المدارس . يا له من منظر . والمراة البيضاء تعرف أن للمراة السوداء التي تعمل عندها اطفالاً ايضا . كونها تعرف هذا ، فلماذا لا تهتم بهذه المراة في بيتها . الأم التي لم تاخذ أولادها الى المدرسة قط ، والتي لا تكون في البيت عندما يعودون من المدرسة ببعض الاذى ، حقيقي ام متخيّل ، او عندما يواجهون يوما صعبا لكونهم اطفال .

هؤلاء النساء السود ، في معظم الحالات ، مديرات منازل أكثر من اي شيء آخر . لكن ليس في أعين النساء البيض ، إنهن طفلات ، بل اسوأ من طفلات : فالطفلات يكبرن ، لكن الخادمات المنزليات يبقين طفلات حتى الممات . عندما يكبر الأطفال البيض الذين رعتهم المراة السوداء ، ينظرون إليها كطفلة ، تماما مثلما نظر إليها والداهم طيلة خدمتها عندهم ، تلطّف أيامهم وتجعلهم ينسون الجانب الأقسى من إدارة المنزل .

النساء البيض يمكن ان يكبرن ؛ يمكن ان يصبحن كاتبات متميّزات بطلات غولف ، مصممات ازياء شهيرات ، إداريات ، واي شيء آخر ؛ والنساء السود غير المقدّرات ، المستعبدات لديهن اولاً واخيراً ، هن اللواتي يمنحنهن الوقت لممارسة هواياتهن ، مطاردة احلامهن ، وعيش رغباتهن حتى الشبع . « الوقت مال » الا نقول ذلك ؟ ومن ثم أين النقود التي تحتاجها النساء السود للحصول على وقتهن ؟ .

الوقت الذي تقدمه النساء السود للنساء البيض ، بالعمل لديهن ، اكثر من المال : إنه الحرية بالنسبة للنساء البيض : تصبح الحرية

ما تريدها أن تصبحه . وتفشل في رؤية مديونيتها للخادمة السوداء التي لا تطلب مقابل ذلك إلا القليل : التحرر من الحاجة ، اجر يعادل عرقها .

هؤلاء الناس الذين اعمل لديهم يعتقدون أنهم يدفعون لي تكملة : « اقرئي لبينلوب قصة من كتابها الهكسوسي » . لا ذِكر لأجر إضافي لأنهم طلبوا مني تعليم الهكسوسية لابنتهم . رائع . إنها لفتي الأم وأنا سعيدة انها تتعلمها ؛ لكن ايمكنك أن تتخيّلي والدتي تطلب من سيدتها أن تعلمني الإنكليزية ؟ وقاحة . طبعاً ، لن تحلم والدتي المسكينة بفرض هذا على سيدتها ، لكن السيدة لا تعبأ باستغلال الخادمة . خلال وقت عملي ، يجب أن اقرأ قصة كي تنصقل هكسوسية اطفالها . وها أنذا ، في المقام الأول ، بينما انا افضّل أن أكون في المدرسة . لكن ذلك لا يجعلهم يفكرون بي كطالبة انقطع تعليمها والتي تشتاق للمدرسة . كلا . حتى عندما يلاحظون أنني أستطيع القراءة ، جميعهم يستطيعون التفكير في إمكانية إقادة اطفالهم الجديرين بأن يكونوا في المدرسة ومن المتفوقين . انا ؟ بالنسبة لهم حمار يجب أن يعمل . اخبرتهم أنني لا أجيد القراءة ولا احب قراءة القصص . لم يطلبوا مني ذلك ثانية . إنني في انتظار اليوم الذي يطلبون فيه مني أن أعلّم اطفالهم . لنقل انكليزي أو رياضيات .

اتساءل ماذا سيقولون عندما اخبرهم أنني سأتغيّب يوم الجمعة من الأسبوع القادم . هناك دعوة لاجتماع الطلبة ، المدرسين والآباء يوم الجمعة القادم . يجب ان أذهب . اريد أن أكون موجودة عندما يتّخذ قرار . أريد أن اعرف ماذا سيجري بحيث استطيع أن أضع خططي الملائمة لن يَمُرَّ يوم ميلادي العشرون وانا في هذا العالم . هناك طريقة واحدة أمامي للذهاب من هنا وهي : الرحيل ! ... الرحيل ! ... الرحيل ! .



ليليان

يا طفلتي ، آه ، لو كنت شابة مثلك لعدت الى المدرسة ؛ اذهبي الى مدرسة ليلية . هذا العمل العبودي الذي نقوم به ليس جيداً البتة . انظري إليّ — شعري أبيض ، وجهي متغضن ، الروماتيزم — من السابعة صباحاً تريني على ركبتي المع المصطبة الأمامية . بينما ركبتاي تصرّان فوق المصطبة الاسمنتية يتناول هؤلاء الأولاد الذين أخدمهم ، القهوة في اسرّتهم .

من تعتقدين يقدّم لهم القهوة وهم مستلقون على ظهورهم ، هاتان اليدان المتغضنتان . وانا عجوز بعمر جدتهم . لكن رغم ذلك ، فالبيض لا يحترمون العمر . بالنسبة لهم ، المعمرون عديمو الفائدة . هكذا يرونني ؛ عجوزاً عديمة الفائدة .

كم عملت في المطابخ ؟ كم سنة ؟ واليوم قيل لي إن الفرشاة لا تنظف جيّداً : « ليليان » ، قالت لي المرأة ، « تعرفين جرن المرحاض — التجويف الذي ينزل فيه الماء ؟ إن الفرشاة لا تنزل عميقاً كفاية لإزالة كل القذارة .

شيء ما انباني اني سأسمع ما يسيؤني . انتظرت إيضاحها . عرفت انها لم تأت الى غرفتي خلال فترة استراحتي لتقول لي إن الفرشاة غير طويلة كفاية .

« اريدك أن تنظفي تجويف المرحاض بقطعة قماش — استخدمي فيم(*) ، الكثير من الفيم . »

(*) فيم : اسم تجاري لسائل تنظيف .

عندئذٍ عرفت ماارادت ، إن قطعة قماش أسوا من الفرشاة . هل في القماش قوة ؟ ايمكن أن يفرك أقسى من الفرشاة ؟ أهي أطول ؟

اتعرفين ماذا ارادتني هـذه الطفلة أن افعل ؟ تريدني أن أضـع يـدي ـ ي دي ـ هنـاك في التجويف حيث ينزل خراؤهم . يجب أن تلامس يدي خراءهم . لا خرائي ؛ فهي لم تتكلم عن مرحاضي ، تفهمينني .

انا العجوز ، يجب ان احمل خراء اليافعين بيدي هاتين . هؤلاء الناس ـ عندما يدفعون لك يعتقدون انك اقل من كائن بشري .

اتساءل ماذا ستفعل لو طلب منها رئيسها أن تفعل شيئاً قذرا كذاك ، م" ؟

انظري الى الغرفة التي انام فيها . إن كوخي الصغير في كرسرودر افضل منها . إن دجاجة ستختنق في هـذا الشيء ، إنها صغيرة لهـذه الدرجة . لكنني خادمة ، يفترض أن ليس لي عينان تريان عندما يحشرني شخص ما في كفن ويسميه غرفة خادمة . لماذا لم يضعوني في المرآب ؟ ففيه متسع أكثر ـ رغم وجود السيارتين فيه .

اتمنى ان يُجبر البيض على العيش ، يوماً واحداً ، مثلنا الآن . ليوم واحد فقط . سيموتون مثل الذباب . وسيموتون وهم يصرخون رعباً ـ سيجنون ـ يجنون ـ يجنون ، سيموتون من الجنون . إننا اقوياء حقاً ـ لنحتمل هكذا عيشة .

تعرفين ما يعجبها فيّ ؟ تقول ، « ليليان انت جيّدة حقاً . فأنـا لا اقلق عنـدما يأتيني ضيوف . فانت تجيدين التصرف . الحمـد لله انك خبيرة . »

لكنها لا تعرف من اين جئت بهذه الخبرة . لقد دفعت ثمنها تفضنا، من اوجـاعي وآلامي . والعمر والعمـل الطويل المضني . ذلك هو ثمن

الخبـــرة . وإن استطاعت أن ترى الخبرة فيجب الا تسخّرهـــا لتلميع المصطبة في السابعة صباحاً او لأقدّم لها القهوة في الفراش في السابعة صباحاً . الخبرة يجب الا تحمل الخراء في يديها .

كل ما يقلقها ، تقول ، عندما يكون لديها ضيوف ، هو إن كان لدي ما يكفي من الطعام ،ماأطبخه ــ ما يكفي كل احتياجات الضيافة . ذلك ما يقلقهـــا .

وانا اقلق بشأن الصحون التي سأغسلها . الإبتسامة التي يجب ان ارسمها على وجهي طيـــلة الوقت . كم مرة يجب ان اقـــول « شكراً سيدتي ، شكراً سيدي » لكل أؤلئك الناس عندما يطرون عليّ أو على طبخي . ورغبتي الوحيدة طول الوقت ، هي ، أن أريح عظامي الهرمة في الفراش . لكن يجب أن أبادل بالابتسام ابتساماتهم الحمقاء عديمة المعنى التي تأتي من لا مكان . أبتسم مســـائلة نفسي متى اصبحت صـــديقتهم او واحدة ما ربحت سباق تموز .

لقد عملت عند والدتها . ربيّتها مذ كانت رضيعة على صدر أمها . والآن تعطي كلبها قطعة اللحم الأفضل وترمي إليّ بالاسوأ . تنفق على طعام الكلب ، طعام القطة ، والأشياء الأخرى لحيواناتها ــ اكثر مما تدفع لي . تقولين إنني ارخص ، في عينيها ، اقل من ثمن كلب ؟

إن ابني وحفيدي لا يأكلان اشياء جيدة كالتي يأكلها كلبها وقطتها ؛ اقول لك ، ذلك صحيح . لكنني تسمّرت هنا ؛ لا أستطيع الرحيل . عندما غادرت السيدة ، والدتها ، تركت لي نقود تقاعدي مع ابنتها ، هذه البنت ، هـــذا الشيء الذي أخدمـــه . تلك هي نقودي وسأنتظرها حتى ولو مت ؛ سأموت هنا انتظرها . ذهبت السيدة ، والدتها ، لتعش في انكلترا .

طول سنوات عملي عنـــد السيدة والسيد ، والدا هـــذه المرأة ، عندما كانا يدفعان لي مرتبي كانا يقولان دائماً : « ليليان ، يا فتاتي ،

لا تقلقي ، عندمـــا تكبرين لن تحتاجي شيئاً . إننا نضـــع لك نقوداً في المصرف . كلما دفعنا لك مرتباً نقتطع منـــه قليلاً ونضيف إليه أكثر ؛ وذلك ما ندّخره لشيخوختك . » ألست عجوزاً الآن ؟

أوه ، ماذا فعل بي الله ؟ لماذا اخـــذ سيدي ؟ ذلك الرجل ! كان إنساناً طيباً ، لطيفاً ، قدّيساً انا متأكدة أن فكرة ادّخار النقود كانت فكرته . السيدة . . . كانت لطيفة ايضاً . لكنها بخيلة ! لا يمكن أن تكون فكرتها ، البتة ، أن تعطيني نقوداً عندما اشيخ . كلا . ليست فكرتها . إنها جيدة لكنهـــا ليست لطيفـــة ـــ لكن ، طبعاً ، فلماذا يختارهـــا الله ولا يختار السيد اللطيف ؟ الا نقول أن الآلهة عندما تختار تختار الأطباق الشهيّة ؟ نعم ، يريدون أخذ الذين نقدّرهم .

اين إميلدا ؟ هل تتلفن لك ؟ ماذا ! تعرفين إنها فتاة مرحة . هي في مثل عمرك ام اكبر ؟ أصغر . أعرف انها لا يمكن أن تكون . إليك عني ، تظنينني ساصدق ذلك ؟

متى ستجدين لنفسك رَجُلاً شاباً . . . مّ دعيني احذرك ـــ انا في عمر والدتك ، يا طفلتي : إن كنت لا تريدين متاعبا مع احد الأسياد هنا ، بما فيهم سيدك ، وأوّلهم أيضا ، فابحثي لنفسك عن رَجُلٍ .

هكذا تورطت إميلدا . كانت ترفض كل من تقدم لها . بعد فترة صارت تجالس كل ليلة . احذري مجالسة الأطفال ، خصوصاً إن كانت المرأة وحدها ستخرج من البيت . اسألي نفسك لماذا يريدونك ان تجالسي الأطفال ما دام والدهم موجوداً . اسألي نفسك ذلك السؤال وإلا ستجدين نفسك تجالسين أطفـــالاً لحاهم طويلة . انـــا لا اثق بسيدتك الرقعاء . اظنها تعرف ما يفعله زوجها مع الفتيات السود .

لكن لماذا تترك زوجها يعبث مع البنات ؟ انا متأكدة انها تعرف لكني لا افهم لماذا تسمح بذلك ، لماذا تتظاهر بعدم المعرفة .

إميلدا المسكينة . أنا لا أحبها كثيراً لكن يجب أن أعترف أنني تألمت كثيراً لأجلها . نعم ، لقد انفطر قلبي عليها . خصوصاً بعدما فعلته سيدتها ؛ تعرفين ما جرى لها كادت تموت .

حدث ذلك بعد عام تقريبا من وصولها وعملها لدى السيدة الرقعاء. راحت تتظاهر أنها لاتحمل دما حاراً مثل الأخريات . لا ، لبائع الحليب . لا للجنائني . لا ، لعامل دكان الزهور . ولا ، لزوج صوفي ، موظف في مكتب إدارة بانتوا . لاتبحلقي فيّ هكذا . سيبقى الرجال كلابا دائماً ؛ ستكون لهم أكثر من امرأة يا طفلتي . هم هكذا منذ أيام أجدادنا .

حسن ، ياطفلتي ، أنا لم أولد البارحة . كان على إميلدا أن تقول نعم لرجل ما . رأيت مؤخرتها تكبر وتعرض وتقسى ؛ تقوي ذاتها لتتحمل الثقل .

لكن أنا ، لا أتسرع ، أنتظر الأشياء لتأتيني من نفسها . أراقب وانتظر ، أنتظر ، و ، أها ! ألم تبدأ تلبس الأفرول طول اليوم داخلا وخارجا ؟ حتى أيام العطل ؟

ومن ثم اشتد بياض عينيها ، أصبحتا حوراً ؛ تلك علامة ، دائما . حور العينين . تصبحان حوراً كعيني طفل .

تعرفين ؟ أسيادك ــ تلك المرأة ! أنا لست غرة . أرسلوها الى طبيبهم . نهاية القصة ، ياطفلتي . اختفت تكورات المرأة لدرجة تظنين احدا ما كوى لها بطنها . أصبحت مسطحة . مسطحة . مسطحة . . . مثل بقة في بيت مقفر .

لكنها كادت تموت ، وتلك آخر مرة ابيضت عيناها . إميلدا المسكينة .

بعدئذ كادت تتزوج . ولم تتزوج . بعدئذ راحت تقول نعم لكل الرجال . ضاجعت نصف الرجال هنا . جاءت زوجة من المجمع السكني

ـ جاءت هنا وعملت فضيحة كبيرة ، هنا حيث تعملين انت . واضطروا لطلب البوليس .

حتى اليوم ، اسمع ان إميلدا مازالت تضاجع أي شيء يلبس سروالا تحتيا .

احذرك ، جدي لنفسك رجلا شابا . إن لم يسمع زوج سيدتك هذه ، نحنحة رجل هنا في أقرب وقت في بعض الليالي ... ستصبحين شغلته ، أستطيع ان اجزم لك بهذا . لاتقولي ، ذات يوم ، إنني لم احذرك .. اقول لك خبرت الحياة طويلا جداً .

ذات مرة كان سيد ابنتي مثل سيدك انت . كانت تخاف حتى أن تتواجد معه في نفس الغرفة . والرجال مثله ، هكذا رجال بيض ، سيجدون دائما سببا للتحدث مع البنت رغم وجود زوجتهم التي يجب أن تكون هي من تقول للبنت ماذا تفعل . لكن لا ، يجب أن يخبروها هم . يذهبون ، أحيانا ، حتى إلى غرفتها ، في أي وقت ـ نهارا أو ليلا . عندئذ تعرفين انهم سيئوون . ماذا يريدون من البنت ؟ أليست السيدة هي من يجب أن تتفاهم مع الخادمة ؟

لكن عندما كانت ابنتي تعمل عند امراة لديها هكذا زوج ، كانت متزوجة . كان زوجها من نوع ؛ تعرفين بذلك النوع الذي لم يسمع قط بالمهر ؟ الأفريقي الذي يريد أن يعتقد انه ملون وانه يتخذ زوجة ؟ زوج ابنتي كان من ذلك النوع . كلب . كان على ابنتي أن تعمل بجد ، عملا مضنيا لوقت طويل . زوجها هذا لم يعرف أن الأطفال يأكلون . وهكذا لم تكن ابنتي لقمة سائغة وعرفت كيف تحمي نفسها .

لقد دربت ابنتي جيداً ، فلا يوجد ما تعجز عن فعله : تستطيع حتى ان تخبز الكاتو . عندما كانت السيدة ، والدة هذه السيدة ، التي ذهبت إلى إنكلترا ، عندما كانت تستقبل ضيوفا ، في الصيف (تعرفين يأتي السياح من بريتوريا زرافات زرافات إلى شواطئنا) كانت تطلب مني

ان اصطحب ابنتي للمساعدة . كان ذلك يجنبها سوء المعاملة خلال اسابيع العطلة الصيفية الست . كانت تعمل معي طول الوقت ، وكانت تنال أجراً جيدا ايضاً .

عندما بلغت الخامسة عشر ، وحين أخرجتها من المدرسة كانت تستطيع أن تنظف ، تطبخ ، تغسل الثياب ، تجالس الأطفال ـ كل شيء. كانت السيدة تطري عليها جيداً وحصلت على عمل بسهولة . عملها الثاني، هذا ، الذي مازالت فيه حتى اليوم . أعتقد أنها ستموت وهي تعمل فيه . تعمل في بيت القنصل الفرنسي . وهؤلاء البيض من ماوراء البحار ليس لديهم هذا الإبهار الشديد . يدفعون لها أكثر من أية واحدة أعرفها ؛ اقصد واحدة تعمل في مطبخ .

إذا حاولت هذه السيدة البدون ـ ساقين ان تضيمك ، تذكري ان لابنتي صلاتها في كل القنصليات . حتى إنها حصلت لابنتها ، ابنتها الكبرى ، على عمل في قنصلية أخرى ، القنصلية الأمريكية . حتى إن ابنتها لا تعمل في المطبخ . فتاة تحمل شهادة J. C فقط ، وتصنع الشاي في مكتب القنصلية . مارأيك في ذلك ؟

إننا نعمل ببلاش في هذه المطابخ . سيغمى عليك إن أخبرتك كم تأخذ حفيدتي ، التي تصنع الشاي في القنصلية ، إن أخبرتك كم يدفعون لها. تلك الطفلة تتقاضى أسبوعياً أكثر مما أتقاضاه أنا في شهر . وياصديقتي، لديها تقاعد . معاش تقاعدي تستطيع قراءته على مظروف راتبها . نعم ، تتسلم أجرها في مظروف ، طبع عليه اسمها . لا أحد يناديها عندما يريد ويقول لها بصوت لادفء فيه ، « خذي ، ليليان » وبعدئذ تسألك : « أنت سعيدة ؟ »و كأنها أعطتك شيئاً دون مقابل . وكأنك لم تعملي ، تتعرقي ، من أجل ماكانت تعطيكه . وكل ما تستطيعين فعله رسم ابتسامة على وجهك وقول « طبعاً ، نعم ، سيدتي ، أنا سعيدة جداً ، سيدتي » . م ؟

هل لاحظت كيف تفقد تلك النسوة ابتساماتهن الجميلة فجأة عندما يحين وقت الدفع لنا ؟ تستطيعين رؤية عقلها يعمل وقتا إضافيا : لماذا اعطي نقودي لهذه المرأة البانتوية ؟ لقد نسيت تعرقك ، ركبتيك ، معصميك المتيبسين دائما وأبدا من غسل غسيلها بيديك؛يديك المتقرحتين المعتادتين على الكي لايعنيان لها شيئا ؛ إنها تحزن على الراندات المجبره ان تدفعها لك ، لذلك ترين : بعضهن يفتشن عن اي سبب لخصم بعض الراندات من النقود التي يجب أن يدفعها لنا ، في نهاية الشهر ، تسمعين كل أنواع التبريرات من النساء البيض : « ضاع هذا وذاك . رأيتك تكسرين هذا الصحن . ماذا فعلت بربطة عنق سيدك الزرقاء ؟ » عندئذ ، يجب أن تعرفي ، أنها تريد أن تخصم من أجرك . ليسوا بشراً أولئك الذين نعمل عندهم .

أنا ؟ لا اكذب عليك ياطفلتي ؛ لو كنت في مثل عمرك لذهبت إلى مدرسة ليلية . سأتعلم وأصبح شيئا ما . العمل في المطابخ للعبيد فقط . إننا نعيش لنعمل ، ذلك كل شيء ، لاشيء آخر . ليست حياة . ليست حياة أبداً .

تاملات أتيني

وهكذا ذهبت الى إيست لندن ، رغم عدم امتلاكي ترخيصاً للعمل هناك ، عرفت انه يوجد العديد من النساء في نفس الحالة ؛ في المدن ، يعملن ويخاطرن بالتعرض للاعتقال لعدم امتلاكهن ترخيصاً . حسن ، لو بقين في القرية لخاطرن بالموت ـ يموت الناس جوعاً ، تعرفين ذلك . لم يكن أمامي خياراً إلا أن أحذو حذوهن . إيست لندن هي أقرب مدينة الى جونجولولو ، قرية عائلة زوجي .

لم يعرف أحد انني كنت مغادرة . حتى انا لم اعرف . لأنه رغم انني فكرت وفكرت في الأمر ، في الذهاب الى العمل ، فلم أعرف متى أو كيف أو أين أبداً . حتى الليلة التي رفضت فيها بتأكيد مطلق ، كان ذلك كل ما أستطيع أن افعله الشيء الوحيد الذي أستطيعه لأكون أماً . لو لم أفعل ذلك ، ما كان احد من أبنائي على قيد الحياة اليوم . ولا أنا ربما . ولكان من شأننا جميعاً أن نموت من الجوع .

لا اعرف القراءة . لا أستطيع الكتابة . ولا أملك ترخيصاً . تلك عقبات كبيرة جداً في طريق أي كان . بمعزل عن ذلك . لكن الآن، فالحمل الذي احمله على كتفي مختلف . آكل يومياً . أرسل نقوداً لأولادي في القرية شهرياً . ما زال الثلاثة الكبار هناك ، الاثنان الصغيران فقط معي هنا . يعيشان مع امرأة ترعى الأطفال والأولاد لصغار في بيتها في مدانتسان . اذهب لزيارتهما في كل عطلة ـ طبعاً ، أدفع للمرأة أجرها . لا أقول إنني أدفع لها ما يكفي ، لكن من أين سأحصل على المال لأدفع لكل واحدة ما يكفي ؟ أنا نفسي لا أملك ما يكفي . المايكفي ليس لناس

مثلنا . بالنسبة لنا هي كلمة لها معنى وحيد . المتاعب . هي فقط التي لدينا منها ما يكفي . لا أجور . لا طعام . لا نقود . لا ثيـاب . لا كتب للأولاد . لا بيت . لا زواج . لا أطباء . كلا . فقط ما يكفينا من المتاعب. كيفما نظرت إليها . كيف أستطيع أن ادفع للجميع ما يكفي من النقـود التي أنالها في نهاية كل شهر ؟ لكنني آخذ القليل وأدفع لها وأرسل القليل أولادي المساكين في القرية . لا أرسل لهم الكثير ، ومن ثم ، فإننا لم نعتد على الكثير في حياتنا . إنني ممتنة اننا أحياء . مضى عامان وثمانية أشهر على تلك الليلة البعيدة ــ جداً عندما غادرت بيتي وأولادي نائمين . ذلك يعني انني اعمل عند أم الساقين ــ المحروقتين منذ عامين وستة اشهر . طوال ذلك الوقت ، عدت الى القرية مرّة واحدة . ذلك عندما احضرت سيزوي والطفلة ، ثانديوي ، الى إيست لندن . لم أر أولادي لاثنـي عشر شهراً قبل قيامي بتلك الرحلة .

نوما خويذي هي ربة ذلك المنزل . تطبخ لأخيها انديل ، واختها ، نومسو . وتعلمهم العمل أيضاً . سعدت حقيقة عندما رايت كيف يعتنون بأنفسهم ، رغم أن مانالا ، حماتي ، تهتم بهم . اخبرني الأولاد ، أنهـا لم تنقطع يومـاً عن زيارتهم منذ رحيلي . هكـذا ، ربما ذلك هـو الشيء الصحيح الذي تفعله ، أقصد بالنسبة لها . متى أمكن لها أن تعرف أنهم أحفادها ؟ كانت حريصة الا تقترب مني بأية حال . لكن الآن، لا أستطيع أن اتذمّر . إنها طيبة مع الأولاد وأصبحنا أقرب مما كنت أعتقد .

والدهم عاد أيضاً . أول مرة يعود فيجدني قـد رحلت . رسـم الحزن على وجهه ومضى الى قرية أهلي . هناك ضحك أهلي منه وكأن سرواله التحتي قد سـقط بين كاحليه على مرأى مـن القرية كلهـا . « غادرتنا ، منذ عدة سنوات ، مع ابنتنا » ، قالوا له : « اليوم بعد أن منحتك عدداً من الأولاد ، عندما اختلفتما ، تأتي إلينا ؟ لـو كانت ابنتنا زوجة سيئة ، لعدت إلينا بعد أسابيع من زواجك بهـا . انت السبب ، لا بد انك زوج سيء » .

ذلك ما قاله اهلي لزوجي . قالوا إنه غادرهم ككلب عاد من الصيد بعضة ثعلب . لسوء الحظ ، عندما عدت كان قد غادر قبل عدة أيام . ربما كان ذلك افضل أيضاً . ماذا كان سيقول لي ؟ وماذا سأقول له ؟ بقي هنا شهراً كاملاً ورحل قبل وصولي بأقل من أسبوع . أتمنى لو استطعت أن أقول شيئاً أو شيئين... لكن بما اننا اميون ، ولا نستطيع القراءة ، فكيف أستطيع ذلك ؟ لكن لا بأس ، أنا واثقة أنه يجب أن يعرف لماذا فعلت ما فعلته . إلا إذا كان احمق اكثر مما أتصور .

وهنا في المدينة ، هذه هي قصة كل النساء إلا إن كانت عيناي لا تنجحان برؤية النموذج الآخر ؟ هل جميعهن مترعات بالأسى ؟ أم أن ملاحظة الحزن والكآبة التي أسمعها هي مجرد صدى ما يختلج في صدري ؟

المرأة الشابة ، عندما قابلتها ، كانت واثقة جداً أن إقامتها هنا لن تطول . الزمن ، بالنسبة لنا ، يزحف ببطء كحرباء عائدة من وليمة . تقول إنها قدمت طلباً للتدرب في المستشفيات لتصبح ممرضة : إجراءً مؤقتاً ، تقول ، انعطافة في الطريق لتصبح طبيبة . أنا نفسي ، أتمنى لها التوفيق ، أصلي لله أن تنجح . لكنني أعرف الكثير من الخادمات اللواتي سخرن منها في غيابها . لا يصدقن انها ستنجو من هذا المكان . يقلن أن بوسعها أن تنسى أمر التعلّم . ويمكن أن يكنّ محقات . فبعد أن ماتت والدتها ، مَن سيدفع تكاليف ذلك الآن ؟

إنها تكبر نوما خويذي بأربع سنوات فقط وربما لذلك اريد أن أؤمن في احلامها . لدي أيضاً احلامي من اجل ابنائي رغم أنني لم اقلها للآخرين . أحلام تشبه العشاق السريّين مراوغة وتميل للهرب إن أنت أفشيتها . لكني أقفل على احلامي في الركن الأعمق من قلبي ولا أخرجها إلا في ليالي الوحدة . وبعد ئذ ، مثل مرآة سحرية ، تبهرني بأمل خلاّب للغد .

آمال المرأة العجوز بالتقاعد ما زالت حيّة . وكان الحظ سينالها، فالمرأة الشابة التي كانت تعمل عندها ، والتي ربّتها عندما كانت تعمل عند السيدة التي ذهبت لتعيش في انكلترا ، تلك المرأة الشابة ، المسكينة ماتت : حادث سيارة . صدم سيارتها سائق سكران . ورغم ان السائق الآخر كان مخطئاً ، فقد اختار الله أخذ المرأة . لا عدل في هذه الحياة ، على ما أعتقد .

حسن ، الشيء الآخر غير العادل انها لم تَقل في وصيتها شيئاً عن الخادمة . الآن هذه الروح المسكينة ، المرأة العجوز ، تنتظر أن ينتهي حداد سيدها ومن ثم ستثير هذه المشكلة . تطلب منه أن يكتب لحماته ، سيدتها السابقة ، بشأن تقاعدها . بينما ، تقول إنها عجوز ما يكفي لتحصل على نكام ــ نكام أي تقاعد من الحكومة ؛ لكنها خائفة من المطالبة به : فكل من حصل عليه قال لها إنه ليس اكثر من طعام صوص . والجميع يعرف ايضاً . أن كل من يحصل على نكام ــ نكام يموت حالما يحصل عليه . يبدو انه نحس . هكذا تريد الاستمرار في العمل رغم انها لا تعرف إن كان سيدها راغباً بالاحتفاظ بها أم لا . شيء مخيف إن لم يكن راغباً بالاحتفاظ بها . أتعتقدين أن أية امرأة بيضاء ستعطيها عملاً ، بركبتيها التعبتين ؟ لم يقل لها شيئاً عن خططه بعد أن أصبح أرمل . وهكذا هي تنتظر ؛ وتأمل . تحمل الأمل كما يحمل البحارة سترات النجاة . تعرفين بدونه أعتقد أحياناً أننا سنكون في العصفورية (*) جميعنا ؟ حيث يحتجزون من فقدوا عقولهم .

عديد من الخادمات اللواتي وجدتهن هنا في البدء ، غادرن وذهبن للعمل في أماكن أخرى . واحدة ذهبت مع الأسرة البيضاء التي كانت تعمل عندها ، واثنان منهن غادرتا سيداتهما ، وإحداهن تلك المرأة من مكتب الإرشاد التي كانت تحدثنا دائماً عن حقوقنا ، ذهبتا الى ما وراء

(*) العصفورية : التسمية العامة لمشفى الأمراض العقلية .

البحار مع أسرتيهما . أولئك أخذوا معهم حتى القطط والكلاب لكن ولا واحدة منهن تحدثت عن اصطحاب الخادمة معهم . ما يثبت لا أهمية المدة التي تقضيها الخادمة مع هؤلاء الناس ولا كم مرّة يقولون لها يومياً: « اوه شيلا ، نحن نحبك ولا نعرف ما كنا سنفعل بدونك » ـ عندما يقررون مصيرهم ، يفكرون بسياراتهم ، كلابهم ، قططهم ، بيوتهم ، أصدقاءهم وأي شيء آخر ـ لهم عدا الخادمة . ومسكينة هي الخادمة التي يفكرون بها : ستجد نفسها مع كل أثاثهم المحطم ، أي شيء لا يستطيعون أخذه معهم . لأن الأولاد كبروا وهم يتسلقونه ، والقطط قد خربشت كل طلائه . يجب أن ترسم ابتسامة زائفة على شفتيها وهي تشكرهم على الأسمال التي سترميها في القمامة .

لكنني لا اقول أن السيدات موفقات دوما . فهن يواجهن ايضا مشاكل ؛ اقصد مع الخادمات . خذي مثلا السيدة ريد .

منذ اليوم الأول عند السيدة ريد تفاجأت بعجزها . فالخادمة بالنسبة لهذه المرأة ، ليست مجرد شخص آخر موجود لخدمتها ، كلا . سرعان ما تعرف خادمة السيدة ريد أنها امتداد لها : ذراعاها ، ساقاها وعيناها . العضو الوحيد الفعال في جسد هذه المرأة هو فمها.وتستخدمه على مدار اليوم لتقول لك : « أفعلي هذا . فعلي ذاك » .

لقد تركت طفلتي وجئت للعمل في هذه المدينة . لماذا اجد ؟ انني اعمل هنا ، طفلة أخرى ، طفلة كبيرة تدعى السيدة ريد . هذه المرأة حقيقة عديمة النفع . يدهشني انها قادرة على غسل جسدها في حوض الاستحمام ؛ تستحم وتتنشف وترتدي ثيابها بنفسها .

السيدات الاخريات يتمشين قليلا . هي لا : « اذهبي الى بائع الزهور واجلبي لي باقة جلاديولا او ماريجولدز إذا لم تجدي جلاديولا » شيء آخر لدى النساء البيض : يكرهن رؤية أي شيء حر . زهو المروج ـ خلقت للهواء الطلق . أشعة الشمس والحرية ـ يقطفونها ويسجنونها داخل منازلهم . مثلنا ، الزهور لا تملك خياراً في ذلك .

يستطعن طلب اللحمة من الجزار بالتلفون : لكن لماذا لا يرسلن الخادمة ؟ إنها ارخص . الآن اعرف كل انواع قطع اللحم التي يمكن أن تطلبينها . الكستلاته ، الشرحات ، الشقف ، والله يعلم ماذا أيضا كله لأنها تريد توفير النقود ولا تتصل لتطلب لحمتها مثل الأخريات . أجلب لها لحمتها . آخذ حذاءها الى الحذاء وثيابها الى المصبغة . عندما يحين عيد ميلاد ابنها اذهب لأشتري لها بطاقة : « أجلبي بطاقة جميلة ، » تقول وهي جالسة مقابل التلفاز ، بينما يجب أن اجرجر ساقي المتعبتين اللتين كانتا تنظفان طول النهار في بيتها الى بائع بطاقات المعايدة وهي تعرف انني لا استطيع القراءة . اطلبي من السيدة التي تعمل هناك ان تساعدك . هكذا تساعدني . كسولة جدا هذه المراة حتى في كتابة ملاحظة تشرح فيها ماذا تريد . أنا ، بانكليزتي المكسرة ، يجب أن أذهب واجلب لها بطاقة عيد ميلاد جميلة لابنها .

لكن النساء البيض لا يتمتعن بوقتهن على طول الخط بامتلاكهن خادمات . ليس بالأمر السهل أن يكون في بيتك شخص غريب كليا ، فليست الخادمات كلهن جيدات . رأيت بعضهن ، لسن قلة ، انا شخصياً لا آخذهن الى بيتي . لكن لأن المراة البيضاء تقول لنفسها وتعتقد انها تحتاج خادمة فسوف تقبل اي شيء يأتيها الى بابها عندما تكون معوزة .

وانا واثقة أن في القصص التي اسمعها شيئاً من الحقيقة : الخادمات يسرقن او يساعدن اللصوص على دخول المنازل التي يعملن فيها ؛ تلبس الخادمات ثياب سيداتهن المفضلة خلسة ؛ تسعى الخادمات الى اسيادهن (طبعا ، بتشجيع من هؤلاء السادة) . طبعا ، لا يعني ذلك ان كل الخادمات يفعلن هكذا اشياء . لكنني استطيع رؤية مشكلة النساء البيض في فتح بيوتهن للمرأة السوداء والوثوق فيها كل الثقة ــ يستأمنها على اطفالهن ، على كل شيء في البيت ، وعلى حياتهن ... في المرض أو الحوادث ، على سبيل المثال . لا غرابة أن ترى القلق العميق في وجوه السيدات .

تجربة سيئة مع خادمة وستصدق كل ما ستسمعه عن الخادمات فيما بعد ، وستشعر خادمتها بسياط نظراتها تلاحقها في كل ما تفعل : كم قميص كان في الغسيل ؟ تسأل السيدة ، تعد القمصان المكوية . ذلك هو الأسوأ بالنسبة للخادمة ـ أن تكون تحت ضغط هذا الشك الدائم في حين هي نفسها لم تفعل شيئاً ـ يستحق ذلك . ويذكرها ذلك باستمرار ، انها في عيني سيدتها ، ليست إلا واحدة من مجموعة ، وليست بمجموعة جيدة .

لماذا لا تستطيع السيدات التعامل مع الخادمات كل على حدة ؟ لماذا لا تستطيع معاملة الخادمة جيداً حتى يظهر منها ما يستحق العكس اليس من الأفضل أن تمنح الخادمة الجديدة الثقة ؟ ألا يمكن أن تستجيب عندئذ بإظهار جدارتها بتلك الثقة ؟ لماذا لا تسرق المرأة عندما تعرف انه يتوقع منها بكل الأشكال أن تسرق .

نعم ، تربط النساء البيض انفسهن بالنساء السود لاعتقادهن بعدم قدرتهن على الاستغناء عنهن ، أو بتقديرهن لأيديهن الناعمة ، الثرثرة في التلفون ، الذهاب الى صالون التجميل ، وكل الأشياء التي يقدمها لهن وقت الفراغ ، لذلك انتهين الى حاجتهن الماسة للنساء السود . حاجتهن لنا في بيوتهن تتغلب على كرههن لنا وشكهن فينا . إنهن عبدات وقت الفراغ والرفاهية اللتين توفرهما لهن الخادمات . نعم إنهن عبدات مثلنا تماما ! إننا بحاجة أحدنا الآخر ... نحتاج بعضنا البعض لنبقى أحياء .

يوم سرقت نفسي من اولادي كنت حزينة جدا لدرجة انني لو لم استطع ان ارسل لهم نقوداً لقتلت نفسي ، إنهم السبب الوحيد لبقائي هنا ، السبب الوحيد لاستمراري في هذا العمل الذي يقتلني . على الاقل يمد أولادي بالحياة . من اجل أولادي سأستمر في قتل نفسي يوميا ، ببطء ، لكن بالتأكيد ، في أعمال المطبخ . كيف استطيع ان اغادرهم ؟

لذلك . جميعنا . نحن الخادمات ، نقول نفس الشيء : نعمل مقابل لا شيء لكنه أفضل من اللاعمل والموت في يوم او اسبوع . نعمل ونرسل اولادنا الى المدرسة ونامل الا نموت قبل أن نراهم كباراً .

بينما نضحك كثيراً من عملنا في مطابخ النساء البيض . نضحك لأننا إن لم نضحك فماذا سنفعل ؟ نبكي ؟ وأية خادمة ستكفكف دموع الأخرى؟

لن يطول الزمن حتى اسأل : ما هي جهنم ؟ اعرفها لانني أعيش فيها اعرفها الآن كل أؤلئك النسوة يقلن انهن فيها . نعم ، الكلمات مختلفة -- بعضها غاضب وبعضها حزين ومؤس . حتى إنني سمعت كلمات مديح . لكن ، في العمق ، كل الكلمات تقول نفس القصة أننا عبدات في مطابخ النساء البيض .

هكذا أرى الأمر . هربت من جحيم الجوع ذاك الى جحيم الثياب الممزقة ، الأولاد والمرض . وجئت للعمل هنا ، كي اطعم اولادي ، اكسيهم ارسلهم الى المدرسة ، وامتلك نقوداً لآخذهم الى الطبيب عندما يمرضون الآن ، اجد نفسي في الجحيم . وانا عبدة .

لا ارى هؤلاء الأولاد الذين اعمل لأجلهم . سرعان ما سأصبح غريبة عنهم . النقود التي اكسبها لن تؤمن نصف تلك الأشياء التي جئت من اجلها الى هنا .

لكنني لست وحيدة . كل الأخريات يعانين مثلي . لذلك نضحك من متاعبنا . ذلك هو السبب . وإنها كثيرة ومتشابهة ــ إنها تشبه كابوساً لا يسمح لنا بالراحة . يرافقنا ليل نهار . لذلك نضحك منه .

لكن عندما تكون المراة وحيدة ــ وحيدة ليلا ولا تستطيع النوم تفكر في كل هذه المتاعب ــ عندئذ ، تبكي . تبكي لأنها ترى أنها يمكن الا تنجو من هذا الجحيم أبداً .

لقد سمعت خبراً جيداً .

اليست غريبة طرق الحاكم ؟ اليست عجيبة ؟ اخبرتني جويسي انها نالت منحة دراسية ، ستذهب الى مدرسة ما وراء البحار وإن نجحت فسوف يساعدونها لتدرس وتتخرج طبيبة . أوه ، إني سعيدة جداً لأجلها . ترينك . . . أنه يجب أن تكون ذا عزيمة . هناك سبُل" . إن عرفت ماذا تريد ولم تستسلم . . .



الجزء الثاني

••• وقصص اخــرى •• ص غ



هروب

صراخ « خواوليلي ! » « وينك أومنتو ! » شق سكون القريـة المستلقية في أسفل الوادي كصفحة ، محاطة بتلال خضر وجبال تكسوها شجيرات متفرقة .

رجع الصدى من القمم المحيطـة ، اخترق الهواء ، ارتدّ وسقط مدوّياً ، مشوشا ، مجتاحاً آذاننا متغلباً على كل الأصوات الأخرى .

ويه ويه ويه خاوو خاوو خاوو

ليه ليه ليه توو توو توو !

كمغنطيس قوي ، جذبنا الهياج بعيدا عن دمى الأسمال التي كنا مشغولين بها قبل لحظة .

إيي — ىىووو — ووو و !

مب ااا ا — مبي ي ـه — ني !

قه ااا — ووو — اي — لا ني !

رجل عجوز : قصير ، يغطي راسه شعر صوفي أجعد ، اخذ شكل قبّعة رمادية بيضاء تستر جمجمته ، يهرول ، الشيء الذي اعتبرته محاولة جدّية للركض . يده اليسرى تمسك بالبطانية الملفوفة برخاوه حول جسده ؛ ذراعه اليمنى ، عنـد الكتف ، تخالها تنتؤ من ثوب فضفاض . طويلة ، نحيلة ، ناتئـة العظم ، تتأرجح الى الأمـام ، الى

الوراء في تناغم مع محاولته تسريع خطوته . يحمل في يده نبوتاً ينتؤ أمام جسده . وكل مرة صرخ فيها ـ « مبامبيني ! ـ امسكوها ! » كان يمد ذراعه حاملا النبوت عاليا ، مشيرا به باتجاه الجبل .

تقفزت عيناي حيث أشار . كان الجبل يلعب الاستغماية مع الشمس . أم كان يلعبها مع الغيم .

على أية حال ، كان نصف الجبل قد اختفى . ووجهت نظري حيث الجزء المرئي ـ اشكال بعيدة ـ تقلصت على البعد ، ركضت تتدافع في هرج ومرج .

امامهم، انطلق شكل وحيد كأرنب بري يطارده قطيع كلاب مسعورة. لم تكن الغيوم لاعباً متبطلا ، كما رأيت . لقد كانت الفريق الثالث في هذه اللعبة ؛ وهي التي ستجعل الأمر مختلفاً .

بوضوح ، شهدت ، في ذلك اليوم ، ولادة الدموع . بكت الغيوم ونثرت دموعا سديمية رقيقة فوق الجبل الصامت . هل سيدخل ذلك الشخص الهارب البطانة السديمية في الوقت المناسب ؟ ابتسمت الشمس واختفى السديم في حزمة خيوط صفراء طويلة واسعة الانتشار ، إنها بنات الشمس .

إنها هناك ، رأيتها بوضوح . وقد استطاع مطاردوها رؤيتها بالتأكيد ؟ ـ رأوها كما رأيتها ؟

انقبضت أحشائي . تدحرجت في معدتي كتلة خوف حارة . لكن الغيوم ، كي لا تنهزم ، بكت . نثرت غلالات رمادية غامقة سميكة . جاءت سريعة وقاصمة . سميكة ، سمينة ؛ آمنة لها ، كي تتلفع بها وتزوغ من مطارديها .

اوي في ؟ اوي في ؟ اوي في ؟

وصلتني أصوات أسى أولئك الـذين كانوا يطاردونها . حبست انفاسي تعاطفاً معها . متمنياً لها أن تضللهم ، أحثها كي تسرع وتسرع .

لمحتي الأخيرة منها : فستان مزوّق برسوم زاهية أحال البعد وقلة الضوء لونه الى الأزرق السماوي ... ها هي ، تقفز هنا وهناك بين الصخور ، فستان ـ الزوجة الحديثة الطويل جعلها تبدو بلا قدمين . بدت لي في اسراعها للهرب كمن تركب الهواء ولا جزء من جسدها يلامس الأرض .

طوّفت بعيدا ؛ والرجال يغذّون السير خلفها .

رايتها ترمح في جدار السديم . رأيته يلتئم سادّاً الشق الذي رمحت منه . مثل سمكة تنزلق في الماء ، دون أن تلخبطه . ويعود يلملم نفسه ، ويرحب بها في حضنه . بعيداً عن أولئك الذين أسرعوا خلفها .

لا استطيع تذكّر وجهها البتّة . كان ذلك منذ وقت طويل وربما لم تقم معنا طويلا . لا اعرف . لكنني أتذكّر رحيلها . وذلك لأنها علمتني التصميم ، قوة الإرادة .

كانت امراة شابة ، زوجة حديثة . زوجها ، عمي ، كان يعمل في المناجم هناك حيث ذهب كل رجال القرية منذ وقت طويل . فيما بعد ، بتعليم صبور ، كبير ، منها لتساعدني على تنظيم عالمي ، سأتوصل الى معرفة زمن بقائهم هناك بدقة ـ احد عشر شهرا كل عام . أيا تكن هذه المعرفة ، كانت منذ سنوات مضت ، فقد خلصتني من ذلك الخوف الذي كان يملأ اليوم منذ زمن مضى .

لا بد أن الوقت كان ظهراً لأن الشمس كانت في قبة السماء ونحن الأطفال كنا نلعب ، أي ، الصغار منا الذين لم يبلغوا سن الذهاب الى بيت طيني ـ الجدران قشي السقف ، الذي كان يسمى مدرسة .

اعرف انه لا بد انني حزنت على فقدان عمتة . اعرف انها كانت زوجة جيدة ، تطبخ وتنظف جيداً ، ونحن الأولاد انقذنا حضورها من العديد من الأعمال اليومية ــ الزوجات الجديدات يعملن كالحمير عندما يدخلن موقعهن الجديد . أعرف انه لا بد انني تضامنت مع عمي الذي فقد لا زوجة فحسب بل قطيعاً أيضاً ، اي المهر الذي دفعه لها .

كل ما أعرفه ، هو الإثارة التي شعرت بها وأنا أراها تنجو في غيمة السديم الرمادية الكثيفة .

اليوم الأكثر إثارة في الأسبوع

الاثنين مدرسة . الثلاثاء مدرسة . الأربعاء مدرسة أيضا . الخميس مدرسة . الجمعة مدرسة ايضا . لكن الجمعة كان مختلفاً .

كان يوم الجمعة يوما تحدث فيه أشياء . عندما كنت صغيراً ، كل شيء ايضا حدث يوم الجمعة . كان هناك استثناءات طبعاً : منطقياً . الجنازات تقام أيام السبت ، الأعراس أيام الآحاد . يرقص العرافون في كليهما . لكن الجمعة كان صاخبا . كان يوم عمل ، مليء بالصخب ، التعرّق ، يوما فوّاحاً يطول ويطول ، مليء بالمرح ، وكريم . كان يبدأ قبل رنين منبه صباحات المدرسة ويطول ويطول ، متجاوزا وقت النوم الاعتيادي . لم يكن في أيٍّ من أيام الجُمَع فتور الأيام الأخرى ، وتلك هي جوهرة الجمعة .

خيوط حرّيفة طويلة تقتحم منخري ؛ انسلت الى قحف الراس وفتحت العينين . استيقظت ، استنشق ببطء وأنا متمدد في الفراش ؛ أملأ صدري بالرائحة الحريفة ، الرطبة لتخمّر حبوب الذرة الكافيرية .

تسترد العينان تركيزهما ، تدريجيا . برميلان تندّي الدموع سطحهما الخارجي . تجري على الخدين الصدئين بتعرجات متوددة ، بعضها عاتم ، بلون الخدين الصدئين على الأغلب . تحكي حكايات السر داخلهما . البيرة التي قرقرت وبقبقت طول الليل ، مترعة بمرحها ، فارت فوق الحواف ونزلت تكرج فوق الخدود زبداً يتشقلب ، متقشرا هنا ، سائلا هناك ــ حتى النهاية ويجف أيضا : مشكلا أعمدة رغوة متعرجة مختلفة الاطوال والثخانة .

همسات صغير مهسهس ، رقيق ، رقيق جدا ، يدخل اذني وأنا مستلق : دونما أدنى حركة . هسهس .. البيرة تتعجل انهاء رحلتها ، تفعل المتوقع منها فعله . تخيلتها تتوسل ـ ارجوك دعني أصير .أرجوك دعني أصير . بلغتها هي طبعا . وينضم اليها قلبي لان ذلك بالضبط ما أريد أن أقوله لامي غير المرئية الآن . رغم أن حضورها لا يفارقني . حتى الان . نفس الفكرة عنها تقطع خيط تواصلي مع البيرة ، لانه ما لم يركز المرء ويصمت كليا ، لا يسمع كلام البيرة . تجهد الاذنان لكن الكلام ينقطع . الصمت مكافأتي الوحيدة . بعدئذ أسمع الباب ينفتح .

تدخل أمي حاملة تنكتين سعة اربعة جالونات ، تلمعان كعملة فضية . خبطتهما على الارض بجانب البرميلين . غطت فم احداهما المفتوح بمصفاة معدنية على شكل حوض . مصفاة مدورة بفم مربع الزوايا مع ذلك فهي مناسبة ، نوعا ما .

شمرت عن ساعديها ، تناولت المغرفة المعدنية سعة الباينتين* المرمية بجانب البرميلين على ورقة صحيفة قديمة . وضعتها فوق المصفاة وتناولت عصا مسطحة طويلة . رقيقة ، مركونة بين البرميلين على الجدار . رفعت غطاء احد البرميلين ، وضعت فيه العصا وبدأت تحرك . ذراعا والدتي الريانتان والعصا شكلت مرجلا ثلاثيا .

احتجت البيرة بصوت عال . تلاشى الهمس الخجول . وندت عن البرميل هشهشة خشنة ، اجشة وأمي تتابع التحريك . البيرة كثيفة : دقيق ـ ذرة ، براعم ذرة ـ كافيرية ، وخميرة ، هي بعض المقومات الأساسية ، وتدور العصا وتدور مع جسد أمي المحوري ، ترسم ذراعاها دوائر في الهواء فوق البرميل الذي يوشوش .

---

* الباينيت : وحدة وزن تساوي ثمن $\frac{1}{8}$ جالون .

اخرجت العصا ، نظفتها بسحبها فوق حافة البرميل من الجهتين . ركنتها الان على الحائط ، مرة اخرى الجزء الرطب منها لى الاعلى .

انحنت فوق المصفاة التي تغطي التنكة ورفعت من فوقها المغرفة وغطستها في البرميل الذي كانت تحركه . أخرجتها ، ثقيلة تنقط البيرة من بطنها وحوافها المبللة . افرغتها في المصفاة .

وفوراً ، رأت ــ ا ــ تان فرقعت قطرات البيرة على قعر التنكة عبر ثقوب المصفاة ، الصغيرة المدوّرة ، غرفت أمي ثانية مزيدا من البيرة عبر المصفاة ثلاث او أربع مرات ، فامتلأت المصفاة .

بكسل نزّت البيرة عبر المصفاة . ويد والدتي تحرك البيرة الكثيفة في المصفاة ، من جهة الى اخرى ، منظفة ثقوب المصفاة . يتغير الصوت يصبح خشناً وممتلئاً ، سريعا مثل وابل مطر صيفي يسوط برك رمل موحلــة .

وباليد اليسرى تمسك امي بالمصفاة التي التصقت بفم التنكة . مهما يكن فان اليمنى هي التي لفتت انتباهي . مثل ذيل كلب صغير يرحب بحرارة بعودة الاسرة بعد رحلة طويلة ، تهز مهتاجة في عمــق المصفاة ، لكنني لا أرى اليد ، غلفتها البيرة كليا . هكذا بدت كأنها بترت مــن الرسغ . مهما يكن ، لم أرتعب لانني اعرف ان هذا البتر هــو مجرد خداع بصري . عند الحاجة ، تخرج اليد مــن تحت السائل الرغوي الكثيــف .

تملأ المصفاة العطشى من البرميل ، مرة بعد اخرى ، وتساعد على تسرب البيرة عبر المصفاة الى التنكة . وعندما تتراكم القشور في المصفاة ترميها في وعاء بقربها وضع لهذا السبب تحديدا . تغمس يدها اعمــق فأعمق في البرميل بينما التنكة الصامتة تقريبا تصــدر الان أصواتــا مترهلة لمعدة متخمة . لقد امتلأت .

حان دور التنكة الاخرى . لكن بدلا من ذلك ، تتذكر أمي اعمالا اخرى . قلّة هم الزبائن الذين يأتون لتناول المشروب مبكرين ولذلك تنكة واحدة يجب أن تكفي الآن .

وبينما انا مشغول احدّق بحب ، بعينين كبيرتين ، تقول أمي ، دون ان تنظر الي مباشرة ، الوقت لا ينتظرك . الصوت سوط ، يذكرني بما سيفعله المدرّس بي ان تأخرت عن المدرسة . لاضرورة لامر ثان .

غادرت الفراش . قهوتي تبرد في كوب تنك والى جانبها سندويشة ئيتكوك في صحفة صغيرة . رغم جوعي تجنبتهما والى الخارج . خارجا بجانب الباب ، ينتظرني حوض ، تحرسه قطعة صابون مستطيلة الشكل مثلّمة الحواف . قطعت من قطعة اكبر ، تبدو شبيهة بابتسامة مواربة من طفل أدرد .

انحنيت فوق الحوض وبسرعة غسلت ، يديّ ، ذراعيّ ، وجهي ، وساقيّ . ومن ثم انطلقت عائداً الى الداخل . القهوة فاترة الآن . لا اشربها الا بتلك الحالة . لم أكن ، قط ، جاهزا في نفس الوقت الذي تضع لي والدتي القهوة على الطاولة . على الاقل يوم الجمعة .

لبست ثوبي المدرسي وفمي يمضغ الطعام . لقد تمكنت من القيام بعدّة أشياء في آن واحد . لم يقل أحد انه يجب انجاز كل شيء بالتمام والكمال . انا واثق فقط انني لن أخرج الى المدرسة عارياً .

في زاوية الغرفة توجد زجاجات البيرة وزجاجات بدينة وضعت في حشد مهيب : غابة أشكال بنية داكنة ، سوداء على الاغلب ، بدينة المتن طويلة العنق ، فارغة تنتظر البريد ، الرجل الذي يشتري من والدتي بيرة غير مرخّصة . حتى وأنا أمضغ الطعام ، اخرج من البيت ، تلك السيدة بعينين واسعتين ، ترتب كومة نقود في أعمدة : عمود من أربعين قطعة فئة العشرين بنساً وعشر قطع فئة خمس بنسات . ثمن

عشر زجاجات أولددراي بك جين ، علبة ليون لاجر بعشرين قطعة من فئة عشر سنتات وخمس عشرة قطعة فئة خمس سنتات وخمس قطع فئة عشرين بنساً . أخرج على رنين القطع القليلة .

طريقي الى المدرسة ، حتى يوم الجمعة ، غريب بـلا ذكريات . المدرسة مدرسة : كئيبة ومقيتة ، سيحرمني الأستاذ مـن متعة يوم الجمعة . مهما يكن ، لم يستطيعوا اختراق ذلك المكان الداخلي . مكان المعرفة والفهم . المكان حيث يستقر المرح وكل الأفكار والسعادة . في ذلك المكان ، كانت تنطبع راسخة معرفة ما يَعِدُ به بعد الظهر . بعد المدرسة ، ستبدأ الحياة . تبدأ جدّياً . ذلك ما كنت أعرفه ولم يستطع اي مدرس أن يسلبني تلك المعرفة المباركة ــ هناك خارجـا ينتظرني المرح ــ جرس المدرسة الأخير فقط يحول بيني وبين حبل المسـرات الطويـل .

كـان الانصراف أيـام الجُمَع كرباً خاصـاً طويـلا ومضجرا . تتضمن الصلوات دائماً طلباً الى الله القدير « إرع هذه الخراف البريئة الصغيرة خلال عطلة نهاية الأسبوع » . وكانت بعض الخراف الصغيرة تحتاج حقيقة كل الحماية التي يمكنها الحصول عليها ، كان يوم الجمعة يوم مشاجرات ثابت ــ مشاجرات الاسبوع كله ، الاستياءات والتوافه ، النميمة والافتراء ، الارتياب بالسرقة وأي شيء آخر ، كلها كانت تحال الى أيام الجُمَع ــ بعد المدرسة . هكذا كان العرف . تلك كانت الطريقة منذ أن التحقت بالمدرسة . وتلك كانت الطريقة عندما غادرتها . أعتقد انها ما زالت كذلك حتى اليوم .

نهار الجمعة ، عندما يتزاحم الحشد ، ويتدافع بالمناكب ، عبر بوابة المدرسة الضيّقة ، الى دغلات ، بعيدة قليلا عـن المدرسـة كي لا تلفت انتباه المدرسين .

لكل مـن المتّهَم والمتَهِم أنصاره . هؤلاء الأصدقاء ، يضمنون وقوع العراك . بحلول نهار الجمعة يكون فات أوان السماح بإلغائها ، يشمّ الحشد رائحة الدم مسبقاً ، ولن يهدّئه شيء سواها .

بوجوه استحالت اقنعة كره عنيف نوعاً ما ، تتواجه المتخاصمتان ، تنوراتهما شمرتا عالياً وحشرت عند الوركين تحت الحافتين المطاطيتين لسروالهما التحتي . مستجيبتان لتشجيع أنصارهما العاصف تنقضان على بعضهما كالكلاب .

المصارعة المترنمة اللاهثة توجـه ركلات فارغة ترهقها أكثر مما تؤذي منازلتها . الأوفر حظاً بينهما توقع الأخرى تحتها . لكن بدلاً من ان تفقأ عينيها ، يحين أوان تبث سم غلّها كله : « ألم أقل لك سأنال منـك ؟ أتستطيعين ترديد مـا قلته لفلانة وفلانة عني ؟ مَنْ تلك التي سمّيتها ... ؟ » .

الغريب الذي يلفت انتباهي : الأفخـاذ العاريـة ، والسراويل التحتية التي غالبا ما تحمل ثقوباً بحجم حبة البطاطا ؛ الدمـوع التي تنسكب رغم مغالبتها بشجاعة ؛ وهياج الحشد المحموم ، هو نفسـه الذي يجنبهما المهانة .

تنتهي المنازلات عادة عندما تستلم إحدى المتنازلتين أو عندما يتفق ان يظهر شخص راشد . في الحالة الثانية ، نهرب جميعا طلبا للنجاة ، خائفين من إقحامنا في هكذا فعل شائن ستنقل أخباره الى المدرستين .

كما أذكر جوار البيت ، يفاجئني منظر التجمع السكني ، نهار الجمعة ، يمحي خواء كل يوم ـ الرمل الذي أطؤه ،القذر الأسود على الأغلب من فضلات كل الأنواع الممكن تخيلها ، يمتد اليوم تحت قدمي كسجادة مرحّبة ، كم يهم إن لم يكن لدينا طرقات أو شوارع ، مسفلتة أم لا ؛ أليس ذلك بوق بائع السمك ؟

مبمبوه ــ مبمبوه ! مبمبوه ــ مبمبوه ــ مبمبوه ! ، نفختان قصيرتان ، توقف ، نفختان قصيرتان ، يصل الصوت من الجهة الغربية القصوى لبيتنا . اتضرع لك أن تكون عربته التي يجرها حصان قد وصلت امام بيتنا وقد ابتاعت أمّي بعض السمك .

أمام باب البيت ــ تدهم الرائحة الحواس ــ رائحة تسيل اللعاب . انظر مندهشا ، تدور رقبتي ثلاثمئة وستين درجة . سمك وسامب . غير مسلوق حتى الذوبان ، عديم الطعم مثله في باقي الأيام ، سامب مطبوخ مع عظام ملحمة ، بطاطا ، بصل ، وبندورة ، منكهة بتوابل حريفة : مكعب مرق البقر ، مزيج مسالا ، فلفل ، وقضيب بريت كامل .

في الواقع ، البيت كله قد انقلب ، الأرضية شطفت ؛ أزيل عن الواح الأرضية لون العظم المصفر ، أتخيل امي جاثية فوق الأرضية ، تنورتها شمرت عاليا وفوق الركبتين . تكشط الفرشاة الواح الأرضية . تجد الأسمال القديمة التي نستخدمها كمسحة ، تعصرها ، تجفف بها ماء الأرضية الصابوني القذر .

ستبقى يدا امي مكرمشتين . الصابون القاسي ، الأزرق ، الذي تستخدمه لكل أنواع التنظيف ، يفعل ذلك بأيدي مستخدميه ، بعد مدة من الزمن . أعرف أن تنظيف الأرضية كلها تستغرق وقتا طويلا . رائحة الصابون النفاذة تدوم بعض الوقت ، علامة تنظيف جيد . عندما أدخل البيت ، تترك قدماي بصماتهما على سطح الأرضية الشاحب .

في الداخل ، يسود البيت النظيف عطر أعواد البخور الهندي . المخبأ جيدا عن الأعين ، رائحتها لاتمتزج مع أية رائحة أخرى بل تبزها جميعاً ؛ مؤكدة اعتقادنا أن الأعواد كانت فألاً طيبا وأن إحراقها يجلب الزبائن إلى البيت .

زينة من أوراق الصحف تتدلى من الخزانة والطاولة . إيڤا ــ المرأة الغسالة ــ الملونة ، كانت قصتها ــ أعرف هذا لأن أمي لا تجيد قص أوراق

الصحف على شكل الشرائط تلك . النساء الملونات فقط يعرفن ذلك . في كل ركن من اركانه يتألق البيت مضيئاً .

لكن من بين كل التحولات التي كان يأتي بها يوم الجمعة ، كانت زينة والدتي هي الأكثر إثارة بينها . تنوره امرأة متزوجة ، طويلة ، رفعت قليلا لتكشف عن ساقين صفراوين تلمعان من الغليسيرين أو الفازيلن أو زيت آخر . بدلا من العباءة الزاهية الألوان كانت تلبس كل يوم جمعة إيستشويشري ، مطرزة الحواف بصفوف وصفوف من الشرائط المزركشة ، والتي تسمع كالاماذو . فهمت أن جاذبيتها جزء من الصنعة . كانت غالبية زبائنها من الرجال والأرجح أن يواظبوا عندها إن بدت لهم جذابة . حسن ، كانت عيناها تشعان بريقاً كالذي تبثه بتلات الزهرة المتفتحة للنحل ، وفوق كل ذلك ، نفحة عطر خزامى خفيفة .

كما اذكر ، كان أبي الرجل الوحيد الذي لايتناول مشروبا يوم الجمعة ، يتوجب عليه ان يبقى صاحيا ، قال لي ، تحسبا لئن تطاول احد زبائن والدتي فيكون مستعداً لإيقافه عند حده .

ما ـ اثا ـ أ ـ امبودو إما ـ اتا ـ أ ـ امبودو ! بين إن بوتل ! بين إن بوتل !

ذلك صوت آخر محبب من أصوات يوم الجمعة ؛ صوت سخي أيضاً ، وبعدنا بالنقود . عندما ينفخ رجل الروبابكيا في بوقه ، نشرع في هرج ومرج ، نبحث عن عظام كنا طمرناها فنجدها قد فقدت ؛ اخذتها الكلاب وأشخاص آخرون صغار سطوا على غنائمنا لنفس الغاية . بسرعة نجمع اي شيء يقع تحت ايدينا . نأخذها مهرولين إلى عربة رجل الروبابكيا ، التنكة بشلن ، لا يستطيع أي منا نحن الأولاد تجاهل بوق هذا الرجل . ولا نبخل عليه لا بالعلب عديمة النفع في بيتنا ولا بما جمعناه من مقلب نفايات مجمع المدينة ، الإتساع الرملي الذي شيدت فوقه الاكواخ التي نسميها منازل والموزعة كيفما اتفق ، كان ، في الواقع ملجأ حقيقيا . كانت العظام موجودة بوفرة والزمن وحده كان يحول دون تحصيلنا الثروة .

أضيف إلى سحر يوم الجمعة صخب" سماوي يقلّص المسافة ما بين الحلم والواقع . إما إننا لم نلحظ ذلك النقل الجوي الكثير في الأيام الأخرى ، أو إننا لم نكن موجودين حين مروره . لا أعرف أيهما الصحيح .

أيا يكن ، بعد ظهر الجمع ، أوقات العصر ، كانت الطيارات تطير منخفضة قليلا فوق مجمعنا السكني . وفي الصيف خصوصا إن لم تخني ذاكرتي . أتذكر صرخاتنا المستثارة،ذكراها فرديةدائماً رغمأنها كانت نشاطا جماعيا .

« طيارة إدونديباتل إيبانانا ! زونديباتل إيابل ! زونديباتل إيلوخوي ! » (طيارة اجلبي لي موزاً ، اجلبي لي تفاحاً . اجلبي لي ثيابا .) كجزء من أيام الصيف الطويلة الكسولة الحارقة ـ الشمس . تترافق الصيحات مع تلويحات ، أيدي مسعورة وكأننا واثقون من أن الطيارين يروننا ، يرون أشكالنا ، يعرفوننا . نلوّح لنقط قرمزية بالكاد مرئية . يلوّحون لنا . لوّح السحر لنا ! لِمَ لا نطلب منهم أشياء لا نستطيع طلبها من آبائنا ؟ ثيابا جديدة ، موزاً ، حلوى ، دمى . أيمكن أن تعجز هذه الكائنات القادرة على الطيران عن فعل أي شيء ؟ ليس بالنسبة لنا . هكذا قدّمنا طلباتنا ، متجاوزين الواقع . كان أولئك الناس القادرين علي الطيران ، جزءاً من أعجوبة يوم الجمعة .

الصوت الحلقي للأومجقا لاكاما شوشو ، كما سمينا صفارة المصنع الوحيد القريب من تجمعنا السكني بما يكفي ليقصده الرجال على الأقدام يعلن الخامسة ، ماشوشو ، كانت معروفة رسمياً باسم شركة الصناديق المعدنية ، ولدى إطلاق صفارتها ، يزحف مئات الرجال زرافات زرافات ذلك هو نذير آبائنا ، أجدادنا ، أعمامنا ، وإخوتنا ، للخروج الى العمل . إذا ما وصل رجال ماشوشو ، فهل بوسع رجال المزارع والشركات واحواض السفن ان يتخلفوا ؟ كانت الصافرة ساعتنا السمعية التي لا تخطىء في مكان لا أحد فيه يملك ساعة يد ، وبضعة بيوت فقط نفخر بامتلاكها ساعة منبه .

أول من يصل ، طبعاً ، زبائن والدتي الماشوشويون لكن سرعان ما يلحق بهم آخرون . هذا هو وقت العمل .

حتى قبل دخولي المدرسة ، تعلمت مساعدة والدتي في البيع . كان بوسعي تكييل رشفة ، نصف زجاجة ، أو زجاجة من الجالون . في السادسة كان وسعي تكييل كأساً كبيرة من البيرة الكافيرية . وفي السابعة لم يكن إرسالي الى الدكان ممكناً فحسب ، بل والاعتماد علي للعود بباقي النقود .

الليل . كان الوقت الأفضل في اليوم الأفضل . بخلاف الأيام الأخرى حيث الواجبات المنزلية ومراقبة الوالدين تسمر الواحد في البيت ؛ ليلة الجمعة كانت الليلة لحرة . غالبا ما يجلب احد الرجال غيتارا أو قيثارة او هرمونيا وتملأ الموسيقا الليل ، تصنع سلفاً يوما سحرياً .

من يشربون بيرة ومسكرات سيحتاجون أيضاً شيئاً آخر من الدكان خمنوا من سيرسلون الى هناك ؟ من مغيب الشمس حتى عد وقت النوم بزمن طويل ، كنت أصبح جزءاً من مسرة السكارى في ليلة الجمعة في التجمـــع السكني .

كانت عصا بابو ، صاحب الدكان ، الهندي ، ترى باستمرار على طاولة الحساب في دكانه أيام الجمع . كانت الدكان تغص عادة بالناس واعتبر البعض ذلك فرصة يمكنهم فيها اخذ ما يريدون اثناء إنشغال بابو . إلا أن بابو لم يشاركهم ذلك الراي . ولم يتوان عن استخدامها مع الأولاد الذين ضبطهم يسرقون أو على وشك .

كان الذهاب الى الدكان مسرة دائمة . كان الذهاب اليها متعة حقيقية لم انلها إلا أيام الجمع عندما كان الكثير من الناس يريدون أشياء كثيرة في أوقات مختلفة . ومن ثم ، حتى فرصة الذهاب الى الدكان ليلا . إضافة الى أن كل الراشدين الذين يرسلوني الى الدكان ملزمين بإعطائنا النقود كان الولد الذي يُرسل الى الدكان من قبل الراشـــدين ، محظوظـاً حقيقة ، خصوصاً الذين يكونوا قد اسرفوا في المشروب . اليد السكرى أكرم من اليد الصاحية ، هذا ما اكتشفته في أيام جمع طفولتي . أولئك الأشخاص لا يعطونني اكثر مما توقعت ، بل أكثر مما اعتقدت ؛ غالباً اكثر مما دفعوه ثمناً لأي يكن ما اشتريته لهم من الدكان . علاوة على أنه ، ربما نسي المبلغ الذي اعطانيه للشراء ، فيقول ببساطة احتفظ بالباقي لنفسك ، حالما يحصل على ما اشتريت له ، طبعاً ببصيرة الطفولة الخارقة للطبيعة ، بسرعة اتعرف على مصالحي الحقيقية ، الرجال الذين اسرفوا كثيرا في المشروب . أحاول أن أكون مبعوثهم الى الدكان أيام الجمع . كانوا زبائني المنتظمين .

كل الدكاكين تقع في الشارع الرئيسي ، الذي يبعد قليلا عن البلدة ، يضطر المرء ، لبلوغه ، لمغادرة البلدة ، يمشي عبر غابة صغيرة ، متجاوزاً الشوارع بين بيوت الملونين ، ومن ثم هنـــاك الطريق الرئيسي والاضاءة

المبهرة : اضواء شارعية كهربائية ، أضواء دكاكين ، سيارات ، وحتى الباصات تعبره في كلا الاتجاهين .

مهما يكن ، أكثر من بريق مدينتنا الصغيرة كان بريقه يسحبنا من بيوتنا الى الطريق الرئيسي في هذه الليالي . حميمية رفاقنا ، النقود في أيدينا ، ما اشتريناه بها ، الإذن بالتأخير خارجا ليلا ، كل هذه مجتمعة لم تمتلك سحر متعة أخرى جذابة ، متعة سرية على مشارف الخط : مطاردة ، حذرة عن بعد ، لعشاق متخاصرين يبحثون عن منطقة آمنة في الغابة وما أن يستقر العاشقان المسكينان ، معتقدين انهما آمنان ، حتى يشاع سرهما ككلمة سر ، لكل ولد أو مجموعة أولاد على الطريق .

لم يكن الأمر اننا تنورنا من تجسسنا ذاك . كانت المتعة في التفرج على شيء كنا نعرف انه يفترض بنا الا نتفرج عليه ، شر يخص الكبار . طبعاً ، كنا نتعرض للضرب لو ضبطونا . ولم تَبُحْ بهذه المسرة الثانوية لتبضع ليلة الجمعة ، الى والدينا غير المرتابين . وبالرغم من حبس انفاس الانفعال خشية افتضاح امرنا ، سرعان ما سئمنا مراقبة شيء ما لم يبدو لنا سيتطور الى اي شيء . عندئذ اقنعنا انفسنا بكفاية إفشاء السر الى الآخرين ونحن في طريقنا الى نشاطات اكثر إرضاء .

نقود من جامع الروبابكيا ، نقود من زبائن والدتي الذين كانوا كرماء والسبب الوحيد أن اليوم يوم جمعة ، نقود أولئك الذين أرسلوني الى الدكان : كم كنا ننفق ونبذر أيام الجمع !

كرات من الكريما ، شوكولاته بالحليب ، سمك وشرائح بطاطا مقليين فتات سمك ، توفي قاسيه ، مينثور ـ أورليبتوس ، كل هذه ، تعتمد على مقدار نقود الذي لدي حتى أزدردها ، حلاوتها الزلقة متعة لا تنسى حتى يوم الجمعة التالي .

حسن ، في الليل كنا نبقى مستيقظين ونساعد والدتي في عملها . كانت هذه فرصتي لأبقى ساهرا الى اقصى ما يمكنني . حتى عندما كان يعاند النعاس طموحاتي ، كنت أقاومه الى أقصى ما أستطيع . وأحيانا

تساعدني الأحداث الطارئة على البقاء مستيقظا اكثر مما توقعت : شجارات بين رجلين أو مجموعة رجال ، علقة ــ زوجة ، غارات الشرطة .

وبنظرة ولد مصلحية . رحت اربط يوم الجمعة وكل مسراته بشيء واحد ، النقود . كانت النقود المقوم الذي لا يوجد في أي يوم آخر ، فقط الجمعة . يوم الجمعة كان يوم الدفع .

لذلك،وقبل ان أصل الصف الثالث بكثير وأتعلم عبارات ومصطلحات ذكية ، عرفت أن النقود جعلت العالم يدور . مهما يكن ، عرفت أيضاً أنها اصل كل شر ؛ وعرفت أن يوم الجمعة كان اليوم الذي تنتقل روحه الى الناس الافريقين في المجمع الذي كنت اعيش فيه ؛ الذين ، تحولوا هكذا ، مشوا ، تكلموا وضحكوا وابتسموا ، لعبوا وأكلوا وغنوا ورقصوا على موسيقى السوينغ لماذا ؟ وكانهم كانوا بشراً آخرين . كان يغير الناس الذين كانوا أسوياء عاديين طوال الاسبوع حتى يوم الجمعة ، يوم الجمعة يبدون مختلفين ، تدهشك رؤيتهم .

حمداً لله أنه يوم الجمعة او مهما يكن ، حتى اليوم ، ما زلت أرى يوم الجمعة يوم الأسبوع المبارك الأغنى بمباهج الحياة . إنه يوم لا أعد فيه مسراتي فحسب بل أراها ، بوضوح أكبر .

نوسيسا

سياج من ثلاثة أسلاك شائكة يحيط ببنـاء على شـكل حرف L ما عدا ، عندما ينظر إليه المرء عن كثب يكتشف انه حيث ، يجب أن يلتقي ذراعـا الحرف L توجد فجوة وهذا ، في الواقع ، بناءان أحدهما أطول من الثاني قليلاً . لكن من البوابة يبدوان كبناء واحد على شكل حرف L

هذه مدرسة والفجوة ممر بين مقدمتها ومؤخرتها . الذراع الأقصر اقـرب الـى البوابـة . مؤلف مـن غرفتين ، غرفتي الصـف الخامس والسادس . اعلى صفين دراسيين في هذه المدرسة الابتدائيـة الأعلى . الصفين الثالث والرابع ، الذين يوجد لكل منهما غرفتا صف ، يقعان في الذراع الأطول من الحرف L . هـذه الغرف الأربـع هي أيضـاً أكثر اكتظاظاً وصخباً من الغرفتين الأخريين .

لا تغلق البوابة ؛ ليل نهار ؛ تبقى مفتوحـة لسبب بسيط هو أنـه عندما شيّدت المدرسة تركت البوابة هكذا بعموديها الجانبيين فقط .

من البوابة الى البناء يمتد ممر مُبلّط نصفه مغطى بالرمل . ساحة المدرسة رملية ، لـم تبلّط قط وأمـام غرف الصفوف تمتد شـرفة : اسمنتية مرتفعة قليـلاً يغطيها سقف الـواح توتياء مائلة ، يقف تحتـه التلاميذ والأساتذة مثل قطيع في مستنقع ، وعلى أقدامهم طبقة من غبار الرمل . هذا في الصيف عندما يكون الطقس صاحياً ، والشمس حارقة متألقة ، والمطر منحبس . في الشتاء ، تصبح الساحة مستنقع برك مـن مختلف الأشكال والأحجام تتنافس لابتلاع بعضها البعض ، تأوي اكبـر عدد من الضفادع تستطيع اجتذابه ، دون أن تحول دون دخولنا غرف

الصف . عندئذ يقفز الحشد الى الصفوف : فيتلو الأساتذة الصلوات . ومن ثم يجرون التفقد داخل صفوفهم .

خلف غرف الصفوف مكان مفتوح حيث ، في كل جهة منه ، حرفا H يرتفعان عالياً يكسران رتابة الأرض البور . يواجه الشكلان H

احدهما الآخر ، يفصل بينهما ثلاثون متراً وبعض المتر . هذا هو ملعب الركبي المدرسي . بالنظر الى الجهة الأخرى من الساحة ترى دعامات المرميين بشباكهما . في أيام المسابقات الرياضية ، عندما تأتي مدرسة اخرى للتباري، يخطط هذان الملعبان من جديد بواسطة عصا أو مجرفة. في الأحوال العادية ، يحفر الأولاد الخطوط بأعقاب أقدامهم العارية . كل هذا مؤطر" ، ذهاباً وإياباً ، بسماء حاضنة ، منخفضة ، لم تفسدها اية مباني بشرية . لا مباني صناعية ولا مباني سكنية عالية . تجثم البلدات الافريقية مبدئياً ، بيوت غير طابقية متناثرة على مد النظر . لا تفكير للانتفاع من الفراغ في المخططات . بنيت كمنازل تجمّع عمالي . وبناء المدارس لأبناء التجمعات العمالية يظهر دافع المخططين : إن وجود العمال مؤقت . هكذا ، هذه مدرسة نموذجية لأطفال افريقيين ، نموذجية ، للفئة العمرية بين الحادية والرابعة عشر .

ست غرف صف ، ستة مدرسين ، ثمانمئة تلميذ . هذه هي حالة مدرسة مكانا الابتدائية العليا في جوجوليتو . لا شيء فيها جدير بالملاحظة على وجه الخصوص لأنها صممت لتكون هكذا . السمات الرئيسية : ضيق المكان (يتعذر تفسيره ، رغم أن الحكومة تتمنى ، أن تتزايد اعداد التلاميذ) ، الأرضيات الإسمنتية ، المقاعد المكسَّرة ، الإنارة الضعيفة ، التهوية السيئة ، رواتب الأساتذة المنخفضة ، لا خطط تغذية ، لا منح حكومية تترجم كتباً ، وسائل إيضاح ، ترفيه ، وتسليات اخرى ؛ باختصار ، تمويل دون اقتصادي . كل هذا كان باستمرار في نظام التعليم الحكومي الثلاثي المستويات ، المهلهل ، حيث تنصب جهود التعليم الحقيقية على الأولاد البيض ، والأولاد المصنفين ملونين ينالون قسطاً أقل

ويدرّب الأولاد الأفريقيون ليكونوا بشراً بونسي (*) ؛ يتقزّمون عقلياً وروحياً في توافق تام مع جسمهم المنكمش وطموحاتهم المتبخّرة بأي مستقبل يستحق الاسم .

في غرفة الصف السادس ، يوجد منفذا إنارة عريضان عبر النافذتين يقسمان الغرفة الى خمسة أقسام متعاقبة : ضوء ظل . كل قسم يضم إليه صفوف مقاعد يجلس عليها صغار متماثلي النظرة الصارمة وهكذا ، كل صف يضفي لوناً ، سواء مظللاً أو مضيئاً ، يناسب لونه : الوجوه تحت الضوء مشرقة وتلك الظليلة ، كئيبة .

الهواء كثيف ، رائحة الأولاد على حافة جرف رائحة الرجولة الكثيفة . ومن حين لآخر يفرقع سوط الأستاذ ليبقي المحلقين فيه في الحد الأدنى من اليقظة؛ مهمة مضاعفة الجهد بسبب ثقل وجبة غذاء طلابه التي ازدردوها خلال استراحة النصف ساعة الماضية . **فينكويك** و **فريكاديل** ، القطعة بخمسة بنسات ، من ماما ماجوميد .

مثل شلن جديد في جزدان مليء بشلنات قديمة ، تتميز فتاة عن باقي الصف . عينان صافيتان . بشرة طرية كبتلات مخملية قبلّها ندى الصباح ، تجلس منتصبة ، جسمها ، رشيق كظبية ، ثيابها نظيفة نضرة مريحة ، الزي المدرسي : سترة رياضة سوداء ، قميص أبيض ، حزام أسود ، حذاء أسود ، سترة فضفاضة سوداء ، وجوارب بيض . كانت الوحيدة في كل المدرسة تلبس الزي المدرسي كاملاً ... يومياً . اسمها نوسيا .

استاذ الصف السادس ، السيد ماباندلا ، وقف بجانب الحائط الأبعد قرب السبورة . وكما يبين البرنامج المعلق على الباب أعلن أن هذه حصة لدرس الجغرافيا : لأنها الحصة الأولى بعد استراحة الغداء واليوم ، يوم الجمعة . فوق السبورة تتدلى خارطة للعالم . مثل وجه

(*) بونسي : نوع من الشجر القزم .

مكشوف ، لعجوز لطيف ، تدلت الخارطة زاخرة ببصمات الزمن : تغضنات ، تجاعيد ، وبقع حائلة اللون لا شكل مميز خاص لها . من يد الأستاذ اليمنى ، كامتداد طبيعي لها ، ينتأ قضيب سفرجل . طوله أقل من متر ، قضيب قوي ولدن ، ذلك لأنه تُشّر ونقع في الماء المالح ثلاثة أيام ليصبح أكثر إيلاماً .

« ليندوي ! » فرقعة صوت وخبطة القضيب على الخارطة التقيا واتحدا كصوت يشق الهواء .

انتفضت الفتاة التي نوديَ عليها ، واقفة ، سمّرت عينيها على النقطة التي استقر عليها القضيب ، تستجمع قواها لقفزتها الذابلة . ابتلعت بصعوبة وسرعة عدة مرات . لا شيء في فمها سوى خوفها وما جاء به . توتر جسمها كله ؛ كانت اذناها لاقطين جاهزين لالتقاط ادنى اثر لصوت .

في النسق الثالث الى يسارها ، نوسيسا ، المعروفة من كل الأساتذة والتلاميذ على السواء ، لفظت الكلمة الوحيدة : « نيه حر » ؛ نطقتها من أسفل حنجرتها . جاءت في مقطعين صوتيين بطيئين: «نيه جر» حتى إن شفتيها لم تتحركا ، بالكاد منفرجتان .

« النيجر ، يا أستاذ » . ومدت ليندوي . ضارعة لله أنها سمعت الكلمة الصحيحة ، أنها نطقت الاجابة الصحيحة .

ببط ، متردة ممتنة ، جلست في مقعدها ، شاعرة انها ملمة بمعلومات سرّية ، أنها قدمت الإجابة المطلوبة : الصحيحة .

شريكة ليندوي في المقعد ، خائفة من أن تكون التالية، بدات ترتجف . دودو الفيلة ــ الطفلة جسد تحرك في عدة أمواج ــ صغيرة كثيرة التماوج . مرئية عبر السترة الصوفية الرياضية السميكة التي ترتديها ، والبلوزة ؛

الســوتير ، والســترة الفضفاضــة ، تنتقــل الارتجافــات في أمــواج غير مرئية من الطيّات الجبلية الى خشب المقعد الجالسة عليه ، وتزحف -بر المقعد الى حيث تجلس ليندوي . إن كلبـاً مسعوراً في ليلــة باردة لا يمكن أن يرتجف أكثر ، فكرت ليـنـدوي ، مرتجّة من موجات الهز الصغيرة جراء هياج جارتها . لدى دودو كل المبررات للخوف . ما لم ، بانتقاء عشوائي ، يقفز الأستاذ باختياره مفاجئا ضحيته التالية ، كانت هي التالية .

نوسيسا ، عينان كبيرتان تلاحقان الأستاذ في كل حركة ، تنشدان تسلية . غالباً ما يفاجئها الأستاذ . قالوا أنها شقت الصفوف قسمين . أكان ذنبها أنها ضجرة معظم الوقت ؟ اليوم ، مهما يكن ، لم تسرّها الفكــرة .

كانت دودو الأكبر في الصف السادس . وكانت أيضا الأسمن في كل المدرسة ؛ إنها مأثرة ، المدرسة ، في حجمهــا وتعادل في قوتها مئة . مهما يكن ، فإن تميزها لم يقتصر على هــاتين الصفتين . فقد كانت الأكسل في صفها ؛ وهذا جعلها على صلة دائمة مع قضيب السفرجل بكل مطواعية لسماته .

بعد انتهاء درس الجغرافيا تدافع الأولاد خارجين الى حصة « العمل المهني » بينما بقيت البنــات على مقاعدهن منتظرات السيدة بوبا ، مدرسة التطريز . البنت التي تعرف كل الإجابات كانت مستغرقة في التفكير . نوسيسا الصخابة والثرثارة عادة ، كانت اليوم هادئة ومترعة بالصمت ، الشيء الذي لم تستطع زميلاتها في الصف فهمه . « أنت مريضة ؟ » سألت سيندوي صديقتها للمرة الثانية عصر ذلك اليوم . اكتفت نوسيسا بهزّ راسها نفياً .

عندما غادر غرفة الصف ، كان السيد ماباندلا يحمل خارطة اخرى في راسه . من القمة الأعلى الى الغور الأعمق ــ هكذا يفكر فيهم . اليوم،

من ناحية ثانية ، كانت قمته ملبّدة بالغيوم : ماذا أصاب البنت ؟ لم تكن نوسيسا على بعضها اليوم ، تساءل ، وهو يقصد غرفة صف أخرى .

لا بد أنه أكثر اندهاشاً من دينفا ، ولد تخيل نفسه في حب مع نوسيسا . كان يحاول يومياً لفت انتباهها وكانت محاولاته تُصدُّ يومياً . لم تكتفي بعدم تشجيعه فحسب ، بل كانت واضحة العدائية نحوه . « كف عن التحامق » وإلا « اشتكيت عليك » . تلك كانت صدودها الألطف . وهنا ، اليوم ، لم توله انتباها حقيقيا ... حتى عندما لمسها، مطوّقاً خصرها بذراعه . اكتفت نوسيسا بأن نظرت إليه ... حسن ، ربما لم تكن نظرة حقيقية . لم يعرف دينفا كيف يصف ما حدث . بالتأكيد ، تلاقت نظراتهما مباشرة ... لكنه ، رأى شيئا لم يره من قبل ، شيئا ما لم يعرفه . بدا وكأن الشمس تضيء ... فحسب ، دون دفء حتى لم يصدر عنها شعاع واحد . وكأن الشمس قد ماتت . هكذا فكر دينفا بالنظرة . وكأن عيني نوسيسا انطفأتا .

نادرا ما اضطرت السيدة بوبا لتصحيح وظيفة نوسيسا . لم يكن هذا اليوم استثناءً . عندما جاء دورها لتقديم وظيفتها ، الملاحظة الوحيدة التي استطاعت المعلمة إبداءها : « انظرن كم انيق عملها ! انظرن » ! وتستدعي عملياً بعض المُهمِلات بالاسم ، « ... بينما تصنعن عملكن تحت الفراش و في زريبة الخنازير بين عشية وضحاها » . عادت نوسيسا الى مقعدها تاركة السيدة بوبا تتساءل لماذا البنت هادئة جداً . حتى ابتسامتها الغمازية الشهيرة اختفت اليوم . فمهما يكن ، فقد كان عقل السيدة بوبا مطالباً بواجب أعلى ، الاهتمام بالتلميذات اللواتي جعلها عملهن تصرخ . ألم تقل منذ زمن لولا ان الويست كيب كان منطقة خاصة بالملونين لبحثت هناك عن عمل كخياطة . لكن لم يكن مسموحاً للأفريقيين القيام بتلك الأعمال في هذا الجزء من البلد . الأعمال الكتابية والخبرة المهنية كانت محصورة بالملونين ، وفقاً لرغبة واضعي القوانين . هكذا لم يكن أمامها سوى مهنة التعليم .

بعد المدرسة هناك الرياضة ، تدريبات كورس الإنشاد ، والتنظيف . أولئك الذين يعيشون « بعيداً » عن المدرسة ، أي في الضواحي حيث يعيش البيض ، كانوا يُعفَو ن من هذه النشاطات الإضافية على المنهاج . حتى مدراء المدارس كانوا يخافون من رقابة الناس البيض . أي ناس بيض . العائلات حيث أولاد مثل نوسيسا يعيشون مع أمهاتهم اللاتي يعملن خادمات منزليات ، هم عائلات بيض .

« واحد واثنين ، جوميد » ، قالت نوسيسا بهدوء . مناولة البائعة خمســة عشر سنتا . اخــذت لفريكادل والفيتكويك ، مــزقت ورقة الفيتكويك ووضعت الفريكادل داخلها .

كانت ماموجيد تحب البنت أيضا . طفلة محترمة ، لم تكن مثل غالبية الآخرين ، صعاليك يريدون الفيتكويك دون الدفع مباشرة . ولم تجادل ، أيضاً ، مثل الآخرين ، « إنها صغيرة جدا » ، « ليست طازجة » أو تفاهات اخرى من هذا النوع . سَعِدَت ماموجيد عندما بدأت البنت تشتري منها .

منذ عامين نالت نوسيسا حريــة شراء غداءها بدلاً من حمله من البيت . إنها ، مثل باقي الأولاد ، كانت تستمتع بمضلعات ماموجيد الصلبة . والآن بذلت جهداً صادقاً للابتسام للمرأة العجوز التي سألتها ضاحكة ، « تهربين من عشاقك في المجمع السكني ؟ تبحثين عن أولئك الأولاد البيض ، م‍ ؟ »

شــعرت ماموجيد بقليل من الخجل من نفسها عندما لوّحت لها نوسيسا مودّعة ، شيّعت ماموجيد بعينيها البنت وهي تبتعد ، وهزت راسها الملفّع . لماذا المخلوقات الصغيرة اللطيفة كهذه يبدين حزينات هكذا ؟ بعدئذٍ توقفت ، قائلة لنفسها أن لديها همومها الخاصة تشغل نفسها بها .

ماما ماموجيد ، سمينة وثقيلة مثل الفينكويك التي تبيعها ، كانت جزءاً أساسياً من المدرسة أكثر حتى من المدير ، الأقدم من كل الأساتذة ، بإمكان المرء معرفة برنامج المدرسة من ماما ماموجيد . صنعت عربتها من دواليب دراجة عتيقة ، والواح رقيقة نزعت من صناديق حليب ، صناديق فاكهة ، وأشياء اخرى تافهة عديمة النفع ، تجر عربتها الى المدرسة قبل عشر دقائق بالضبط من كل فرصة استراحة .

عشر دقائق هي كل ما تحتاجه ، مع السنين ، غيّبت طريقها . كانت تدفع عربتها ، تجرها أو تدفعها هذا يتوقف على إن كان كتفها أم ظهرها يؤلمها اكثر اليوم . عندما تصل زاويتها ، غير بعيدٍ عن البوابة ، حيث بعض الجنبات تمنحها الظل ، كانت تسند العربة على السياج الشائك وتريح جسمها على كرسيها ــ صندوق خشب قديم ، على جانبيه المحكوكين احرف غليظة تشكل كلمة ليون لاجر(*) .

في الاستراحة القصيرة ترى ماموجيد هناك ، عربتها محمّلة بالحلويات والشراب البارد وأية فاكهة يجود بها الموسم ولذلك فهي رخيصة وقذرة . تعود في استراحة الغذاء . هذه المرة أيضا العربة مليئة بالفيتكويك والفريكاديل والشراب البارد طبعاً . وفي الاستراحة الأخيرة كانت تشتري طعاما خفيفا وهذه المرة لم تكن تزعج نفسها بالعودة الى البيت وبدلاً من ذلك كانت تنتظر انتهاء الدوام المدرسي خارج باحة المدرسة . من أجل أولئك الذين لديهم تدريبات رياضية أو كورسيه بعد المدرسة ، فقد كانت خلاصا مباركا بالنسبة لهم .

خلّفت نوسيسا المدرسة واصدقاءها خلفها ، شقّت طريقها الى محطة القطار . تنوء تحت عبء قلبها المثقل . كل مشاكلها العديدة تضغط عليها اليوم . ذكّرت نفسها بنتفٍ من قصص معاناة آخرين : المسيح على الصليب ؛ أمه ، مريم ؛ ضحايا الفيضانات والزلازل ؛

(*) ماركة بيرة .

ضحايا الاضطهاد الديني ، سجناء سياسيين في جزيرة روبين ؛ ضحايا القمع والتعذيب الذين يعيشون في ظل الدكتاتوريات ؛ ناس ابتلوا بالقحط والمجاعة ؛ بحارة غرقت مراكبهم في قاع عالم البحر غير المرئي ؛ ضحايا الحريق .

لكن مسيرة النصف ساعة الى محطة القطار كانت رحلة عبر شرك مليء بالأشواك الذي كان حياتها . مؤخراً ، انقلب الأسى الى الداخل . كانت تجد صعوبة أكثر فأكثر في فصل معاناة الآخرين عن المعاناة التي تعيشها وتعرفها وحدها . كربها الخاص الذي حتى والدتها (خصوصا والدتها) لم تشتبه فيه . الآن ، رأت ، هي ، كانت ، على الصليب . نوسيسا أنبت نفسها ، هذا تدنيس للمقدسات . لكن في اللحظة التالية ذهب عقلها الى أطفال بيافرا الجياع ، بناء عليه ، هم أفضل منك ، قالت لنفسها . إنهم لا يرون ما لا يستطيعون أكله . لكن أنا يومياً ، أحمل كارين معي يومياً .

مستذكرة آلام العالم ، منذ الأزل ، لم يكن صعباً على البنت . لم تكن صلوات والدتها المسائية ضيقة او انانية . كانت رحيمة ، صادرة من قيعان قلبها ، غير محدودة المدى . في الرابعة ، عرفت نوسيسا « كرب الأرملة التي تزدرى نهارا وتزار من قبل شياطين مجهولة ليلا » . شعرت بالبؤس ، بؤس البنت لم ينطق فمها بكلمة « بابا » ، . عندما كانت والدتها تصلي ، كانت تتلو كل الكارثة التي هي « حمل هذه الحياه والطريق الى الصليب » .

لذلك ، عندما كانت البنت تجد نفسها غير سعيدة ، لم تكن تندهش كثيراً . ولم تكن محبطة . لم تتوقع السعادة . لم تجدها قط لدى والدتها . لم تسمعها قط تتحدث عنها أو تصلي لها . في الواقع ، كانت ستصدم الفتاة لو عثرت عليها فجأة أو وجدت نفسها متلبسة تفكر أنها كانت سعيدة . حزينة دائماً بسبب هذه ، بسبب آلامهما ، الآن ، لقد تضاعف الألم ، لقد تعاظمت وقسبت . لأنها في معاناة الجميع ، رأت

نوكسولا بعضاً من معاناتها . ومعاناتها غمرتها على هذا النحو المطبق بحيث شعرت البنت الصغيرة انها لم تستطع أبداً الخلاص منها . ترافقها اينما ذهبت . نائمة او يقظة . معاناتها موجودة ــ بعد المدرسة ، تتقمص شكل شريك اللعب سابقاً ، كارين ، ابنــة العائلة التي تخدم والدتها عندها . وفي المدرسة ، أصدقاؤها ، القصص التي يقصونها عليها ، عن الحياة التي عاشوها ، الالعاب التي لعبوها ، البيوت التي عاشوا فيها . لماذا ، أوه لماذا ، كانت مختلفة عن الآخرين ؟ تألمت نوسيسا لذلك غالباً .

تعرف ان اصدقاءها في المدرسة يعتبرونها محظوظة اكثر من غالبيتهم ، في الواقع ، كثيرا ما ، قالت لنفسها كم هي محظوظة ؛ كم هي قسمتها أسهل كثيرا ؛ كيف ، ووالدتها لم تتركها قط تنسى ، كم هي مباركة ، وعرفت انها ، كانت ، كذلك . لكن مؤخراً ، كان حظها الجيد المتزايد ، طناً من الحجارة فوق كتفيها . لم يعرف أصدقاؤها عما كانت تتحدث . لم تشعر قط انها محظوظة . ايملكون ادنى فكرة عما يعنيه العيش مــع اناس ، بيض طبعاً ، هم سيدة وسيدة والدة احدهم ؟

تباطأت مشية البنت ، تقطّب حاجباها ، كلمــا غرّت الســير ، تساءلت ، ماذا سيقول أصدقاؤها إذا عرفوا ماذا يعني حظها حقيقة ؛ وفاض ذهنهــا بالصور . هــا هي ، تخبرهم ، تعلمهم مــاذا يعني ان يكونوا مكانها .

اصغوا . من فضلكم ، اصغوا إليّ . اصغوا وكفّوا عن حسـدي على حياتي ، انا من يجب أن تحسـدكم . الا ترون انني أشاهد يوميــا استعباد أمي ؟ بخلافكم ، لا مأوى لدي يشبه بيتاً . لا شيء يفصلني عن عمل أبي . لا شيء يفصلها عن مكان عملهــا . عملهــا هو بيتها ، والمكان الوحيد الذي يمكنها التواجد فيه . أمي عبدة وانا أعرف ، الا أرى ، يومياً ، نير عبوديتها ذاك ؟ أولاد البلدات محظوظون حقا ، صدقوني . هل يرون ، يومياً ، امهاتهم يُعاملْنَ معاملة القذارة ؟ ، بجفلة ، لا حظت نوسيسا أنها فكّرت بصوت مسموع .

في المحطة وقفت نوسيسا خارج غرفة الانتظار . ثانيــة ، ارتحل ذهنها بعيدا الى ذلك العالم الذي لا تعلم إلا القليل عنه ، عالم البلدات الذي سحرها ، حيث يعيش كل أصدقائها .

تذكرت كيف ، منذ سنوات ، عندما باشرت مدرستها ، اعتاد الأولاد الآخرون إغاظتها . كم كان غريباً أن ترى كل الأولاد في المدرسة ، حفاة . كانت الوحيدة بين كبار صفها المبتدئين التي لبست الزي المدرسي الكامل، تحمل حقيبة مدرسية . تمتلك كل الكتب ، تحمل زوادتها الى المدرسة ، وتتكلم الانكليزية . كم كانت خائفة ، مضطربة ، أن تجد أن لكل الأولاد اعيناً تشبه عينيها وعيني امها ، بنيّة ــ غامقة . كان ذلك كله غريبا جداً على البنت الصغيرة التي كانتها حينها .

والدة نوسيسا ، أرملة ، عاشت دائماً في مكان عملها . كانت البنت طفلها الوحيد . الأرملة مسيحية تقيّة ، كوفئت بمستخدميها . الم تكن سيدتها تتباهي ، (... الخدمة الجيدة نادرة هذه الأيام . نادرة جدا . إننا محظوظون مع ناني) .

بسبب تقديرهما الكبير لخادمتهما قبل مستخدماها احتمال وجود ابنتها معها فترة اطول كثيراً من العمر المسموح به لبقاء الأطفال السود مع امهاتهم في مكان عملهن ، وهو خمس سنوات ، لأنه حتى الخامسة يمكن الاستفادة من الولد الأسود ، كرفيق لعب لابن العائلة . لكن عندما يبلغ الخامسة ويشرع بالذهاب الى المدرسة يصبح الطفل الأســود عائقا ، شــاهدا عيانياً على مرض اللا تكافؤ المستوطن في المجتمع . فالأطفال الأفريقيون لا يشرعون بالذهاب الى المدرسة إلا بعد أن يتموا السابعة تماماً عمر النضج العقلي .

هكذا سمح لنوسيسا أن تبقى مع امها . وعندما آن أوان ذهابها إلى المدرسة كانت تستطيع حتى القراءة والكتابة وتمييز الألوان أيضاً .

كانت تستطيع العد حتى المئة أكثر أو أقل قليلا . لكن ، مقارنة مع زملاء صفها فقد كانت على تخوم الذكاء .

مع ذلك فقد جاء هذا التأكيد متأخراً على أن يزيح مشاعر عدم المساواة من القلب الصغير . ألم معرفتها أنها لم تكن جيدة تماما ، ذكية تماما ، فاتنة تماما ... مثل تلك الطفلة الأخرى .

عندما عبر الأولاد في مدرستها عن دهشتهم واستحسانهم ، لأناقتها، انكليزيتها ، أو أشياء أخرى ، حرصت نوسيسا ، دائما ، على تجاهل ذلك بتذكرها بعض ماتفتقده أو ينقصها .. دائماً ، بالمقارنة مع كارين . حتى هذا اليوم .

لم يمض على وجودها أكثر من شهر ، في عامها الأول في المدرسة ، حتى لفتت نتباه الجميع حتى المدير . لو كانت تجيد لغتها الأم لقدمت سفين دراسيين فوراً ، على الأقل . لكن رغم افتقادها اللغة الأم ، لو في وقت آخر ، لكان بالامكان أن تقدم . لكن هكذا هو عهد البانتو إديوكيشن (تربية البانتو) حيث كانت التعليمات ان اللغة الأم هي الأساس اليوم ، لذلك كان من غير العملي تقديم طفل ضعيف في لغته الأم . غير عملي اطلاقاً ، ولذلك لم يتم .

بمعنى من المعاني ، أياً يكن ، فقد ساعدت المدرسة نوسيسا . لقد سهلت الفصل ، جعلته أقل صرامة . عندما كانت كارين منطلقة الى الصف الرابع ، في مستهل مستقبلها ، مخلفة ، نوسيسا وراءها ، شعرت نوسيسا أنها عديمة النفع كدمية عتيقة ، محطمة .

وصل القطار . صعدته الفتاة وجدت مقعداً في العربة الأخيرة . يحتمل الا يزعجها أحد هناك . لكن ، بما ان مزاجها رافقها إلى القطار : فلم تكن بحاجة إلى من يزعجها. وعندما انطلق القطار فوق سكته ، إيقاعه وصخبه المعدني ، اتحدا معا واخترقا عقل البنت :

كارين رائعة .. كارين رائعة . كارين رائعة .

وعندما زعق ليقف وقوفاً .

« نوس ي س سا راحلة . نوس ي س سا راحلة » .

ثانية وثانية سمعت صوت القطار الهازي ، سمعته وضوح كبير كلما توقعت سماع السخرية مع كل عبارة .

باضطراد ، كانت أيام الجمع مكروهة بالنسبة لها ، بينما كل زملاء صفها كانوا ينتظرون العطل الأسبوعية بتحفز مرتادي سباقات الخيل ، كانت تتذكر الحرمان الذي ينتظرها . والآن ، فكرت البنت ، سأصل خلال نصف ساعة . ولن أخلص منه حتى صباح الاثنين . واغرورقت عيناهـا .

كانت والدتها موجودة عندما دخلت نوسيسا . توقفت البنت لبرهة بالباب وراقبت ولدتها ، التي لم تنتبه لوجودها بعـد . لم تستطـع نوسيسا أن تجعل نفسها تفكر في هذا المكان الذي كبرت فيه ، كبيت ـ بوضوح ، لم يكن بيتها . هي ووالدتها تعيشان في غرفة الخادمة ، ذلك الشيء الحقير الضيق الواقع خلف ، بيت المالك . مثل صندوق ـ عدة ، هكذا اعتادت أن تفكر بها عندما تسمح لنفسها بتذكر ظرفهما . الضوء لا يدخل هذا المكان أبداً ، صيفاً أو شتاء ، صحواً أم مطرا . مكان مزكوم ، مظلم ، مكانلم يتنفس قط ، ولن يعرف أية بهجة . بينما بيت المالك يستحم بالشمس : واجهته في الصباحات وجنبه في الظهيرات وبعدها ، غرفتهما تقبع باردة في عمق الظل ظل البيت .

قسمتهما ، رغم محاولات البنت الكثيرة للنجاة منها ، رفضت أن تتركها اليوم وحيدة . مشاهدة هيكل والدتها العظمي منحنية فـوق طاولة الكي ، تكوي بيد وبالأخرى تفتح القميص الأبيض أمام المكواة ، فرض عليها معرفة ماذا يعني أن تكون هناك ، في ذلك المكان الذي ترعرعت

فيه ، حيث عاشت هي ووالدتها في هذا المكان الصغير الزرى خلف البيت الذي فيه تطبخ والدتها وتمسح ، وتلمع وتشطف وتكوي وتنفض الغبار وتكنس يوميا . وابتسمت ابتسامتها الصغيرة الخجولة ،ابتسامتها المتواضعة غير الجريئة ابدا ، تفعل كل ذلك واكثر . كانت ابتسامة والدتها إحدى الأشياء التي تلازم البنت .

لقد عدت ، يا امي . لاحظت الصحفة الخضراء تغطي كأس بلاستيك احمر قرب المجلى . بقربها صحنان إحداهما يغطي الآخر ؛ مختلفي الالوان ، بلاستيكيان أيضا .

جيد ، سيسي . خذي المفتاح ، وعودي بسرعة بعد تغييرملابسك . فستانك على المشجب خلف باب الحمام ، واخرجت الأم المفتاح من جيب أفرولها الوردي .

شكراً ، قالت البنت عندما صار المفتاح في راحتها . بسرعة ، استدارت خارجة من المطبخ . نزلت درجتين واصبحت في الخلفية ، حيث ، على مسافة قصيرة ، توجد غرفتها الوحيدة .

الآن حضرتها صورة البيوت حول المدرسة : بيوت البلدة ، البون شاسع بينها وبين البيت الذي تنظفه والدتها ، لكن بيوتهم ... مؤجرة من قبل من يعيش فيها . يكفيهم ذلك . بإمكانهم ترتيبها كما يحبون . ولا أحد يستطيع دخولها دون إذنهم . لولا ان والدتها تمنت العيش في المناطق . لا تملك البنت فكرة واضحة عن كلفة هذه المغامرة . كانت تتوق فقط أن تكون مثل الآخرين .

الرائحة الثقيلة داخل المكان الصغير ، اخبرتها ان والدتها كانت مشغولة طول النهار . ربما لم تسترح في وقت راحتها ، لاحظت البنت بوخزة . تركت الباب مواربا . فتحت النافذة وهب النسيم هواء يحمل عطر الحديقة . بدلاً من أن يبهجها الهواء لطف ، فحسب ، جو الغرفة مضاعفاً غمّ البنت . لقد عانت هذه الحياة ، عيشتهما هذه . لماذا

لا تغيرها والدتها ؟ متذكرة كيف أن والدتها لم تتذمر قط إضافة الى إحساس البنت بالأسى . لم تتشارك حتى هذا مع والدتها . كانت وحيدة في اساها . ولن تفهم والدتها أبداً كيف انها غير سعيدة .

دهمت البنت افكاراً عن كارين . كارين التي أعدت خطة قضاء عطلتها الصيفية سلفاً . كارين التي ، حتى الآن ، تتلقى دروس سياقة . كارين التي كانت تلبس السوتيان وتتذمر منها كثيراً . جنّت نوسيسا من التفكير من سؤال نوسيسا الذي لاينتهي وتريدين سماع شيئا ما ، نوكس ؟ ويتلو ذلك عادة معلومة لا تعني شيئاً لنوسا : « اريد ان اصبح ممرضة . سأصبح طبيبة عندما اكبر . أعتقد أني احب ان اكون نجمة سينما . » وامها ، أم كارين ، الا يجدر بها دعم ابنتها : « اليست حالة كاريننا ، يا نوكس ؟ » لماذا يعتقدون انني أهتم بأحلام كارين ؟ لكن ، قالت البنت لنفسها ، أنها يجب الا تتذمر . لا سبب لديها للتذمّر لم تتذمر والدتها قط . تغيرت مشاعر البنت بسرعة . الآن ، كانت غاضبة من والدتها التي لم تغضب ولم تتذمر قط . غضبت منها نوسيسا ، تحديداً ، لأنها لم تتذمر قط ولم تغضب قط .

« امي لن تطلب شيئاً . باستمرار تقول لها السيدة انهم لا يستطيعون رفع اجرها والقصة المنتظرة . »

أيا يكن ، فبالسرعة التي انتابها الغضب ، غادرها فيها . بينما بدلت ثيابها وعادت الى المطبخ كانت تقول لنفسها ، « يجب ان اساعد امي اكثر . »

في الصحن البلاستيكي ، عرفت نوسيسا ، توجد السندويشة ، والحليب . بسرعة شربت الحليب وتناولت السندويشة .

السائل يساعد على البلع ، نوسيسا ، الفصل بين الحليب والخبز هو فقط ما كان يغضب الأم من نوسيسا .

ولأن نوسيسا بنت مطيعة ابتسمت معتذرة وقالت ، « نسيت . »
لم تسأل ، « الى اين يذهب الخبر ؟ » ، الشيء الذي كانت ستسأله
لو تجرأت .

في المجلى ، وجدت البنت كأساً ، ملعقة صغيرة ، صحفة ، بجانبها
صحنان صينيان .

عندما اضافت صحونها الى تلك التي في المجلى ، حدث شيئان .
عرفت أن كارين قد عادت . كارين أصغر أفراد العائلة التي تعمل عندها
أم نوسيسا . كما يتبخر البارافين مع ألسنة النار ، كذلك تبخرت
مقاصدها النبيلة . غاضبة ، شطفت الكأس بقوة غير لازمة وكسرته .
القرقعة العالية التي رافقت شطفها للصحون ، جلبت السيدة الى
المطبخ .

« سارة » . هامسة محاولة أن تبقي صوتها خافتا ، « كم مرة
قلت أن نوكس يجب الا تساعد في عمل المنزل إلا إذا طلبت أنا ذلك ؟
لا امانع إن شطفت صحونها لكنها كسرت كأس كارين المفضّل . » أصبحت
لهجتها متبرمة ، لكن نوسيسا كانت أبعد ما تكونه عن الندم .

لم لا تستطيع كارين أن تشطف صحونها هي ؟ لمَ يتوجب علي
شطف صحوني وصحونها ؟ السنا كلانا طفلتين ؟ الم نعد لتوّنا من
المدرسة ؟ الست تعبة مثلها ؟ طبعاً ، لا تملك نوسيسا إجابات على هذه
الأسئلة التي عذّبت نفسها بها . وهذا ما جعلها أكثر إلحاحاً على البنت،
وأكثر إيلاماً . عاودها كل قنوطها السابق ، تزايد غضبها آلاف المرات .

جورها جميعاً اشعل قنوط الفتاة في أعمق اعماقها الشيء الذي
جعل كل طريق من طرق الارتقاء مفروشة بأشواك ثلاثية الرؤوس ،
أشواك هائلة قاطعة الحد ، ومدببة الرؤوس من الزجاج الأقسى .

وظن أصدقاؤها في المدرسة انها محظوظة ؟ ها ! يجب ان يشاهدوا كارين . عندئذ سيعرفون ماذا يعني الحظ .

كارين . كان لدى نوسيسا سلسلة ابتهالات سردية يمكنها استحضارها متى أرادت . كل هذه تشترك في شيء واحد . كانت حقيقية ، لا هراء فيها ، ثروة جيدة ، حظ . وكارين تمتلك هذا كله .

المقاربة بين حياتها وحياة كارين دائماً تتركها في حالة سخط . اليوم ، غمرتها بكآبة حيث رأت نفسها لا تختلف عن دودو أو ماما ماجوميد ... أي ، عندما تضع نفسها جنباً الى جنب مع كارين . كانت تسبقها بلا جدال . لن تلحق بها أبداً . مستحيل .

« اكره حياتي ، اتمنى لو كنت اية بنت اخرى غير نفسي . كل الآخرين لا يعانون ما أعاني » .

رغم أن نوسيسا لم تر متى فكرت أول مرة بقتل نفسها ... أو ، في الواقع كيف استطاعت فعل ذلك ... الآن ، عرفت انها ستفعل . وقتاً ما (خلال الاستراحة ؟) استيقظت ، على جرس واضح المعرفة انها ستفعلها اليوم . في وقت ما .

ستتذكر والدتها فيما بعد ، والدموع تجري فوق خديها : « لا أعرف متى غادرت المطبخ ، لا أعرف ماذا جعلني أسال نفسي ، « أين ذهبت نوسيسا ؟ » لكن لا بد أنها كانت أكثر من ساعة عندما رأيتها آخر مرة . تلك ليست عادتها . حتى عندما كانت تستعد للامتحان كانت تاتيني في المطبخ من حين لآخر — طلباً لطعام أو شراب ... لا نحتفظ بطعام في غرفتنا . تقول السيدة ان ذلك يجلب الفئران .

غادرت الأم المطبخ بعد أن اعدت طاولة الغذاء . ذهبت ترى ماذا أخّر البنت هكذا . المنظر الذي رأته . عيناها ترجم عبر جسدها كعاصفة عبر حقل ذرة .

عويلها الغريب العنيف أنهض السيد والسيدة سميث وابنتهما كارين عن كراسيهم على طاولة الفذاء ودفعتهم حيث خادمتهم الرزينة عادة كانت كالمتوهة .

خلف غرفة الخادمة ، في فسحة صغيرة بين الغرفة والسياج الفاصل لملكية آل سميث عن ملكية جيرانهم ، كان يقف ما يبدو مثل تمثال أطفال استعراضيين في الخامس من نوفمبر ، غاي فاركس(*) ، قبل إشعال النار فيها ــ هذا التمثال كان يشتعل .

جلب المستر سميث بطانية وأطفأ فيها اللهب . لفّ الشكل الذي تفوح منه رائحة البارافين بالبطانية وأخمد اللهب . والأم تسأل طيلة الوقت : « لماذا ، نوسيسا ، لماذا فعلت هذا ؟ لماذا ، نوسيسا ؟ »

عولت الأم طويلاً وعالياً . ولم يصدر عن الابنة ولا نامة . لم ينفلت من شفتها أنين عندئذٍ ، ولا فيما بعد في المشفى حيث تباطأت حياتها في إطارها المتفحم مدة شهر تقريباً ، كانت شبحاً مخيفاً .

لم تجب البنت . لم تستطع . كانت فيما وراء إجابة السؤال ... أو غيره . ووالدتها ، حتى اليوم ، لا تستطيع إيقاف الدموع المنسابة فوق خديها عندما كانت تتذكر كيف كانت ابنتها تقف هناك ... ما زالت كمدقة في الهواء الطلق ، بينما النار تلتهمها . ما زالت الأم تسأل نفسها : « لماذا لم تصرخ ؟ » .

(*) غاي فاوكس : اسم الشخص الذي حاول نسف البرلمان الانكليزي عام ١٦٠٥ . وفي الخامس من نوفمبر من كل عام يتم احياء ذكرى إلقاء القبض عليه ، وتصنع له تماثيل صغيرة يتم إحراقها في الاحتفال .

لــولــو

طالما تسبب الوجه الجديد إثارة في (نيوسايت لوكيشن) ، حيث الجميع يعرف الجميع والغريب أندر من سن دجاجة . كذا الأمر حين جاءت لولو مكسوبي لتنضم الى أسرتها. لكن بالنسبة لي كان الأمر أكثر ، لأنني وجدت فيها الأخت الكبرى التي كنت أفتقدها . كان آل مكسوبي جيراننا الباب قرب الباب .

لا بد انها كانت في السابعة عشــرة وما شابه ، عمــر كبير قياساً لسنواتي الثمانية حينها . رقيقة الملامح رشيقة القوام ظاهرة الصلابة ، سواء في مظهرها أو أسلوبها ؛ صلابة فتاة مدينية جيدة التنشئة قــويه الشخصية . مــع ذلك حتى الراشــدين لاحظوا لباقتها . « ما تزال صغيرة » ، كانوا يقولون ــ الشيء الذي اعتبرته أنا إطراءً كأن يقولون « أنت راشدة » يفترض أنه إطراء عندما يقال لصغير . هذا هو منطق الكبار لك .

جاءتنا لولو بعطايا ألعاب نجهلها واغاني جديدة :

نالي ، نالي ، ناليباشي ،
نالي ، ناليباشي ــ انديسوبي ندبينكامي
انديسوبي ندبينكامي .
ندينكانيوا نجووي !

تمتلك صوتاً جميلاً ، عفوياً صوتاً سوبراتياً كاملاً ، نقياً وشجياً . والأغنية ، عن عاشق يهب محبوبته حصانه كناية عن إخلاصــه ، رفعت

لولو الى ذلك العالم الذي تتوق إليه اية فتاة صغيرة ، عالم الراشدين ، عالم الحب والرومانس ، واسرار عالم الرشد . فكري فيها : حيث كان فعلاً بالغ النبل أن تتشارك الاخوات بعض الاسرار الجوهرية والسطحية ، ههنا أمير رجل يهب حصانه الى سيدة يطلب ودّها ـ وطبعاً ، ببصيرة طفلة ، عرفت أن المانح لم يكن رجلاً فحسب بل إن هذا حصانه الوحيد .

ولإرباك الأميّين ، الراشدين منهم خصوصاً ، علمتنا لولو لغة جديدة .

لودو لودو ، يديزادا ادافادا (لولو ، يزي أفا) .

بالتاكيد يعجز اي شخص فوق العشرين حل لغز هذه البربرة ؟ فإضافة حرف (د) ونفس الحرف الصوتي السابق عليه ، كان ، برأينا، لغزاً يعجز اي كبير عن فهمه .

من حين لآخر تتسرب تفاصيل عن حياة لولو هناك في ايزيبليني ، قرية قرب كوينزتاون : « يجب أن اقدم لهم القهوة بالحليب في الخامسة صباحاً وإلا استيقظت تحت وابل الماء البارد ». كانت تعيش مع اقارب، عائلة ـ تخاف الله ، كبيرها لا يقل مهابة عن وزير الشؤون الدينية . في كيب تاون اكتشفت أن عائلتها هي قد هجرت الكنيسة من زمان . والدها ، عضو الكونجرس القوي ، كما كان يسمى الكونغرس الافريقي الوطني حينها في جنوب افريقيا ، اما كان يقول ، « يمتلك الأبيض جنته هنا على الأرض . هنا جنوب افريقيا ، يمتلكها حقيقة . وإن وجدت ابيض في الجنة ، ابيض واحداً ! ـ سأقول لله ، « اخرجني ! اخرجني من هنا ! »

كانت لولو في الصف الرابع عندما غادرت كوينز تاون . جاءت الى كيب تاون معتقدة أنها ستكمل دراستها . لكن أسرتها التي لديها اربعة

أولاد أصغر منها كلهم في المدرسة الابتدائية وابن في المدرسة العليا ، لـم تستطع احتمال تكاليف دراسة طفل آخر ؛ وبعد عودتها بفترة كانت في الحد الفاصل ، بين ــ بين ؛ لا راشدة ، لأنها لم تكن تعمل ، لكن ، ولأنها لم تذهب الى المدرسة لم تكن طفلة ايضاً .

« الآن اتمنى لو انني لم اعد » ، كانت تقول ، وهي تقلب كتبنـا المدرسية . « اتذكر هذه المسائل . أستطيع حلّها » . انفعالها عندمـا كانت تجد مسألة تتذكرها في كتب أحد إخوتي جعلني أنظر إليها كطفلة رغم أن ساقيها النسائيتين الريانتين وصدرها الكبير يقولون إنها لم تعد طفلة . سبب إضافي لتبجيلي لها وامتناني هو أنها كانت تسليني .

بعدئذٍ فقدتها . ووجدوا لها عملاً . مثل غالبية النساء الأفريقيات في مثل عمرها ، ترعى اطفال عائلة بيضاء . لولو عملت دادا . عاشت في مكان عملها . لأن عملها كان يبدأ باكراً في الصباح قبل وقت لاستيقاظ . يجب أن تحضر عصير البرتقال الطازج قبل الإفطار . تتأكد من تلميع احذيتهم ، وتتأكد من تحضير صرر غذاء الأولاد . لقد حسدت أولئك الأطفال على قصص لولو ، أغانيها ، وضحكتها . رأيتهم ، الأطفال البيض ، في مخيلتي يتدحرجون أرضا ، سعداء وقعوا في شرك الفرح الذي تصنعه لـولـو .

بعد ظهر الآحاد كانت تعطل عــن العمل لكن توجّب عليها العودة مساءً . قلّت فرص لقائي مع لولو ومن اللمحات الخاطفة التي كنت اراها فيها ، كانت حياتها كإمرأة عاملة على غير ما تخيّلت تماماً . كانت سيدتها تربط المنبه لها . كانت تستيقظ في الخامسة لأنها عندما تكون جاهزة في السادسة كان المطلوب منهـا أن تكون في الـ « سبيك آند سبام(*) » الذي حددته سيدتها ، تعلمت عبارة انكليزية جديدة ــ سبيك آند سبام . لكن اغاني لولو أصبحت اقل فرحا واقل تكرارا . كان نظام

---

* Spic and Spam : اناقة ونظافة وترتيب .

السبيك آند سبام يفرض عليها بإحدى طريقتين : دشاً بارداً أو جرن ماء ساخن من مطبخ سيدتها . ففي حمامها الخاص لا يوجد إلا الماء البارد . لكن بعدئذ ، كما رسمته لها سيدتها ، « أنتم ناس لا تعرفون الحمّام » . ولم تكن كاذبة ، أيضاً . فلم يكن في (اللوكيشن) حمّامات .

لا أعرف كم بقيت لولو في عملها الأول . فلم يطل بها المقام حتى عادت الى بيتها . اخبرتني كيف فقدت عملها . مع أنني أصغيت بتركيز لشروحاتها ، فلم أفهم لماذا طردتها المرأة البيضاء . « كانت محتقنة الوجه ؛ تصرخ غاضبة » . قالت لي لولو . حاولت تخمين خطأها . لكني فشلت . بكآبة ، أرى ، اليوم ، مضامين فعل لولو ، شيئاً ما عندما سمعته أول مرة كان ما وراء مقدرتي على فهمه حينها .

الناس الذين تعمل لديهم خرجوا للسهرة منذ المساء ، هلعوا لأن لولو لم ترد على تلفونهم . كانت تجالس أطفالهم ، طفليهما الصغيرين . عندما وصلوا وجدوا لولو مستغرقة في النوم على أرضية الغرفة .

« كانت السيدة كالمجنونة »، أخبرتني لولو . صرّخت المرأة البيضاء وصرّخت على لولو . أيقظت أطفالها ، الذين كانوا نائمين في آمان واستغراق تامين . « أيقظتهم ، هزتهم بعنف حتى اصطكت اسنانهم » ؛ قالت لولو ، مضيفة ، « يبدو لم تستطع السيدة أن تستوعب أن أطفالها كانوا أحياء ؛ لم يصبهم مكروه . أنني أنا التي كنت منهكة من التعب لأن تلك الليلة الرابعة على التوالي أجالس فيها أطفالها » .

لم يستطع عقلي الطفولي أن يفهم حقيقة سبب طرد لولو . ماذا كان إثمها ، بالضبط ؟ بالتأكيد ، لا يمكن أن يكون أنها استغرقت في النوم ؟ ليس في منتصف الليل ؟ كان يفترض بالراشدين أن يسهروا ؛ للاعتناء بنا نحن الأطفال خلال الليل ؟ لقد بحثت عن علائم تلك الرعاية من قبل والدي . لا حاجة للقول ، أنني فشلت . كان شخير والدي يسبق غالبا إغماضة عيني للنوم . لذلك خلصت الى نتيجة معقولة ،

مفادها أن لولو فقدت عملها بسبب لاعقلانية سيدتها غير المبررة فحسب . وكرهت تلك المرأة التي لم ، ولن ، أرها قط ؛ كرهتها بقوة ، كره طفلة في الثامنة برّة في عين نفسها . مهما يكن ، فقد كان مثل حماس سن الطفولة هذا ، ايضا ، كان كرهها قصير الأمد .

كنت سعيدة بعودة لولو الى « اللوكيشن » حتى رغم معرفتي أنها كانت تبحث عن عمل آخر وسترحل حالما تجده .

مضى عليها اكثر من عامين تقريباً ، على ما اعتقد ، في كيب تاون عندما ولدت ابنها الأول . تنقلت في ثلاثة او اربعة اعمال خلال تلك الفترة ؛ الشيء غير المألوف من الدادات . دخول لولو عالم الأمهات وضعها نهائيا في عالم الراشدين . لقد فقدتها للأبد . كون لولو اماً غير متزوجة هو فقط الذي جعل الأمور اسوأ .

فهي لم تجلب العار لأسرتها فحسب بل قللت من فرص الفوز بزواج جيّد وحطت من قيمة مهرها ، ثمن العروس الذي سيتقاضاه والدها عندما يتم الزواج . في نظر والديها ، وكل المجتمع ، أصبحت بضاعة معطوبة . وضعت والدتي نهاية لعلاقتي مع لولو . آه ، لم تقل بصراحة : أن لولو سيئة ولا اريدك بأية حال أن تكوني قريبة منهـــا . أوه كلا . لا يتصرف الراشـــدون بتلك الطريقـــة . إنهم سلاّلون . مخادعون . غشاشون . قالت امي ، « تعرفين إن لولو ستنجب طفلا . ستكون الآن مشغولة جداً على أن تمنحك بعضا من وقتها ولا اريدك أن تضايقيها » . هززت رأسي ؛ الكني لم أصدق للحظة أن ذلك بسبب حرصها على لولو .

بوجود طفل لم تستطع لولو ان تعمل . كان الطفل ما زال رضيعاً عندما وجد والد لولو حلاً للمشكلة ولمساعدة ابنته التي لا تعمل الآن بسبب طفلها . وجد لها زوجاً كان أرمل أولاده أكبر من لولو .

رجل طيب ، عامل مجد ، قادر على العناية بزوجة ، هكذا قيل . اجمع الجميع على انه الحل الأمثل للولو . اجمع الرأي العام على أنها

بعد أن أخطأت أول مرة فيمكن أن تكرر الخطأ . وبينما ، مع طفل واحد، يبقى الرجل قادراً على اعتبارها زوجة مناسبة ، فأي رجل عاقل سيتزوج امرأة لديها قطيع أولاد ؟ طبعا لم يكن منتظراً من الأرمل أن يتبنى ابن لولو أيضا . ومع ذلك يمكن أن يكون المرء رقيق القلب جداً في النهاية ؛ ولا أحد افترض أنه كان معتوها .

مانتشيس امـرأة في أواسط العمر لم ترزق اطفالا . كانت وزوجها لطيفين وكريمين . وحالما تم الشروع بترتيب زواج لولو ، أصبحت مانتشيس زائرة مواظبة الى بيت لولو . في البداية ، لم يفاجئني الأمر باعتباره شاذا البتة . في الواقع ، لم يفاجئني قط حتى سمعت والدتي تخبر والدي ، « تذكّر أن مانتشيس لم تحمم طفلاً في حياتها . فهي تتعلم ذلك الآن بوجود أمّه . ثم أنهـا هي والطفل يألفان أحدهما الآخر » بصدق ، لم أفهم الأمر كله . بالتأكيد تحرّقت بفضولي . هـل يعني أن مانتشيس ستعتني بالطفل أثناء وجود لولو في العمل ؟ يمكنها عندئذ الا تذهب الى ذلك العجوز البشع وتصبح زوجته .

هكذا أرحت نفسي بأن حللت اللغز على طريقتي الخاصة . طردتني والدتي خارجاً حالما لاحظت استراقي السمع . لكن فيما بعد وبمساعدة صارة من كلام رفاقي في اللعب القابل للفهم ، اكتملت أجزاء الصورة : أعطي طفل لولو الى مانتشيس . وأعطيت لولو لهذا الرجل العجوز بما يكفي ليكون والدها . لكن لولو لم تبد ، في المرات التي رأيتها فيها ، مصدومة . شعرت بالحزن لأجلها . حزينة لأنها أعطيت لرجل عجوز . حزينة لأن طفلها أخذ منها حتى لو كان سيحظى والدين جيـدين . شعرت بالحزن لإنجابها طفل ، بالنسبة لي ، كان مصدر كل متاعبها .

أزف الوقت وزفت لولو زوجة جيدة . رأيتها مرتين أو ثلاثاً بعد فترة قصيرة من تغير وضعها . لم يقم لها عرس . الأعراس البيضاء كانت للعذارى . لكن لولو لم تنل ولا حتى فستان عرس ملون للفتيات اللاتي سقطن : النساء اللواتي زوجن وهن حبالى أو ! نجبن ، أو «تلوثن»

بطريقة ما ـ زجاج مُشعر ، عندما دخلن مؤسسة الزواج . مهما يكن ، ورغم الظنون التي راودتني ، فقد كانت اكثر إشراقاً ؛ متوهجة بالجمال الذي يبدو محيطاً بالعرائس الجدد . بدت متألقة في ثيابها الزوجية الشبابية : فستان أزرق وأبيض مطبع بألوان زاهية يصل حتى كاحليها منديل يد قطني أسود ، وشاح صوفي « كاروهات » مشرشب ثبت بالدبابيس على وسطها ، وشال ثقيل فوق كتفيها . إن أي زوج سيشعر بالفخر أن يشير إليها ويقول هذه زوجتي . لكن الآن ، جمالها خال من أية بهجة . كان مجرد جمال ، جبان أو مجروح . جمال حزين ، مسكون هش .

بعد فترة قصيرة ، عادت مانتشبس الى قرية تراسكي ، موطنها ، واخذت الطفل معها . وتلك كانت آخر مرة شوهدت فيها أو سمع عنها . وعلى حد علمي لم تشاهد لولو الطفل بعد ذلك . اجمع الجميع على أن ذلك افضل لكل الأطرف . لولو ، مانتشيس ، والطفل . خصوصا الطفل .

مرت السنون . ذهبت الى مدرسة داخلية . بعد ذلك ، جاء مشروع الحكومة لكنس أحياء الفقراء في بداية الستينات . ومثل اعصار كنس لناس السود شذرمذر . المجتمعات التي حيكت جيدا وصُهرت بروابط الصداقة ، تشاركت الأفراح والأتراح ، تبعثرت مثل الدجاج أمام صقر . بحر الأكواخ المنبسط الذراعين الذي ترعرعت فيه تحول الى طريق لمنطقة إقامة جميلة منتظمة وظفت فيها الحكومة الناس الملونين ، الذين اخرجوا بدورهم من مجتمعات مستقرة . نقلنا الى نيانجا ويست التي سميت فيما بعد جوجوليتو . وفقدت كل تواصل مع معظم الناس الذين عرفتهم في « نيوسايت لوكيشن » . من بين الأسر التي فصلت عنها كانت أسرة آل مكسوبي .

بعد عدة سنوات . كنت ذات يوم في مكاتب المجمع الاداري لبانتو حيث ، من بين أشياء أخرى ، نحن البانتويون حسب التقسيم الحكومي للافريقيين ، ندفع الايجار . وفجأة رأيتها هناك .

رغم انني لم أرها منذ أكثر من عقد من الزمن ، وحالما وقع نظري عليها ، عرفت تلك المرأة الواقفة وحدها بمعزل عن الحشد هي لولو . غريب كيف أنني في اللحظة التي تعرفتها فيها لاحظت انني تعرفت أيضا اكثر مما عرفت أنني تعرفته . ناظرة الى الخلف الآن ، عرفت أن هناك شيئاً ما ـ شيئاً ما في طريقة وقوفها بعيداً ليس فقط عن الناس بل عن الجو العام ، الحركة النشطة في المكان . شيء ما أبعدها عنها .

بوجه ضاحك من الأذن الى الأذن ، تقدمت منها . امامها مباشرة ؛ ورفعت وجهي عالياً ليقابل وجهها . عيناي واسعتان كصحفتين ، قالت : حسناً ؟

لا بصيص معرفة .

كنت مستثارة لدرجة اني خطوت نحوها مباشرة : «مرحبا ، لولو !»

ردت تحيتي . بتهذيب شديد . مع ذلك لم المح اية إجابة تتخلل النظرة الرقيقة الحلوة في عينيها حتى بعد أن قدمت لها اسمي . « مرحباً » . لم تلفظ اسمي .

مفكرة بالتغيرات التي طرأت على جسمي منذ آخر مرة رأينا بعضنا فيها ، حاولت تنبيه ذاكرتها : « انا أخت ڤويو » ، قلت لها . بقيت عيناها خاويتين ، بركتين عميقتين تعكسان عدما عميقا .

سريعاً كعصا ساحر ، أفسحت الإثارة الطريق للتنبيه . وأمي هي مانترمبيزا . كنا جيرانكم في « نيو سايت لوكيشن » الا تتذكريني ؟ ليزوي . ليزوي ! » كررت اسمي وكأنه بذلك سيكتب نفسه على حاجبي راسها وخلف تينك العينين الخائفتين اللتين نظرنا إلي ومع ذلك لم تعرفاني ، عينان لم تنظر إلى أي شيء ابدا ، عينان فارغتان .

كان صوتي في هذا الوقت قد انطلق في مستويات عدة . كنت مضطرة لاختراق هذا الضباب الكثيف الذي احسسته وخفته دون ان

أعرفه . أعدت عليها عنواننا القديم . كررت صائحة اسم والدي . هرشت مخي بحثا عن مشعرات . أي شيء يمكن أن يثير استجابتها او يذكرها بي . لتتذكرني .

المراة التي يفترض أنها تنظرني تبسمت ابتسامة حلوة لكنها بقيت صامتة . لم تنبس بكلمة .

كنت واثقة انني لم اخطيء ؛ المراة التي كنت أتكلم إليها هي لولو ، مع أن الحكم على أناقتها ومظهرها العام يقول أنها لا تحيا الحياة التي عهدتها لديها . لم تكن ثيابها ممزقة أو وسخة ؛ كانت ثياباً وحسب لن يرتديها أي شخص . ليس لأنها كانت قديمة الموضة أو ما شابه . بل لأن التناسق فيها مفقود كلياً . فالتنورة تقول « فويتسك » للبلوزة التي كانت مشغولة ، تقول للسترة الى جهنم وبئس المصير . لا شيء يناسب الآخر .

نعم ، الآن وانا انظر إليها ، نظرة حقيقية ، رايت . لا شيء يعمل . رايت طفلة معاقة . رأيت شخصا هرماً ، هشا وعاجزا . رايت ضحية مميّزة . لا يمكن لفتاة تستطيع العناية بنفسها أن ترتدي ثيابا كالتي ترتديها لولو . مع ذلك ، هناك ابتسامة خفيفة ترفرف حول غمازتي خديها ؛ ربما مجرد ذكرى تركتها هناك خلايا أو عضلات ما ولا تستطيع هي أية سيطرة عليها . أقول ابتسامة مع أنها تسمية مفرطة الكرم لما يمكن أولا يمكن أن تكون . وسواء كانت ابتسامة أم لم تكن ، فلم يكن بينها وبين نظرتها أي إنسجام على الإطلاق ، ولا مشاركة ، ولا تزامن . تبسمت ، إن كانت تلك إبتسامة ، ناظرة عبري الى اللا شيء .

ارتجفت ، شعرت بأفعى تنسلُ نازلة عمودي الفقري عندئذ لاحظت امراة تتقدم . كان التعرّف مباشر . « ليزوي ! ليزوي ! من أين فقست ؟ » .

لم تتذكرني لولو ، قلت عجيبة تحيتهـا . كان مـن المستحيل الا أتعرف ليديا ، أخت لولو الصغرى . لقد سمنت قليلاً ، لكن عدا ذلك فهذه هي ليديا زمان . كانت تدفع الإيجار أو تبلغ عن انسداد المرحاض ، أو تستلم بريدا ؛ وعادت الآن لتأخذ اختها لولو للعودة الى المنزل . لدى سماعها ما قلت ، توقفت ليديا برهة ونظرت إلي . بعينين مغرورقتين . ومن ثم بهدوء ، بصوت متعب ، بعيد جداً ، قالت :

أوه ، لا تعرفين ؟ منذ أحداث شغب ١٩٦٠ لم تعـد هنـا على الإطـلاق ، مشيرة الى جبهتها بسبابتها . فأومات برأسـي ، بعينين مغشيتين .

بعد مغادرتنا مجمع الحكومة ، رحنا ليديا وانا نتكلم عن لولو وكأنها غير موجودة ، تكلمنا عنها بينما بقيت تحمل في وجهها شبح ابتسامة ليست ابتسامة ، حصلت على الإجابة ، لماذا لم تتعرفني لولو ، ولم ولن تتعرف على اي شخص آخر ثانية . لكن السؤال الذي لم أعرف إجابته بعد هو : لماذا ؟

كانت لولو واحدة من مئات الناس الذين اعتقلهم البوليس خلال أحداث الشغب . فقد اتفق وجودها هناك حيث كان البوليس يتغير في ذلك اليوم . لا أحد يعرف ماذا فعلو بلولو عندما كانت في الحجز . لكن عندما عادت . بعد ثلاثة أيام ، بالتمام ، من اعتقال البوليس لها ، أصبحت المـرأة الفارغة العينين التي رأيتهـا في ذلك اليوم الصيفي من عـام ١٩٧٥ .

أحـد الفصح يوم ذهبت إلى نيبترج

صرير مكابح تحتج ، تمايلت الفولكسفايكن الحمراء القانية السائرة بغير ثبات ، وارتجفت متوقفة خارجاً أمام بوابتنا . كل السيارات تتمايل سكرى في جوجوليتو ، لأن شوارعها ليست سوى طرقٍ محفّرة ، تغطيها القاذورات ، الحفر فيها تجعلها أشبه بالوجه المهزوم ، أخاديد تتسع لشخص ناضج واقف على طوله . بقيت ساكنة ، أنظر عبر نافذة الغرفة الوحيدة التي اتشاركها مع خلولو ، جدتي من أمي .

كنت انتظر السيارة منذ خمس دقائق ؛ تنبهت لوصولها من صياح الكورس « إيموتو ! إيموتو » الذي رسم صورة واضحة في مخيلتي : أولاد حفاة يلهثون من على جانبي السيارة ؛ يعدون كما فعلت ، أنا ، من قبل مرات عديدة ، وليست بعيدة جداً .

حتى دخلت السيارة مرمى نظري ، كنت أقف على حصير من حبال جوز الهند أحدق خارجا غير مرئية . في شمس بعد ظهر ذلك اليوم الخريفي المتوهجة ، كانت النافذة أشبه بالعين المظفورة . بعماء ، تحدق خارجاً . وأنا من ورائها ، مثل عصب ما ميت ، صوري . الآن ، رائحة البطانية العتيقة التي نسد بها فتحة لنافذة ليلا غزت أنفي وثقلها ثبت قدمي على الحصير .

امرأة صغيرة ممتلئة ، لم تبلغ الثلاثين بعد ، خرجت من السيارة : أمي ؛ يتدلى من يديها حقيبتا تسوّق من النايلون الأصفر والأسود . طعام وثياب . العلامة الثابتة لكرم سيدتها ؛ اشياء جادت بها السيدة

ويلكينز من طيبة قلبها الكبير . سيء جداً جسمها الفيلي المألوف ؛ ماخولو فقط قبلت ان تلبس الثياب التي أعطتهـا السيدة ويلكنـز لوالدتي . لم تمانع ماحولو في طي ، ثني ولف الفساتين الكبيرة جداً حول جسـمها الذي يفتقر للملامح الأساسية . منحنية تحت عبء الحقيبتين الثقيلتين بإحسان مستخدِمَتها ، سارت ببطء الى الكوخ . راقبتها ، وعرفت أن إحسان السيدة ويلكنز الذي امتد ليشملني اليوم ، شخصياً ، يثقل قلب والدتي كثيراً . ونفس المعرفة شلتني .

خولو ، التي كالعادة كانت ترفرف حول الباب ، فتحته لوالدتي .

كان احد الفصح . قبل ثلاثة أيام ، قالت والدتي ،« ستأتي السيدة ويلكنز معي يوم عطلتي ؛ الأحد القادم » . كنت جاهزة قبـل وصولهما بزمن طويل . كانتا تأخذانني إلى نيترج . نيترج (التي تعني المستقيم) هـي منطقة سـكن الملونين غـير بعيدة عـن جوجوليتو حيث أعيشـ . جوجوليتو ناحية افريقية .

« ليندا ، هـل انت جاهزة ؟ » عرفت انهـا لم تضـع ، بعـد ، الحقيبتين . كانت « الطاولة » تتنهد كل مرة توضع عليهـا الحقيبتان . كنت سأسمع « الطاولة » ، لوح خشب طوله متر تقريباً ، تتنهد . كانت « الطاولة » ، تتنهد كل مرّة فقد كان عليها ان تجد طريقة لتوازن نفسها على تنكات البارافين الفارغة لتي يستقر اللوح عليها . افهم اشمئزازها . أنا ، ايضاً ، لدي تنهداتي ؛ لكنني أحتفظ بها لنفسي .

« أهكذا تحيين هذه الأيام ؟ » سألتها خولو باستياء واضح .

اول ما وصلني هو خشخشة تبادل الحقيبتين النايلون بين أيديهما. بعد ثوان قليلة ، زكمت أنفي رائحة السمك المقلي ؛ سدت مجرى تنفسي. أعمتنـي .

« أوه ، إنني مستعجلة . انا آسـفة ، يا أمـي » ، ردت والدتي . اقتربت من مكان وقوفي ، عرفت ذلك من صوتها . فالمشمع الذي يغطي الأرضية الرملية العاريـة لا يثير ضجة كبـيرة . لكنني عرفت أنها قـد اقتربت اكثر . تجمدت .

رفعت «الستارة» ، غطاء طاولة من الداماسك المهلهل الحائل اللون مليء بثقوب مختلفة الأشكال والأحجام ، بلا شك ، ورّثناه من قبل عائلة بيضاء ما من العائلات التي عملت لديها أمي او خولو (لأنها كانت في نفس السلك المهني في شبابها) . خلفهـا مكاني : الحصـيرة على الأرضـية ، صندوق كرتوني فيه كل ممتلكاتي الدنيويـة ، معظمها كتب مدرسية . علاّقة سلكية ترسم ظلاً رمادياً باهتاً على الجدار المغطى بورق الجرائد حيث تتدلى من مسمار صدىء ، معقوف .

« تعالي » . ونويش ! سمعت الستارة تنسدل وشعرت بخطواتها تبتعد . التفت ونظرت على الرقعة التي تخيلتها ، كانت تقف فيها منذ ثانيـة . رايت ستارة بكماء تحدق فيّ وتصورتها تعود الـى السيارة . ثانية ، طار نظري الى النافذة ، لكن قدمي كانتا ما تزالان مسمرتين على الحصيرة على الأرضية .

لم اتحرك . لكن قلبي قفز من مكانه وعلق في حنجرتي معيقاً تنفسي . بطانة باردة لفت نفسها بقوة حولي وكأنها غلّفت كل انش داخلي . كنت اتحول الى زوجة لوط ، الى جليد .

رايت امي تعود الى السيارة . تعالي . كلمة واحدة . وكل المخاوف التي شعرت بها قط منذ ولدت اجتمعت في كـرة ديدان تتلوى في بوابـة معدتي . تعالي ، قالت الكرة وهي تدور وتدور في معدتي .

لم اتفاجا انها لم تقل لي المزيد . لم أتوقعها أن تجادلني . لكن كلمة والدتي ـ الوحيدة ـ الآمرة طعنت قلبي وهلّمت قدمي المرتجفتين سلفاً .

لا اعرف كيف تدبرّت قدماي الأمر ، لكنهما لا بد قد فعلتاها لأنني كنت اقول « طاب يومك ، مدام ، للسيدة ويلكنز وانا انزلق الى المقعد خلفها».

« ليندا » وبختني السيدة ويلكنز ، « متى ستكفين عن مناداتي مدام ؟ كانت تبتسم كاشفة عن أسنانها البنيّة كي تريني انها لم تكن غاضبة . ارادتني أن اخاطبها باسمها مباشرة ، سو . لكن حتى اليوم ، لا أعرف كيف اخاطب اي شخص أبيض باسمه . لن يتم هذا . إضافة الى انها كانت اكبر من والدتي . هكذا ، غمغمت ، « آسفة » . وفي نفس الوقت الصقت لساني بسقف فمي . كدت اقول لها « آ سفة ، مدام » .

ساقت السيدة سو السيارة وانطلقنا . لا مبالية ، تمايلت السيارة وخبّت بينما مجموعة أولاد في حالات عري مختلفة ، يعدون على جانبيها. أعطاف لدنة ماهاجونية اللون تلمع معلنة ان بعض الأمهات يمتلكن الفازلين والوقت ليدهنّ به أولادهن . لفت انتباهي ولد صغير . كان حليق الراس نظيفاً لدرجة أن الشمس كانت ترتد منعكسة عن رأسه وكأنه مرآة أو كرة بلور منمنمة . كان يلبس ثوباً ممزقاً ، كان يومها فستاناً أبيض . شاردة الذهن لاحظت انه سيكبر وسيغدو رجلاً رائعاً ذات يوم ؛ لأنه تحت ثوبه الصغير المزق تدلى وعدٌ واضح . ذلك ، او انه سيضطر الى تندية العشب .

نسيت ... بينما روعة ركوب السيارة ملأتني ، انتفخت : كنت مسافرة في سيارة حقيقية ، سيارة متحركة . بعدئذ ، جلونك ! ضرب قلبي عندما تذكرت سبب وجودي في لسيارة واين كانت تأخذني .

نيترج ، تبعد عشر دقائق ، في السيارة ، عن جوجوليتو . لقد رايت في المناسبات القليلة التي سافرتها الى لانجا أو كيب تاون منازل نيترج ، عبر نوفذ القطار الذي يخترق الناحية . لكنني لم اطأها البتة (أو ، للحقيقة ، ولا أية ناحية ملونين) .

غريب كيف تطول عشر دقائق الى هـذا الحد . تلك كانت ببساطة الدقائق العشر الأطول في حياتي . كيف ستبدو ؟ نيترج نفسها إضافة الى سبب أخذي إليها ؟ كيف أمكنني فعل ما كنت في طريقي الى فعله ؟ وأمي ؟ ماذا كانت تفكر بي الآن ؟ هل ستكون الأمـور بيننا على ما يرام ، أبداً ؟ ماذا ستظن بي السيدة ويلكنز ؟ ماذا ستظن بأمي المسكينة ؟ كـل هذه الأسئلة تدافعت في رأسي تسلبني المتعة المفترض أن أعيشها بمناسبة ركوبي الأول الحقيقي في سيارة .

باختصار ، ثانية ، أغواني اهتزاز ركوب السـيارة . أوه ، لقـد ركبت عـدداً لا يحصى من السيارات : أقصد ، الهياكل المحطمة التي كان يرميها مالكيها أو التي سرقت ونهبت لدرجـة أن ولا شخص عاقل سيفكر بمحاولة انقاذها . كان الحطام رخيصاً جداً في جوجوليتو . لكن هذه مختلفة . هذه سيارة حقيقية . ولم أكن داخلها فحسب ، بل كانت تسير ؛ تتحرك ؛ « ڤرووهم » ! تأخذنا فعلياً الى مكان ما . إنـه ركوبي الأول في سيارة .

كنت تلميذة في المستوى الثالث في مدرسة القديسة مونيكا الأولية المدرسة الكاثوليكية الوحيد في جوجوليتو . اللباس المدرسي ، ثوب سيء التفصيل بلون الأصفر ؛ أخضر ـ مصفر مفثي ، كـان قطعـة الثياب الوحيدة الجيدة عندي . لهـذا السبب تركت خلفـي العلاقة العارية ، شكلاً غريباً ينتأ كجزء من وجه كبير مبتسم لامرأة أفريقية تعلّق ثياباً مغسولة « **ابيض من الأبيض* ـ في أومو ـ طبعاً ! »**

لقد سحقت اية آمال بإضافـة أي ثوب الى « خزانـة » ملابسي : « المرأة التي أعمل عندها لا تدفع لي أفضل فحسب . بل هي إنسان ، تعرف أنني إنسان » . ماذا يهمّ والدتي إذا كانت النساء اللواتي تعمل عندهن لا أولاد لهن ؟ أي أنني لـن أحصل منها على أيـة مساعدة ؟ مـن يستطيع لومي على غضبي الكبير من السيدة ويلكنز ؟ كل هبات الثياب

المنسّقة المحتملة التي حرمتني منها : دمى ، أحذية ، قمصان صوفية . هذا غيض من فيض . ومن ثم تريدني أن أعتبر اننا صديقتان ، نداً لند . « نادني سو ! » لست انا لن تسمع ((**سو**)) مني .

خلال الرحلة القصيرة ، جلست خلف السيدة ويلكنز التي تسوق سلحفاتها الحمراء بينما والدتي تجلس بجانبها كقطة في الزاوية والمقعد الفارغ يتثاءب بيننا ، دونجا لاهي ولا انا سنستطيع أبدا تجاوزه ؛ لان ذلك هو اليوم الاخير في طفولتي .

كان أيضا اليوم ، رغم انني لم اعرف ذلك في حينها ، الذي سيؤثر على كل حياتي كامرأة . بالعودة إليه ، اندهل كيف انه بدا يوماً عادياً : حتى إنه كان يهيجاً .

قبل ثلاثة اسابيع ، لعب فريق مدرسة القديس مونيكامباراة كرة طائرة مع منافسه الرئسي بوليلاني مدرسة أولية اعلى . بوليلاني تقع في لانجا . وهذه ، بالنسبة لنا ، كانت تختلف عن مباراة أهلية من وجهين فقد كانت لانجا اقليماً عدائياً .

بالنسبة لي ، مهما تكن ، تلك المباراة كانت بداية لنا انا الجديدة . أو هل أقول انا القديمة ؟ انا الجديدة ، مهما تكن أيضاً أو لا تكن ، هي قديمة جداً جداً : اقدم من اي إنسان حي اعرفه .

ويوم ذهبت الى نيترج هو جزء من ميلاد انا التي اصبحتها ذلك اليوم . مع انه ، بالتفكير ثانية في الامر ، ربما ليس عدلا ان اضع اللوم كله على ذلك اليوم .

ربما بدا ذلك كله عندما وُلدتِ . . او في لانجا في ذلك اليوم عندما لعبنا مع بوليلاني وهزمنا بهدفين مقابل لا شيء ؛ هزيمة لا سابقة لها . أو ربما هو كله اضغاث احلام .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في نيترج لم نجد صعوبة كبيرة في إيجاد العنوان الذي اخذته السيدة ويلكنز من إحدى النساء في مجموعتها المناصرة ، للمساواة بين الجنسين والفضل لمعرفة السيدة ويلكنز السطحية باللغة الافريقانية ، الشيء الذي ساعدنا على السؤال عن الاتجاهات وأخيراً وصلنا وجهتنا . ونحن نترجل من السيارة ، ، خطرت في بالي آخر مباراة كرة طائرة .

كنت العب في الوسط . وعادة ، كنت ألعب دفاعاً وهجوما : أزود هدافينا بالكرات واصد كرات الخصم مـن الجناحين . كنـت لاعبة متحمسة ، نشيطة تنتشيء نفسها كلياً في المباراة تلك التي غيرت حياتي .

الآن ، ونحن نسير غير واثقين الى المنزل الذي رقمه مسجل على ورقة في يد السيدة ويلكنز ، عاودني الشعور بالغثيان الذي شعرته يوم تلك المباراة .

بعد خمس عشرة دقيقة أو اكثر من بدء المباراة ، سددت لاعبة وسط بوليلاني كرة جانبية قرب دعامتيها . من الجناح ، عرفت أن الكرة يمكن فقط ان ترتد إليها أو بالحظ والمهارة ، تعود مباشرة إلى إحدى هدافينا بهدف تعزيز دفاعاتنا ، ذهبت الى موقع الهدافة تحت الدعامة ؛ لقد خرجت من الدائرة حيث لا أستطيع ان أذهب .

بثقة عالية ، أرسلت الجناح كرة طائرة الى الهدافة : كرة عالية ، بطيئة مُستَقَطة . انحنيت ، منتظرة . بعدئذ ، مثل نابض ، حل عندما بدات الكرة بالسقوط ؛ وقت قفزتي لأصلها قبل الأيدي الممتدة إليها . اصلها قبل أن يصلنها ، أو أسقطها خلفهن قبل أن تلامسها أصابعهن . تلك كانت خطتي .

ثلاثة أقدام عن الأرضية و ، و اام ! واصطدمت مع كركدن طائر . على الأقل ، هكذا شعرت .

بووم ! خبطت الأرضية . مسطحة على وجهي . تمددت باسطة ذراعي وساقي ؛ واثقة انني لن استطيع أن اتزحزح إنشاً واحدا . مشلولة كليا

بعدئذ ، حركة . اضطراب ، ثوران احتجاج . داخل بطني رفرفة خوف ، عنيفة .

للحظة خلت الأرض تميد تحتي . وبعدئذ ، تأكدت ، فجأة وبصراحة قاسية جداً ، عرفت .

كنــت حبلــى .

لم يخبرني احد ان الاطفال يتحركون قبل الولادة ؛ يتحركون في ارحام امهاتهم . لكن ذلك الثوران اخبرني كل ما لم أرغب معرفته . فرغم كل شيء ، لم أكن قد اتممت عامي الرابع عشر .

كان ذلك قبل ثلاثة اسابيع من احد الفصح . اعتقدت أن جدتي ستقتلني . تعرفين ، لقد ربتني مذ كنت في الخامسة عندما اصبحت كبيرة على البقاء مع امي في مكان عملها . غالبا تنام امي في مكان عملها . ذلك يساعدها قليلا على الراحة .

حتى يبيض شعر راسي كله ، لن انسى ابداً منظر جدتي عندمــا اخبرتها . حدقت في باختصار صارخ وكأنني غولة فلن يفاجئني ، إن نظرت في المرآة واكتشفت أن راساً ثانياً قد نبت فوق كتفي . وبعدئذ بدأت العويل : عويل النســاء الهش لكن النّفاذ عندما يفقدهن الموت شخصا ما . وبعدئذ امطرتني إهانات .

اخيراً عرفت في ذلك اليوم شيئاً عن والدي لم يذكر من قبل .

على مــاذا أنوح ؟ يوهو ! ما تولو ! على مــاذا أنوح ، مناداتهــا الأليمة على أســلافها جاءتها سريعاً ، بإجابــة وخشــية نطقتها شفتيها التعستين : ماذا كنت أتوقع من ابنة حرام ؟

ماذا حدث للبطل الذي قتل على أيدي البويريين(*) القساة خلال شغب الستينات ؟ لكن المراة العجوز اللطيفة التي كانت بالنسبة لي الحب ذاته فقدت صوابها . كأفعى سامة ، نفثت سمها : ألا تلد الكلبة كلبة اخرى ؟ هيه ؟ كان وجهها يتلوى . . . ألماً ؟

كأن بوحي لم يسبب الماً كافياً ، يبدو ان جدتي لم تستطع إيقاف نفسها من إلقاء مزيد من الضوء . لمصلحتي : لموتي . أو ، موتها ؟ كان وجهها قناع بشع لمشاعر متحركة: كره، خوف وبؤس رهيب يطارد أحدها الآخر ؛ تنتقل بسرعة المشهد المشكالي . عيناها ، زهرتي الم نظرتا في قبرها وشاهدتا عظام ثمرة رحمها ، الأجيال القادمة . بصوت لم أعهده لديهـا تابعت :

امك نفسها كانت طفلة عندما ذهبت وفضت بكارتها في المناطق . حتى إنني لم احصل قط على تعويض ذلك الضرر من ذلك الرجل . في الواقع، لا اعرف وجهه لأنه حالما عرف أن تلك الكلبة كانت تحمل نطفته ، فعل ما يفعله كل رجال المناطق تلك . عاد الى قريته وقطع كل صلته مع كيب تاون .

المناطق ، تسمية ملطفـة لمساكن الرجال العازبين ، هـي بر"اكات استخدمت لايواء الرجال الافريقيين الذين أجبروا على تـرك زوجاتهم واولادهم في القرية عندما حصلوا على اذن ، بالقدوم والعمل في المدن . حقيقة أن معظم هؤلاء العمال المهاجرين ، كانوا متزوجين لم تشغل بال صانعي سياسة الحكومة ، البتة . لم يكن ذلك ممكنا . الموظفون ،البيض المتعلمين وحملـة الاختصاصات العاليـة مازال عليهم بعـد أن يفهموا الحقيقة البسيطة : ان اولئك الرجال كائنات إنسانية أيضاً .

اب الطفل الذي احمله ، في احشائي ، كان منهم . لكن ذلك لـم يقلقني . لقد اكد لي انه يريد مقابلة والدي" ولن يدفع تعويض ضـرر

(*) البويري (Boer) : شخص جنوب افريقي من اصل هولندي .

فحسب بل سيدفع مهراً ، ثمن العروس . عندما حكيت له قصة والدي ابدى اهتماما كبيرا . يا لأمك المسكينة ، قال ، وحدها ، ربتك بنفسها. اراد أن يتزوجني . تحدثنا في ذلك عشية مباراة كرة الطائرة . لكن بعد عربدة جدتي ، قررت انتظار يوم عطلة امي ، القادم .

في ذلك الاحد تشوش عالمي ولم ينتظم من حينها. واشك انه سينتظم. وصلت امي بعد الغداء بقليل . لم تمهلها جدتي لترتاح قليلا فزفت اليها النبأ السيء . لكن ، رغم ادراكي انني اخطأت وآذيت امي كثيرا ، كنت مقتنعة عندما اخبرتها عن رغبة رجلي في حمل كامل المسؤولية أن ذلك سيهون الأمر عليها قليلا ، يجعلها ممتنة انني لن أصبح أماً غير متزوجة .

كما العادة عندما تحدث اشياء من هذا النوع ، يدعى عدة رجال من الاقارب . في حالتي ، سيكونون رجالا من عشيرة تولووبهيلي ، عشيرتي خولو وامي . العشيرة تؤمن بقاءنا احياء . الجميع ينتمي الى عشيرة ولذلك ، لا يمكن لاي كان ان يكون دون اقارب . فعندما نتعارف ، مع الاخرين ، فان ذكر اسم العشيرة اهم من ذكر الكنية ، لان الزواج داخل العشيرة محرّم . فالغريب يصبح اخاً او اختاً ان تبين انه من نفس العشيرة . لقد رُبيّت كبهيلية حيث ان والدي قد مات قبل أن اولد ولم اتواصل مع اولئك البشر . الان ، جاء اقاربنا ليعززوا القرابة في وقت الشدة . اتفق على عدم اضاعة الوقت بل الذهاب ، في ذلك اليوم ، لمناقشة امر المهر مع المتهم . سأرافق الوفد ، هكذا يفرض العرف .

امي ، اما لانها لا تثق بكفاءة هؤلاء الرجال ليمثلوها أو بتحريض من جدتي ، لم اعرف ، قررت المجيء معنا ايضا حتى هذه النقطة ، كل شيء يبدو يسير وفق المرسوم .

ولا يصغي لنا هؤلاء الرجال البيض عندما نقول لهم انه من الخطأ وضع هؤلاء الرجال العازبين ، في مناطق قريبة جداً من مساكننا ، صدر

هذا عن اكبر الرجال لدى ملاحظته اننا كنا نذهب الى المناطق . تحسبا للمضاعفات ، لم أتطوع بتقديم هذه المعلومة سابقاً : فهناك اسم يطلق على النساء اللواتي يترددن على المناطق .

لقد نبهت متيتيليلي اننا قادمون ؛ كي ينتظرنا . فهو لم يكن ولداً بأي حساب . لكنه لم يكن كبيراً أيضاً . فنحن لم نناقش مسائل مثل العمر لكنني عرفت انه كان فخورا برفقة ، عذراء ، جميلة . واحببت تفاخره بعمري الفتي . اعتقدت أن ذلك يعني أنه لن يتخلى عني . أوه ، ربمانعم ، ربما كنت فتية ، لكنني رأيت من الحياة وسمعت عنها مايكفي لأعرف ان الرجال يسأمون من النساء . لذلك ، اعتبرت أن من مصلحتي انني كنت فتية بما يكفي ليحب فتوتي .

زيارة نيترج ممتعة من بعض النواحي ، وكئيبة من نواحي اخرى وكل ما اذكره من وجه المراة التي فتحت لنا الباب الذي قرعناه هو قدم الغراب المحفوره حول عينيها . شعرها وخطه الشيب ؛ لف دون ترتيب وعقص على شكل كعكة عند قذالها . أتذكر انني اخذت الى غرفة داخلية، غرفة نوم على مااعتقد ، رغم اني لا اعرف ، مادفعني لذلك الاعتقاد . اتذكر كالخيال منظر بعض الأثاث في الغرفة عندما اغمض عيني الآن واحاول تخيلها ، يغيم مشهد الغرفة ، فارغة إلا من امراة عبلاء مترهلة الجلد مثل مصارع هرم .

ولا اتذكر إن كلمتني بالانكليزية او الأفريكانية ــ في الواقع ، هل قالت أي شيء البتة او هل قامت بأية إيماءات ؛ تشير إلى وتظهر ماعلي فعله ؟ هل تبسمت ؟ عبست ؟ أم كان وجهها خالٍ من اي تعبير ؟ أيا يكن السبب فكل هذه الأشياء إنمحت من ذهني .

ما اذكره لم يدعني اتذكر البتة . من جهة اخرى ، ماقد نسيته ، نسيته بسرعة مذهلة : خلال أسبوع ، وانتسى كله . علاوة على ذلك ، بقي في أمان بعيداً . لم يلازمني . ولذلك ، انا ممتنة جداً .

مالازمني بعنــاد ، كالوباء او كسن عفن ، تلك الأحاسيس التي انحفرت في قلبي ، عميقا .

فرشت صحيفة على الارضية ، كنا وحدنا في الغرفة ، أمي وسيدتها بقينا في الغرفة الخارجية . اتذكر قدر ماء نقي ، ماء صابوني . غطست يديها فيه . بعدئذٍ جعلتني افتح ساقي . عن آخرهما .

لامستني يد رطبة . دافئة . اتذكر تفكيري ، لا بد ، لأن الماء في القدر ساخن . ادخلت فيَّ شيئاً بارداً ، املساً ، زلقا . رغم انه انــه اصغر كثيرا من قضيب ولد فقد وخزني ، لثانية فقط . بعدئذ باردا وقاسيا انزلق داخلي . داخلي عميقا . قوست ظهري ؛ متوقعة الألم . اغمضت عيني بقوة كبطلينوس(*) تالف . اسمع صريف اسناني . رائحة محيرة دخلت منخري بهبات لطيفة .

أهذا كل شيء ؟ بدات اتساءل . بدات استرخي ؛ الألم المتوقع لم يقع . بدات أعتقد ان هذه إحدى تلك الحالات ، حيث تضاعف الذاكرة الجمعية التجربة . لابد أنني سمعت قصصاً مبالغاً فيها ، اقص لنفسي ، قصصا بعيدة عن الحقيقة . جاء التصحيح سريعاً ، قاسياً ولاذعاً ؛ هازئا بذاكرة عرقي .

لا بد أن هذا ما تشعر بــه عندما تبتلع وقوداً وتضــع عود ثقاب مشتعلاً في فمك . احشــائي تتقد . نار متاججة تدفــع وتنفخ كل شيء داخلي وتدفعه عاليا حتى شعرت بطني ينفجر . أتلوى ؛ أعن . الدموع تغسل وجهي . أصبحت جمرة متقدة . اللهب يصهرني من الداخل ، يملؤني وهو ينتشر أعلى واسفل وخارجا .

ممتلئة ــ رعباً شق الصراخ اذنيَّ الملتهبتين ــ صراخ امراة مجنونة ؟ او ، امراة محتضرة ؟

(*) نوع من الرخويات الصدفية .

اعطتني المـراة حبّـة . بعـد ذلـك نادت عـلى المراتين اللتين احضرتاني . بينما امي تساعدني في الوصول الى السيارة ، مدت سيدتها اللطيفة يدها الى جزدانها . هل كانت النقود التي تدفعها ستخصم من اجر والدتي ، هذا ما لا اعرفه . ولا يهمني . في تلك اللحظة ، كنت أشك انني سأهتم بأي شيء آخر ثانية . كنت واثقة انني على وشك الاحتضار . ساقاي تؤكدان هذا ؛ لقد ماتتا كليا . لا أستطيع الشعور بهما . لكن طن الرصاص الذي كان وزنهما حينها باطأ مشيتي ؛ ذلك ، ما أشعر به . الثقل الكريه جعل مسافة الاثني عشر مترا على الأغلب ، رحلة تعذيب . اشعر وكأن قوة شيطانية ما قد حلت في جسدي والآن ، مع كل خطوة اخطوها ، تعيدني خطوتين الى الوراء . بعد قرن ، وصلنا السيارة .

وحدي في المقعـد الخلفي ، امي تجلس في المقعـد الأمامي بجانب السيدة ويلكنز . انا متمددة على طول المقعد الخلفي ، العريض ليتّسع لثلاثـة اشخاص . عمودي الفقري ، ايضـا ، قـد مات . لا أستطيع الجلوس . بطني ، فخـذاي ، وكل عضو آخر في جسـدي ، كل شيء يشتعل .

وصلنا البيت ، بسرعة ، لم يحل الظلام بعد . « تمضي منتصبة وامشي مشدودة القامة . » نعيش فزعين من السنة جيراننا النشيطة . لا ترغب امي باعطائهم مبرراً لذلك . لا تريدهم أن يغتابوني . إنها عضو في جمعية الأم الكاثوليكية ، عضو بارز . وفضيحة ستدمر سمعتها .

في وقت متاخر من تلك الليلة ، نقلتني سيارة إسعاف الى مشفى بنينسولا . فيما بعد في نفس الليلة ، وتحت اشراف الأطباء ، فقدت طفلي ، دمي .

في ذلك اليوم اللص ! فقدت طفلي . للأبد . فقدت معه ، أيضاً ، جزءاً خاصاً من حياتي كامراة . ليس لانني ، بعد عدة سنوات لاحقة ، ساعرف انني لن احبل ثانية . لا . ليس لأنني ساكون عاجزة عن ممارسة

الجنس والاستمتاع به ، بل لأنه حالما يلجني قضيب رجل يثير ذكرى ما ولجني منذ سنوات خلت . لا . ولا هو سرّي ، قاتل ومخيف . السر الذي أخافه سيتفجر ذات يوم ؛ مفسراً حبي لتحميم الأطفـال ــ خصوصاً الصغار . ليس ذلك ما يلازمني .

تعرف صديقاتي ان بوسعهن الإتكال عليّ للإعتناء باطفالهن عندما لا أكون في العمل . نعم ، عدت الى المدرسة ، فيما بعد . الفضل لسو ، داعية المساواة . فقد دفعت تكاليف دراستي وأنا اليوم قابلة قانونية .

لكنها لا تستطيع في الواقع أن تشتري لي ما فقدته في ذلك اليوم حين اخذتني الى نيترج . لا أحد يستطيع . ولا شيء يستطيع إعـادة البراءة التي فقدتها في ذلك اليوم ، حيث كان يفترض ان يدفع متيتيليلي مهري ويتخذني زوجته .

قبل خمسة عشر عامـاً ، متيتيليلي ، في السادسـة عشر تقريباً حينها ، جاء الى كيب تاون كعامل مهاجر .

امي ايضاً لم تعد هي منذ ذلك الأحد الذي ذهبنا فيه الى المناطق للحصول على المهر من والد الطفل الذي احمله ، يوم رات امي متيتيليلي وعرفت فيه والدي .

هكذا ، بعد ذلك اليوم بثلاثة اسابيع ، ذهبت الى نيترج . كان أحد الفصح وكنت حينها في الرابعة عشرة تقريباً .

* * *

مادلومو

أول مرة رأيتهـــا ، بـــدت عجوزاً ، عجوزاً هرمـــة . عجوزاً ... ومريضة ربما ؟ لشيء يتعلق بجلستها . لشيء يتعلق بالكرسي الذي كانت تجلس عليه . أو ، أكان منظرها وكأنها نبتت من الرمل ، جالسة بسكون مطبق لدرجة انك تشك انها تتنفس ؟

كنّا قد انتقلنا مؤخراً الى (نيويورك ٧٢) وكنت واقفة بالبـــاب أجيل النظر خارجاً . عبر الشارع وبزاوية منحرفة عن بيتنا يوجـــد منزلان خاصان . خارج احد هذين المنزلين كانت تجلس ذاوية على كرسي يبدو مضعضعاً . كتفاها المدوران المحنيان وكأنهما تحت ثقل هائل . اتذكر انني تساءلت لماذا لا تخلع ذلك المعطف الكبير جداً ؟ مفكرة ، لماذا، في الواقع ، تلبس معطفاً من الأصل ؟ مفكرة ، ألن ينقلب ذلك الشيء الذي تجلس عليه ؟

نعم ، اعتقد هو ذاك . الذي لفت انتباهي إليها . في صباح مشرق صاحٍ ، في عزّ صيف كيب تاون ، والسماء بيضاء من الوهج حتى في تلك الساعة المبكرة ، كانت تلبس معطفا . معطفاً يبدو ثقيلا . معطف ، بني حائل اللون حتى في الشتاء لن يبدو ملائماً . فشتاؤنا المتوسطي لا يحتاج لهكذا ثياب واقية . إنه معتدل جداً ولا يحتاج لثياب شتوية ثقيلة .

بعدئذ ، بعدما استوعب عقلي المشهد ، لاحظت انها لم تكن تجلس على كرسي بل على تنكة بارافين عتيقة : تنكة معطوبة ، صدئة ، وواضح انها فارغة . ومن الانبعاجات التي تحملها يمكن الحكم انها شهدت أياماً

افضل : فهي مليئة بالندوب ، والجروح ، والنتوءات والتحديات هنا وهناك . منحنية حتى تحت ثقلها الخفيف ، فقد انفرست مائلة في الرمل وجثت مائلة ، مضفية تشويها على جلسة المراة ؛ إطارها العام لا يختلف عن منظر الاحدب . ولحماية قدميها ، يُرى ورق مقوى تحت معطفها الكبير .

هناك شيء آسر في هذه الهيئة الوحيدة ، المنتصبة بسكون في رمل البحر . والغناء من حولها مليء بنفايات رُميّت كيفما اتفق : علب عتيقة، قوارير فارغة ، اسمال ، قصاصات ورق ، عظام ، بقايا وجبات قديمة . الشيء المعتاد الذي يتوقع المرء أن يجده في ساحة جوجوليتية غير مسيّجة كساحات الأحياء الفقيرة ان العالم هناك غير محمي ، ومثلها لا يحمي . حتى لون الرمل ــ الداكن لا يدعي اي افتراض انها كانت بيضاء قط . الالف عمل وعمل التي تنتظرني اعادتني بسرعة الى داخل المنزل ولبعض الوقت نسيتها كلياً . بين وضع الأشياء حيث شعرت أنها يجب أن توضع في البيت الجديد ، محاولة جعل البيت الذي يبدو كئيباً كجوجولتيو ، مختلفاً ، أسدُّ فم طفلي الصخاب بثديي ، وأحضّر الطعام للأولاد الآخرين الذين سيعودون من المدرسة ، كان هناك فسحة صغيرة للحلم .

في مستهل ، مساء نفس اليوم عندما سمعت قرعاً على الباب تبعه ، « انا مادلومو أيمكنني الدخول ؟ » ادخلي ، قلت لها واتجهت الى الغرفة الأمامية . كانت امراة الكرسي واقفة بالباب المفتوح .

بجفلة ، رايت انها ليست عجوزاً . ربما في منتصف العمر ، لكنها ليست عجوزاً على وجه التحديد . نحيفة الى درجة الهزال أيضاً ، هذا ما لاحظته .

« ادخلي ! ادخلي ! » قلت لها عندما سيطرت على لساني . خطت داخلة ، لأنها كانت واقفة بالباب تنتظرني لأدعوها للدخول . اشرت لها

الى كرسي ، وللمرة الثانية في ذلك اليوم ، وجدت نفسي مذهولة بهذه المـراة .

في مشيتها شيء فخيم . تشد قدميها منتصبة ، مشت ببطء وحذر وكانها تحمل سلة بيض نيء ّ على راسها الطويل الملتفع . وصلت الى الكرسي ، وبحذر شديد ، جلست عليه .

بصوت ابح ّ ، خفيض ومضبوط ، صوت مغن ّ ، اخبرتني انهـا مادلومو تسكن عبر الشـارع . اخبرتها انني رايتهـا تجلس خارجاً في الصباح الباكر .

إذن فانت لم تخرجي منذ الصباح ؟ فانا اجلس خارجاً طول النهار ، ليس في الصباح فحسب .

ربما ارتسم الحسد الذي شعرت بـه تجاه هـذه الحرية على حاجبي ّ . لكن بعـد صمت قصير اضـافت مادلومو ، « تعرفين إنـه السـل . »

مندهشة ، رايت جمالاً يشرق عبر الوجه ــ المريض ــ المحيّر . جمـال حقيقي غير مزوّق . تمتلك مادلومو الوجه الأكثر صفاءً الذي رايته في حياتي ؛ وحتى بعد عـدة سنوات ، بقي ذلك الوجـه الجميل المشوب ــ بالحزن يلازمني . ملامحه الكئيبة المبرية لم تستطع أن تخفي تناسق عظامه الكلاسيكي . وجنتان عاليتان متوجتان بعينين مشرقتين مسكونتين ببراءة لا ترى إلا في عيني وليد ــ حديث أو مجنون .

في الأيام التالية كان علي التأكد ، بنفسي ، مما اخبرتني عن يومها . كمتقاعدة غنيّة تسافر الى المناخات الدافئة عند أولى تباشير الشتاء ، كانت مادلومو تسرع الى المناطق المشمسة أكثر في فناء بيتها . مهما يكن ، كان تجولها الخاص معلماً على الوجـه الدائري البارد لساعتها المنبّه

المثبتة على فورميكا خزانة مطبخها . وكانت مختصرة ؛ تلاحق بعضها بعضا بسرعة غير مستحية . كرسيها تلعب لعبة الحجلة مع آشعة الشمس . تنط من بقعة مشمسة الى اخرى ؛ مدفوعة بالبرد ، الطويل ، القارس المتزايد في بيتها الذي تهرب منه ـ الظل القاسي الذي ترسمه نفس الشمس التي تطاردها ، يومها ، في الواقع ، كان دورانا في دوامة مدوّخة ؛ حركة بطيئة لتحصيل ـ ما يمكن ، تحصيله .

تنهض مع أول رنة منبّه عندما ينهض زوجها . تخرج عندما يخرج الى العمل فتذهب الى جلسات الشمس ـ المضادة للسل ، يغادران البيت معا ، يسيران حتى يصلا المفرق حيث تتقاطع نيويورك (١) ونيويورك (٣) . هناك ينعطف شمالا شاقا طريقه الى محطة القطار بينما تكمل هي مباشرة الى نيويورك (١) ، متجاوزه نيويورك (٥٠) حيث تنتصب تشيبل ستريت ميثوديست تشيرش ، حتى تصل زاوية نيويورك (٣) لفة مباشرة توصلها الى جلستها العلاجية .

عندما يستيقظ الناس تكون مادلومو جالسة على كرسيها ، تنكة البارافين الفارغة المقلوبة راسا على عقب واضعة عليها اية اثمال أو جرائد تقع تحت يدها في ذلك اليوم .

مع السنين عَرِفتُ مادلومو جيداً .

ذكية ، مراوغة ساحرة فاتنة ؛ أصبحت زائرة مواظبة لبيتي . ومع مرور الوقت كوّنت عنها صورة ، عن ماضٍ قليلون يستطيعون تخمينه .

قابلت زوجها ، طولو ، منذ خمسة عشر عاما قبل أن أصبح جارتهما . أنجبا ولدين وبنتاً . الولدان في المدرسة الآن ؛ البنت الصغيرة ، مازالت في الخامسة ، امامها عامان قبل الذهاب الى المدرسة .

تقابلا في كيب تاون حيث ذهبا طلباً للعمل ؛ هي ، في محاولة للهروب من فقر غرافرينت لوكيشن حيث فرصة العمل الوحيدة تنحصر في العمل في مزارع البويريين القاسي وكلمة مستخدم كانت تعبيراً ملطفاً عن عقد استخدام . وطولو ؟ بفخر ، ستجيب زوجته غالبا ، « جاء طولو الى كيب تاون سعياً وراء كل شيء سوى إنسانيته . فتلك رضعها من ثدي أمه . لقد غذّاها أهله . لم يكن قد تعلم بعد انها مثار جدال . ذلك درس سيتعلمه في كيب تاون حيث سيجد ، للمرة الأولى في حياته ، أن هناك بشراً غير مقتنعين تماما بإنسانية الشخص الأسود » .

لقد تقابلا ، كلاهما . شابان بعيدان عن مسقط رأسيهما . لم يكن قد أمسك البتة قلماً بين أصابعه ؛ وسوف تعلمه القراءة والكتابة . علمته مسـك القلم وامسكت بيده وهو يتعلم كتابة ا ب ت لأول مرة في حياتـه .

انشغلت مادلومو في الكنيسة وتحول طولو الى المسيحية . قبل أن يتعمّد ، في عمره المقدّر بالخامسة والعشرين ، لم يخض تجربة الدين المؤسساتي . كانت معتقداته أوليّة . كان يعيش في أمان مـع أترابه الرجال ، مع الطبيعة ، ومع قاماتا ، إله أجداده . كان يعامل الآخرين بأفضل مما كانوا يتوقعونه أن يعاملهم .

عندما تقابلا كانت مادلومو قد أصبحت فتاة مدينية ، علّمت طولو مسرات الحياة العصرية . كانت تلعب التنس . تعلمت الرقص في المراقص العامة . وكانت تحب الثيـاب الجميلة . تعلم التأنق كرجل يعيش في مدينة بيض . رغم انه لم يُجدِ التأنق جيدا ، استطاع تعلم الإمسـاك بالمضرب وعرف كيف يحرز الإصابة . واصبح راقصا ماهرا في صالات الرقص باعتراف الجميع .

بعد فترة زمنية مناسبة ، تزوّجا ثمّ انجبا أطفالاً .

مع قدوم الطفل الأول ، كانت مادلومو مستمرة في العمل في بيوت البيض حيث كانت تطبخ وتنظف ، ترعى الأطفال وتغسل الثياب .

« لكن ، بعد فطام الطفل ، وجدنا امراة عجوزاً هنا في الناحية ؛ وهي عجوز ، جداً على العمل في مطابخ النساء البيض ، لتعتني بالطفل . مقابل أجر متفق عليه . يومي الخميس والسبت ، عندما آخذ عطلتي النصف نهارية ، كنت أحضر لرؤيته . كان اسمها سيسا » .

لم يكن طولو محظوظاً . كان بوسعه الحضور فقط عصريات الآحاد القليلة تلك حيث لا يوجد عمل إضافي في أحواض السفن حيث كان يعمل .

هذه العائلة الصغيرة تحتاج كل بنس . طعام الطفل وثيابه وأجر المرأة التي تعتني به ، أيضا ، كل هذه النفقات الجديدة كانت تفرض نفسها .

بقي الزوجان ، مع ذلك ، يشعران انهما يبليان بلاءً حسنا .

مع قدوم الطفل الثالث ، مهما يكن الأمر ، بدا ببساطة أن لا معنى لعمل مادلومو ، بعدها .

« الفتات الذي كنت اتقاضاه شهريا كخادمة منزلية بالكاد يكفي المرأة العجوز التي تعتني بالأطفال . ولم يشمل بالتأكيد إطعامهم ، ثيابهم ، والرعاية الطبية التي يحتاجونها . بعد النظر في مشكلتنا ، النظر إليها من هذه الزاوية وتلك ، قررنا طولو وأنا أنه يجب أن أبقى في البيت مع الأطفال . ولن يكتفي طولو بالعمل الإضافي الذي يمكنه الحصول عليه بل سيحاول القيام بأعمال جنائنية كلما أمكنه ذلك . » حزن مستخدمو مادلومو لمغادرتها لهم : « نحن آسفون حقاً ، شيلا ، » قالت سيدتها ، « لقد عملت عندنا فترة طويلة وسنفتقدك . »

تقديراً لخدمتها لهم دون تذمر لأكثر من عشر سنوات اهداها آل جرين سترة صوف بيضاء طويلة ؛ آخذين بالحسبان دون شك حبها

للتنس . ووعدوا أيضاً إخبار أصدقائهم بحاجة جون للعمل الجنائني . كانت خطة مسهبة عديمة النفع ، لأن آل جرين يعرفون أن شيلا لا تملك تلفوناً . لا يوجد تلفون في جوجوليتو .

في يومها الأخير في العمل ، وضعت أشياءها في حقائب بلاستيكية وانحشرت وإياها في سيارة العائلة والسيدة جرين بنفسها ساقت بها الى المحطة حيث تستطيع ركوب الباص الى الناحية الأفريقية جوجوليتو . غادرت قبل عودة أطفال آل جرين من المدرسة . اعتبر أنه من الأفضل تجنيبهم الصدمة النفسية جراء وداع « دادتهم » التي كانت « جزءاً لا يتجزأ من العائلة . »

اوصلتني السيدة جرين الى محطة كليرمونت ، دارت بسيارتها دورة غير مغلقة ، « وداعاً شيلا ! » قالت وانطلقت بعيداً ويدها النحيلة تلوّح من نافذة السيارة التي تبتعد مسرعة .

أنا ؟ اضطررت لشق طريقي الى الباص ، وعندما وصل الموقف الذي أقصده ، دفعت بمنكبيّ أشق طريقي للنزول منه . أقول لك كان الباص مكتظاً ، فالباصات مكتظة دائماً . إضافة الى ، هذا اليوم كانت مهمتي أصعب قليلا من المعتاد بسبب الحقائب الثقيلة التي كنت أحملها. ثم ، الا تعرفين ، بعضهم ، طبعاً ، يتقيأ على أرضية الباص .

بعد ظهر نفس اليوم ذهبت لإحضار الأطفال وفيما بعد في تلك الليلة عاد طولو الى المنزل . كانت اول مرة منذ زواجهما يقضيان ليلة كاملة تحت سقف ليس في الفناء الخلفي لبيت عائلة بيضاء . كان قد مضى اثنا عشر عاماً على زواجهما ولديهما أولاد أعمارهم اثنا عشر عاماً ، تسعة أعوام ، وخمسة .

« بعد ذلك اصبحت ، أنا ، الكلب الذي ترينه اليوم . » مع مرور الزمن عرفت مزاجها المتقلب . هنا الاعتراف وضّح أن ليس لديها

نقود . ليست شحاذة ، كانت مادلومو تغسل الثياب أو تكويها ، تنظف المنزل أو تعتني بالأطفال حينما اخرج أنا لأمر ما . كانت دائمة موسوسة في اي عمل تؤديه ، لكن حالما تستقر النقود في راحتها تنطلق مباشرة الى اقرب حانة غير مرخص بها .

« توفيت والدتي ، ولم استطع حضور جنازتها . ارسلت بعض النقود مساهمـة في نفقات الجنازة . بعدئذٍ توفيَ والدي ، ولم امتلك حينها حتى على خمس راندات تافهة لأرسلها الى اهلي . » حتى ذلك اليوم لم تكن قد شربت قطرة كحول . لكن البركان سينفجر ، لافظاً كل القصص اللاذعة عن محاولات الاقتصاد في الإنفاق ، المحاولات التي كانت تتخبَطُ بانتظام ؛ فالدخل والإنفاق عسير جمعهما ، خصمان ، ويرفضان اللقاء بصراحة .

كان زوجها ، قالت ، يبذل جهده . لكن اؤلئك البويريّون الكلاب لا يدفعون لنـا ما يكفي . يمصـون دَمَنا ، ذلك كل شيء . يمصـون دَمَنا . » عندما تعاني مشكلة في التهوية ، تظهر على وجهها نظرة ذهول ، وبحذر ، تخلع معطفها وترميه بلطف ، المعطف الذي لم ارها بدونه مهما كانت درجـة الحرارة ، فوق كتفيها . طويـلة ، منتصبة مثـل قصب المزيمڤوبو ، على النهر الذي يستحم ملك الامامبوندو المغرور بمياهه ، وتلعن : « ربا ! » ويتلو هذه الشتيمة إعلانا انهـا من عشيرة دلومو ، إحدى العشائر الملكية لشعب الهكسوس . وهنـا ، تتبختر « الأميرة » ماشية الهوينى تبدو كأنها غير عائبة بالعالم .

طولو لا يشرب الكحول . لا يدخن . مثل معظم المهتدين الجدد ، كان اكثر إنجليكانية من المراة التي أدخلته الى الكنيسة . رجل هادىء ، لم اسمع صوته يرتفع مرة واحدة : لا على اولاده ، ولا على جيرانه ، ولا على زوجتـه . والشي الأخير كان الأكثر إدهاشـا : ذلك النوع من التسامح الزوجي ــ من جهته ــ كان نادراً في جوجوليتو .

« لقد علّمت ذلك الأميّ . » ذلك التعليق ، في مناسبات نادرة ، كان يعني أنها توسلت زوجها عبثاً ورفض أن يعطيها نقوداً لشراء مشروب . « ماذا انال منه أيضاً ؟ » قالت لي مادلومو شاعرة انها لم تقابَلْ بما تستحق .

بتعجرف ، ادعت، « لماذا سانجب اطفالاً آخرين ما دمنا عاجزين عن اود الثلاثة الذين لدينا ؟ » وكأنها لم تخرج مع طولو ومع رجال آخرين قبله ، دون ان يترتب عليه إنجاب طفل .

لم يهدأ سعال مادلومو طيلة زمن معرفتي بها . في الواقع ، في عدة نواحي ، كانت حالتها الصحية تسوء . كنت أعتقد أنه مهما كانت وسوستها بالتزام العلاج صحيحة فقد ابطلها إدمانها العنيد الموازي على الكحول .

شعرها تساقط ، في أجمات رمادية ، قبل الأوان . جلدها الذي ، رغم انه كان قد بدات تجاعيده عندما رأيتها ما زال يحمل الكثير من آثار لدانته الطبيعية ولونه نحاسي ملطخ ، استحال الى لون أرض قاحلة في موسم الجفاف : محمصة ، بنية حائلة . تقشّرُ ؛ بقع بثور سوداء ناتئة كالفطر على كامل رغيف خبز بيتي الصنع . حتى ذراعيها وساقيها يعانيان من آلام مستمرة . لقد تقلصت اكثر بكثير من حجم عظام هيكلها. روحها فقط سلمت من الأذى .

« لديه واحدة ما ، » قالت مادلومو ذات يوم . ويجب الا اطلب تفسيراً . فهمت أن زوجها قد اتخذ امراة أخرى . لفترة كان طولو يتسلل مساءً ويعود في ساعات الصباح الأولى . « يفعل ذلك من أجل الأولاد ، » قالت زوجته . « لا يريدهم أن يعرفوا . » أحترم هكذا اعتباراً لأولاد المرء . نعم ، فكرت لنفسي ، إن طولو رجل يعرف كيف يدبّر اموره . لا حاجة لأذيّة الأولاد . دعهم يعيشوا طفولتهم .

لكن ، لا اعرف إن كان بسبب كلفة الإنفاق على بيتين أو ان كانت المراة الاخرى قد سئمت من كونها زوجة في الظل ، لكن بعد فترة انتقلت هذه المراة للعيش في بيت طولو الذي كان بيت مادلومو ايضا .

تلا ذلك نقاش كبير في الناحية . عقدت لجنة شارع نيويورك (٧٢) اجتماعا . كان هناك اولئك الذين اتهموا طولوا بارتكاب الزنى . بعضهم من ناحية ثانية، دافع بأن طولو رجل بالغ ومؤهل ليشارك امرأة في فراشه وبما أن زوجته الاتستطيع ، بسبب مرضها ، أن تكون زوجة في ذلك المعنى ، فماذا يتوقع من المسكين فعله ؟

مادلومو هي التي حَسَمت كل ذلك النقاش ــ حضرت أمام اللجنة وترافعت عن زوجها . وتعرفون ، قالت ، وكثير مــن الــرجال كانوا سيرمونني في الشارع ؟ هز أصحاب اللحى البيضاء رؤوسهم بقــوة ، باتفــاق تــــام .

طولو من جهت أخرى ، تابت مادلومو ، ولم يسمح لي فحسب البقاء في البيت حيث لا أدفع إيجاراً ، بل وقدم لي الطعام ، ومن حين لآخر ... ، وهنا اوقفتها نوبة سعال مريبة وكان في عينيها بريق ،وهي تتابع لتقول ان طولو تجرا احياناً واعطاها بعض النقود . قوقا العديد في ذلك الاجتماع بضحك صريح ، مدركين الاسباب التي تجعل اي واحد غير متحمس لإعطائها نقودا . لم يكن سراً انها مسرفة في الشراب . وهكذا، عاش طولو مع المراتين وأولادهما ، لأن ماندابا أنجبت طفلين في ظــر ف عامين . بنتين .

كان أولاد مادلومو في هذا الوقت مراهقين . وولدين وسيمين ايضا، ومهذبين . اختهما ، رغم أنها ورثت ملامح ابيها الصارمة الرشيقة ، كانت كانت تتحلى بخفة دم وحيوية ورثتهما من امها .

في الأمسيات الطويلة ، كانت مادلومو تمتعنا بتعداد فضائل ان تكون الزوجة الأولى . فالزوجة الشابة تقوم بكل الأعمال المنزلية ، كما عبرت

عنها الأميرة ، بذكاء : وهي التي تحصل على العسل ليلا ؛ فيجب أن تتعرق نهاراً ؛ وإذا في مناسبة نادرة تحداها مغفل ماأوشك في تلك الحقيقة البديهية ، كانت مادلومو تشد جذعها العلوي والازدراء في كل ملامح وجهها الشبيه بجلد الضفدع ، ببساطة ، لأنني فعلت ذلك طيلة سنين ؛ وترمي برأسها إلى الوراء وتضحك : هــا ــ هاهــا ! أية مجنونة كنت ؛ مع ذلك ، حتى وهي تقول ذلك ، تبقى عيناها ترقصان ؛ لايغادر المرح عينيها البتة .

لقد كانت امرأة مرحة لدرجة انني نسيت انها تملك غددا دمعية . لكن ، حتى يوم اموت ، لن انسى البتة يوم رأيتها تبكي .

وامي ترجوك أن تحضري حالاً ! قالت ابنة مادلومو ، ڤويو ، التي دخلت البيت ذات بعد ظهر دون أن تقرع الباب . ذلك فقط أو لسوء الذي يمكن أن يُحتَسَب على سلوك الطفــل : انها دخلت دون أن تقرع الباب ولم تحيني أو تخاطبني كما يقتضي العرف خرجت فوراً ولم انتبه انني لم اغطِ راسي حتى شعرت الهواء البارد يتغلغل في شعري فخطفت سترة ڤويو عنها ووضعتها على راسي .

كانت مادلومو مستلقية في الفراش في الغرفة الامامية . لاول مرة مذ عرفت مادلومو اراها في الفراش . وجهها في مواجهة الحائط وكانت متكورة على نفسها ؛ ركبتاها تضمان ذقنها .

وماما ، قالت ڤويو بصوت امومي ، وماما جاءت ماخيسوا ، كانت تربّت بلطف حيث يفترض أن يكون الكتفان بينما كنت أقف هناك بردانة حتى التجمد بسبب الحزن المطلق الذي لفّني جرّاء رؤية مادلومو تبدو مريضة لهــذه الدرجــة .

عندما بقيت ساكنة غامرت بتحيتها تحيّة مهدّئة : « اراك تشعرين بتحسن حقيقي اليوم . حسن ، ها قد جئت ؛ كما طلبت أنت » .

بقيت ساكنة . اقتربت من الفراش ملاحظة ، الآن ، أنه ليس امامي إلا ان ارفع البطانية عنها واستطلع الامر . ومادلومو ، همست ، رغم أن

ڤويو قد خرجت وكنا وحدنا في الغرفة ، وما الخطب ؟ ثانية ، اجابني ، الصمت ، وهكــذا تابعت ، هيه ، دعيني اركَ ؛ اقتربت من الفراش ورفعت البطانية عن راسها .

جحظت إحدى عينيها كعين ضفدع أمريكي . وما زالت تجحظ . في ظرف يوم او يومين ستصبح صاحبة ملك الكواكب ؛ وتساءلت فيما إن كانت العين ستسوء باستمرار . عصابة بيضاء غير انيقة لفّت لفاً خفيفاً حول راسها مثل عصابة التعرّق . حتى عندما لاحظت ، نقطاً حمراء رشحت وتحولت الى عُيَينات واتصلت العُيَنيات مع بعضها واصبحت زهيرات . رطّبت وبقيت ترطّب ، وتصبغ بالأحمر البياض حول راسها .

« يا إلهي ! » قلت لا إرادياً ، « ماذا حدث لك ؟ »

اجابتني ، والدموع تنهمر من عينها الاخرى ؛ العين القادرة على ذرف الدموع :

« تلك الشمطاء ، زوجة طولو ؛ ضربتني . »

حتى وانا انظر إليهــا كانت العين المتورمــة تزداد تورّماً ؛ حمرة غاضبة تنافس أخضر بنفسجياً على السيادة . نزّ منها سائلٌ سميكٌ مقتفياً طريقاً متعرجة نازلة خدها المخطط .

« تلك التافهة ... تلك التي لا تستطيع حتى كتابة اسمها ... تلك التافهة وضعت يدها القذرة علي ، ضربتني ! »

وقع المحتوم . مادلومو وماندابا قد تشاجرتا ؛ لسبب تافه . كما ستقول كلتاهما فيما بعد .

الزوجة الجديدة دفعت مادلومو ، والأخير اضعف من أن تمنـــع نفسها من السقوط ، فسبحت مباشرة الى زاوية « الويلكم دوفر » ، مدفأة الفحم ــ والحطب . فنالت جرحاً بليغاً في رأسها . وفي الزاويـــة الوحشية لعينها ليسرى انفرزت إحدى نهايتي مسكة باب المدفأة .

جارتنا التي تعمل ممرضة عنـــد طبيب فعلت ما يسعها فعله . رفضت مادلومو كلياً الذهاب الى المشفى . ومنذئذٍ ، أيضاً ، رفضت مادلومو الطعام . ولم تنفع معها أيـــة ملاطفـــة ، ولا تهديـــد ، ولا حتى الرشوات الصغيرة .

كنت أعتقدت أن من المستحيل أن يزداد تحول مادلومو عما كانت عليه . خلال أسبوعين بكت فيهما موتها وأظهرت لي كم كنت مخطئة . يوميا ، رأيناها تنحل حتى اصبح جلدها مشدودا وشفافاً عند مفاصل عظامها التي ذكرتنا بإيضاحات كتب التشريح .

بعد تلك المرة الأولى عندما أخبرتني مادلومو عن الشجار بينها وبين الزوجة الثانية لم تذكر مادلومو المراة الأخرى : لا بالاسم ولا بالإشارة . منذ ذلك اليوم حتى الممات ، ما كانت لتلومها على حالها . « لم أتزوج امـــراة ، » كانت تجيب على اي ذكر للمصالحـــة مـــع المراة الأخرى . « لا زوجة لدي ، » كانت تضيف وفيما بعد بقيت ترفض المصالحة سمها فعلاً وقولاً ، أو اي شيء ذي علاقة بماندايا .

في كل هذا ، كان طولو كرجل عَلِقَ بين زوجته وأمه : متردداً وغير حاسم . بقدر ما كانت مادلومو عنيدة بقدر ما كان طولو يُظهر عدم الحسم . كان هنا ؛ وكان هناك ؛ كان في كل مكان . ما عدا انه لم ينجز شيئاً قط .

بينما لم يعرف طولو ماذا يفعل او من يلوم على البغض في بيته ، اشاعت مادلومو انها اذلّت ، خُدعت بحب كبير .

« لم أحنث قط بوعد قطعته على نفسي . » ولم تكن بحاجة للتذكير بذلك . بماذا عاهدت نفسها يوم دفعتها ماندابا وآذت نفسها أكثر مما شاهدنا ؟ فقد اتضح سريعاً ، أن جروح جسدها لم تكن ذات شأن تجاه معاناتها الروحية .

اسبوعان ، بقي القلب العظيم قليل الكلام ؛ تعدّ نفسها لحتفها .

« اوياهامب » اومادلومو . المرّة التي تنبأت فيها برحيلها . كانت حالتها يائسة بالنسبة لي على ان استخف بخطورتها .

بعدئذٍ ،ماتت . اقصد رسمياً ، شرعياً ، وفيزيولوجيا . اعتقد احياناً أنها فارقتنا يوم طُلِبَ إليها حمل ، ماكان بالنسبة لها ، يستحيل حمله . اختارت أن تستسلم .

عندما أُعلِنَ موتها أخيراً ، اعتقد ان معظمنا نحن الذين عرفوها كنا مرتاحين جداً لذلك .

وقف هناك ، شبحاً عند القبر . وقف هناك، والعويل الذي صدر من ذلك الشكل الشبيه بالشبح كان يجب أن يوقظ الميت . رُدِمِ القبر، انتهت الجنازة ، لكنه رفض أن يتزحزح . دائراً حول القبر مشى طولو؛ حصانٌ ينشج هازّاً كتفيه وهو ينوح خسارةً عندئذٍ فقط بدات المح عمقها .

بعد أن رحلت « الأميرة » ، قال الجميع ، اصبح طولو رجلاً مختلفاً . لم يكن هدوءه هدوء رجل هرم . يصحبه خواء جديد هذه الأيام . كانت عيناه حمراوين غالباً وقال العديد من الناس انه ما زال يبكي زوجته الراحلة ــ حِمْلٌ ثقيل على الزوجة رقم (٢) .

عند المفـرق ، زاوية نيويـورك (١) ونيويـورك (٣ أ) ، حيث في الصباحات كان طولو ينعطف شمالاً ذاهباً الى محطة القطار بينما تكمل زوجته نازلة شارع نيوويرك (١) في طريقها الى جلساتها العلاجية ؛ ضد السـل ، هناك ، ذات صباح ، دهسه باص وهو في طريقـه الى العمل ، ومات عند المنعطف ذاك .

مات طولو في الذكرى السنوية الأولى لرحيل زوجته .

صغيرتان ومدينة

ليست هذه إحدى حكايا الجن رغم انه ، يجب ان اعترف ، انهـا مليئة بوقائـع ، وأحداث ، ومصادفات ، يصعب تصديقها . لذلك إن كنت تبحث عن التسـليـة ، فتوقف هنا ، واذهب وتسـل بقصة مـن قصص « كان يا ما كان » قصص تنتهي ب « وبعد ذلك عاشا في سعادة دائمـة » .

حدثت منذ زمن ، لكنها ليست قديمة لدرجة أن تنساها الذاكرة. وكان مؤلماً جداً قراري ذاك ، الذي لم اعرف انني اتخذتـه ، بتنحيتها بعيداً ومتابعة حياتي . في النهاية ليست ، في الواقع ، قصتي الحزينـة التي حـدثت في ذلك اليـوم في مكانين مختلفين في كيب تاون « مدينـة هاشتهرت بجمالها » .

كانتا بنتين صغيرتين ، كلتاهما في ربيعها الأول ، الواعد من حياتها. صغيرتان ، بنتان صغيرتان حقاً .

في ذلك اليوم الصيفي المشـرق ، في كيب تاون ، ابهجت الشمس كل الناس شباباً وشيباً . سقطت اشعتها الطويلة القوية على التلال ، الجبال ، والسهل بحيوية واحدة تصب الحرارة وتجعل الثياب تلتصق بالأجساد . في شقق الضواحي ، والأكواخ غير المرخص ببنائها ،والبيوت التي تشكل خطاً فاصلاً مع النواحي كانت الغالبية تفكر في الهروب من حرارة الفرن .

« مامـي ! مامـي ! لنذهب الـى الشاطىء الآن ؛ كانت البنت في السابعة تقريباً تكرر طلبها ذلك للمرة كذا ـ بعد العاشرة في ذلك اليوم. « ارجوك . . . ؟ » عيناها الزرقاوان الكبيرتان مشرقتان . تحيط بهمـا رموش سوداء كثيفة تذكّر بزهر دوار الشمس ، بسبب التناسب الكبير بين كثافة اللون والشكل : دوائر كاملة على الأغلب .

ابتسمت السيدة ڤان نيكيرك ابتسـامة تسامح . « حبيبتي » . قالت « اخوك الصغير بحاجة لطعامه ، تذكري ذلك ؟ نريده أن يكبـر ، اليس كذلك ؟ » وغمزت ابنتها غمزة تآمرية بينما كانت تشعّث شـعر ابنها وهو يقف متأرجحاً في عربة المشي بجانبها .

هزت نينا راسها ، متلألئة عيناها العارفة . شعرت أنها ناضجة ، تساعد والدتها على تربية تيموثي . كانت فتاة كبيرة ، هكذا لن تغتاظ . سيذهبون الى الشاطىء فيما بعد . وتقول أمها ، أن تيموثي الصغير كان بحاجة للنوم كي يكبر ويقوى كفاية ليلعب الركبـي . يمكن أن يصـبح قوفزاً * كما كان جده من امه .

لتشجع تيمي الذي ، مثل كل الاطفال خصوصاً الأولاد يمكن ان يكون صعب المراس ، اعلنت نينا بصوت عالٍ ، « أنا ذاهبة الى غرفتي لأميّل أو يمكن ان انهي الكتاب الذي أقرؤه ؛ بقي لي فيه عدة صفحات . بعدئذٍ يمكننا الذهاب الى المكتبة غداً . إنـه آخـر كتاب يتوجب على قراءته . » اياً يكن ، عندما ذهبت أمها بعد عدة دقائق لتر ماذا تفعل ، كانت نينا غارقة في النوم .

على بعد اثني عشر كيلو متراً كانت أمّ اخرى ، تحمل طفلهـا على ظهرها في إزار، تتكلم مع بنتها الصغيرة . معركة محتدمة بين أم وابنتها.

---

* التوفز : ظبي جنوب افريقي سريع رشيق القفز

ارادت فوملا خلع كل ملابسها . شيء جديد في كيب تاون ، لم تفهم جيداً ان هذا العالم المختلف يحرم حتى الأطفال من التعري الكامل .

« هارلي ، فوملا! لا تخلعي سروالك الداخلي . وصدارتك أيضاً!» وقد ارتفع صوت امها ، مشددة على اهمية التعليمات .

« لكن ، ماما ، انا احترق من هذه الشمس . » قالت البنت الصغيرة بصوت كسول . مع ذلك ، نقل ردها جرعة توكيد كافية لجعل الأم تبتسم .

شعرت نولونجيل ديانيتي (ام الرحمة / إلهة) بالشفقة على طفلتها. لابد ان الطفلة يقتلها الحر ، فكرت في سريرتها . لكن ماذا يمكنني فعله ؟ لا استطيع ان اعريها هنا بين الرجال . إنه مناف للحشمة ، فهؤلاء ليسوا اقاربها او اناس تربينا معهم . ونحن لسنا في القرية حيث الجميع يعرف بعضهم البعض يعرفون عشيرته ، والديه ، من تزوّج ، ويعرفون اولاده . إننا هنا وسط غرباء ، ناس لا يعرفون فوملا او اباها او امّها . نعم ، إنها طفلة وحسب ... لكننا بين ناس غرباء .

فوملا ، اختها الصغيرة ، نودولي (دول* لانها ولدت صغيرة جداً كالدمية) وانهما كانوا قد وصلوا كيب تاون قبل عدة اسابيع . كانوا يزورون والد فوملا العامل المهاجر الذي يعمل في احواض السفن في كيب تاون . كانت نولونجيل تغذي أملاً بأن تعود الى القرية حاملة في احشائها الطفل الثالث . كانت نودولي قد اتمت عامها الرابع . حان الوقت . هكذا جاءت لتبتضع طفلاً من زوجها . لانه في المرتين الاخيرتين عندما عاد زوجها الى جوجوليتو لم تعلق نطفة فيها . حماتها ، المشهورة بالفظاظة ، بدات تذكرها بانها (جاءت الى هذه العائلة لتزيد نسلها) .

يا إلهي ، كانت تطبخ . الطوب الاحمر لجدران الغرفة التي يتشاركها زوجها مع ثمانية رجال آخرين ذكّرها بالنار . عرفت انها كانت

---

* دول Doll دُمية .

سخيفة لكنهم كانوا يتنفسون حرارة جافة كانت تحس بسفعها وكأنها تجلس امام فرن فاغر الفم . حرارة اكثر تنزل عليهم من اللوح العازل الرمادي الخفيف فوقهم . لا هو سقف ولا هو جص يعمل على حمايتهم من الحر . غرف الرجال العزاب تفتقر للأثاث الأساسي ، غير مريحة .

« هذه اربعون سنتاً . اذهبي الى الدكان واجلبي لنا بيرة جينجر سيدودلا . ستساعدنا على الابتراد قليلاً » .

على حائط الغرفة المقابل تستند طاولة مؤقتة مضعضعة . يرى تحتها ، كونها طاولة دون غطاء ، طاولة او اي شيء يمكن أن يسمى غطاءً ، صف قوارير فارغة مختلفة الأشكال ، الألوان ، والأحجام . أخذت فوملا قارورة فارغة سعة ليتر والنقود التي اعطتها والدتها . في جنوب أفريقيا ، عندما توافق قارورة الليتر نظام القياس المتري تسمى سيدودلا ، لقباً للمراة السمينة . بذراعين بنيتين رفيعتين وساقين تبرزان مثل غصنين من التنورة القطنية الوردية والزرقاء خاطتها نولونجيل خصيصاً من اجل الرحلة الى كيب تاون ، خرجت البنت الصغيرة من الغرفة . كانت تعرف الدكان الذي تقصده . الدكان رقم خمسة عشر . فهم يعطونها عادة « باسيلا » هناك .

برشاقة خرجت البنت من منطقتها ، عبر الفناء غير المعبّد . درب رملي اسود على الاغلب ، تتخلله اجمات عشب هنا وهناك . وصلت نيويورك (١) خلال دقيقتين . توقفت ، قليلاً ، لتتأكد من خلو الطريق من السيارات ، الشاحنات ، أو الباص . آمن . عبرت . تجاوزت المنطقة المفتوحة من خلف الدكاكين ، دائرة حول المنعطف ، ووصلت غايتها . الدكان رقم خمسة عشر ، الدكان الثالث بعد ان تنعطف متجاوزة المنعطف .

لان الوقت كان في بداية بعد الظهر ، لم يكن في الدكان سوى زبونين . خلال عشر دقائق ، كانت تولونجيل وابنتها الكبيرة ترشفان

البيرة المثلجة من كاسيهما : نودولي الصغيرة ، تنام باستغراق . واغمضت فوملا عينيها بقوة ، مطبقة يدها اليسرى بقوة على الباسيلا . في مثل نفس الوقت ، في مكان آخر ومن كؤوس مختلفة ، كانت السيدة ڤان نيكيرك وابناها الإثنان يطفؤون ظمأهم ايضاً . تيموثي يشرب عصير برتقال طازج . اصابعه الغضة لم تعتد بعد على الإمساك بالرضاعة ، فكان يحتاج مساعدة دائمة إما للإمساك بها او لوضع حلمتها في فمه . لكنه كان يرفض بالمطلق ان تمسك امه له الرضاعة ؛ يهز راسه بعنف من جهة الى اخرى ، يزقو ويقبع كخنوص . كانت اخته ترشف بحذر من كاس حليب يهتز في يدها بينما امها تستمتع بكاس شاي مثلج ، كل هذه ماخوذة مباشرة من ثلاجتهم الخاصة .

جلس الثلاثي على الڤيراندا . في بيت يشرف على سفوح جبل تيبل وكولين ڤان نيكيرك ، تجلس على كرسي خيزران بيضاء ، تطل على الامتداد البحري الأزرق . بكسل لكن برضئ تام ، تطلعت الى حصتهم من الشاطىء ، حيث أرادت ان تأخذ الأولاد بسبب الصخور البارزة التي تؤمن ملجأ من الرياح الجنوبية الشرقية العاصفة غالبا والحقل الفسيح الغني المكتشف من قبل نينا . فالطفلة تحب الخوض في المياه الضحلة تجمع الاصداف او ببساطة تحملق مسحورة بالأشياء الصغيرة التي تزحف او تنسل على الرمل او تختبىء فيه ، الطافيات على سطح البرك الدافئة التي يشكلها المد بين الصخور ، او تستقر تحت الصخور . اهتمامها المستحوذ وصبرها اللامحدود جعل والديها يمزحان أن لديهما عالمة احياء بحرية قيد الصنع . « هذا إن لم تنل جائزة نوبل ايضا » ، يقول بييت ڤان نيكيرك ، بمنتهى الجدية . كانت الطفلة مسحورة كليا بالحياة البحرية . كان بوسعها الجلوس ساعات عدة ، ساكنة ، تراقب كائنا بحريا يفعل شيئا ما .

في حلم اليقظة هذا انفجرت عالمة الأحياء البحرية الواعدة : « حسن . حسن . نادي على هيلدا ان تحضر وتساعدني على تيمي » ، اجابت الام

ومدت يدها الى كأس الشاي المثلج الذي نسيته على الطربيزة . كانت تنظر مترددة الى رشفة الشاي الأخيرة عندما ظهرت نينا ، خلفها . ابعدت السيدة فان نيكيرك يدها وقالت :

« هيدأ ، سآخذ الأطفال وننزل للسباحة . إذا تلفن السيد قبل أن نعود قولي له أننا سنعود قبل السادسة . الآن هل يسعك أن تجهزيهما لي ؟ سأذهب لأغيّر ثيابي » .

بعد أن أعطت تعليماتها ، غادرت السيدة فان نيكيرك عارفة أن هيلدا ستتدبر الأمر . إنها في خدمتهما حتى قبل ولادة نينا .

عندما دخلت السيدة البيت ، خرجت الخادمة الى حبل الغسيل الذي ترفرف عليــه أثواب السباحة في الهواء الخفيف بعد السباحة الماضيــة .

« كلا ! لا اريد ذلك . أريد مايوهي البيكيني . لا أحب ذلك المايوه، » قالت نينا . وضعت هيلدا « المايوه » الذي كان مفضلاً منذ وقت قريب، على الطاولة والتفتت الى الطفل ، « مفكرة » . « إيه ، هذا الصغير لا يعرف هذه الترهات بعد ، فلأبدأ به » .

كان تيموثي سهل القياد من جهة أخرى أيضا . بعد أن عرته من ثيابــه غيرت لــه حفاضته ، ألبسته هيلدا شورتاً أحمر ووتر بروف (لا يمتص الماء) . وقبعة ملائمة غطت شعره الأسود .

التفتت الخادمة الآن الى الصغيرة وسألتها ، « امتأكدة الآن انك تريدين البيكيني ؟ » فقد عرفت من خبرتها أن نينا يمكن أن تغير رأيها بعد هكذا تشنج عنيف . في الأسبوع الماضي ، فقط ، هسترت لأن أمها اصرت على إلباسها ثوبها المنشفي فوق مايوه السباحة . عندما تراجعت السيدة غيرت نينا رأيها . حالما شاهدت أباهات يخرج من البيت مرتدياً ثوبه المنشفي .

« طبعاً ، متأكدة . بوسعك أخذ ذلك المايوه لحفيدتك ، تعرفين ؟ لن ألبسه ثانية » .

قبل أن تستطيع هيلدا قول كلمة شكر أو رفض ، اندفعت نينا داخل المنزل تصرخ ، « مامي ، أريد أن أعطي مايوهي الأورانج لحفيدة هيلدا . هذه فتاة دائمة النشـــاط ، فكرت هيلدا لنفسها . صاحت عالياً ، « خذي ، أتريدين مساعدتي » ؟

« طبعاً لا » . ورغم أنها لم تخبط الأرضية بقدمها ، تشكّل انطباع لدى هيلدا أنها قد خبطت الأرضية بقدمها معلنة رفضها للعرض .

سريعـاً ، كان الثلاثة جاهزين ، تيمي في عربة تدفع باليد ، نينا تلبس نظارة بيضاء ، زرقاء متغيّرة اللون ، قبعة بيضاء بواقية حمراء ، والبكيني الأزرق ، الأحمر ، والأبيض الذي أثار غضبها قبل قليل . كل إنش في جسمها الصغير يظهر أثر سنوات من التدريب على الإيروبيك ، تنزل الأم المنحدر حاملة ابنها ، لابســة ثوباً ناصع البياض يزيد من سمرتها الشمسية .

وقفت هيلدا على قمة المرتفع ولوحت لهم ثلاثا مودّعة ، بوجه عارم بالســـعادة .

رغم أن الشارع الذي يفصل الجزء الثاني من جوجوليتو ، مناطق سكان العمال العزاب ، عن بيوت العائلات ، غير عريض ، ربما كان هناك أيضا جدار اسمنتي يمنـــع الاختلاط بين الأطفـــال الذين يعيشون في المنطقتين .

طفلة عامل مهاجر أخرى ، إلين ، نادت على فوملا بحياء لتاتي للعب معها .. لقد جمعت ثلاث علب تنك فارغة ــ علبة مربى ، نيسبراي ، وحليب مكثف ، الأخيرة مبعجة قليلا الله وحده يعرف لأي سبب من بين تلك التي تصادفها هذه العلب المهملة في قفار النواحي حيث تجمع

القمامة ، ومثل كل شيء آخر ، هي مسألة نزوة الآخرين . كانت إلين ترمي كرة ، كرة تينس عتيقة رماها أحدهم من مكان ما منذ زمن بعيداً عن مناطق سكن العمال العزاب . رمت الكرة عالياً في الهواء بقدر ما تستطيع ؛ وتخفق بيديها وهي تركض حيث تتوقع أنها ستسقط . وتابعت بنظرها الكرة وهي في الهواء وهي تسقط . التقطتها ، رمتها ثانية ، منادية ، « فوملا اخرجي لنلعب معاً » .

بعد وقت قصير من بدء هذه الدعوات ، خرجت فوملا من منطقتها راكضة الى صديقتها ، « ماذا سنلعب ؟ ماذا سنلعب ؟ » صاحت ، مبتهجة .

« دري بليكييز » ، اجابت إلين ، جامعة علب التنك .

« دري بليكييز (ثلاث علب) ، كما تقتضي التسمية ، هي لعبة تستخدم هذه الثلاث — ثلاث تنكات صغيرة ، ليست متماثلة الحجم . تتطلب اللعبة الرماية ، براعة يدوية ، وسرعة ، تناسق بصري جيد ، سرعة جري ، والقدرة على المراوغة .

اتفقت البنتان أن تبدا فوملا أولاً . اخذت الكرة ووقفت على مسافة حيث رسمت دائرة بعصا على الرمل تحدد مكان وقوف الرامي .

مسددة بحرص ، رمت فوملا الكرة مباشرة على الكومة المثلثية المؤلفة من العلب الثلاث : علبة النيسبري ، الأكبر قطراً ، الأطول في الأسفل ، فوقها علبة المربى وأصغر الثلاثة ، علبة الحليب المكثف ، تشكل القمة .

رمت الكرة على العلب مرتين ؛ ومرتين فشلت بإصابتها . عرفت فوملا أن هذه ، كانت ، فرصتها الأخيرة . يسمح لكل لاعب بثلاث رميات . ببطء ، ودقة ، متانية ، سددت فوملا . عندما رمت الكرة ، كانت اقل قوة لكنها اكثر دقة مما سبق .

صوت ضرب الكرة للتنكات ترافق تقريباً مع انفصال التنكات عن بعضها البعض ضاربة الأرض حيث قرقعت ، ضاربة تفايات أخرى .

فوملا ، لدى رؤيتها التنكات تتدحرج بعيداً انطلقت مباشرة الى ابعدها . جمعت التنكات وعادت بها حيث كانت سابقا ، مندفعة هناك ، ترتبها كما كانت عندما عادت إلين بالكرة . « ربحت شوطاً ! » صاحت فوملا بانتصار .

لم تربح ثلاثة اشواط . فهذه المرة عادت إلين بالكرة قبل أن تستطيع فوملا ترتيب التنكات الثلاث فوق بعضها . ضربتها إلين بالكرة صائحة « موتي » !

جاء دور إلين ولن تتخلى عن سيطرتها على اللعبة حتى تفوز في اثنتي عشرة مباراة . تلك الحذاقة في المراوغة حيث حتى عندما تباغتها فوملا، الكرة في يدها ، قبل أن تنجح في تجميع التنكات ووضعها فوق بعضها ستنجو إلين من مطاردة المهاجمة بحركة مضبوطة وعندئذ ، بعد أن ترميها فوملا بالكرة ، تنحرف شمالاً أو تنبطح ارضا . او ، ستقفز عاليا بحيث تمر الكرة من تحت قدميها وكأنها ساحرة تركب مكنسة والكرة مجرد شيء تافه يتفق انه في الهواء .

على شاطىء روكلاندز ، رأس بحري ، كانت نينا ايضاً منهمكة في اللعب. حالما وصلوا منطقتهم نصبت كوالن ڤان نيكيرك واقيتها الشمسية، فرشت منشفة السباحة ، ووضعت أشياءهم ـ الصنادل ، النظارات الشمسية ، الأثواب والحقائب ـ على المنشفة كي لا تطيرها الريح ؛ هي نسيم الآن لكنها خبرت كيف يمكن أن يتحول ذلك النسيم الى عاصفة ـ صغيرة هادرة تحمل المنشفة بعيداً .

في الوقت الذي رتبت وضبطت الأم كل شيء كانت البنت الصغيرة تلعب مرحة في الأمواج المتكسرة على الشاطىء .

انضمت كولن الى طفلتها . « كيف الماء ؟ » سألت وراحت تختبرها بأصابع قدمها اليسرى . وتيموثي الصغير الذي تحمله بين ذراعيها ، كان يتلوى ويتملص ، متعجلاً للارتماء في أحضان الأمواج واللعب كيفما يـريـد .

« كانت الماء ممتازة . هل يمكنني التوغل الآن ؟ » كانت القاعدة الا تتوغل نينا في البحر ما لم يكن احـد الراشدين يراقبها . « مَه ، انطلقي ، حبيبتي ، سأقف هنا مع أخيك » .

نينا ، سباحة متمكنة ، توغلت عدة أمتار ، استدارت ، لوّحت لأمها ، وسبحت عائدة بقوة . لعبت قليلا مع تيموثي ، وبعدئذ ارتمت . منبطحة ، على الرمل .

بعد عدة سباحات وعودات لتراقب أخاها تحت الواقية الشمسية بينما تسبح أمها ، ارادت نينا البحث عن بعض الأصداف « النادرة » . اية صدَفة لم ترها من قبل ، اعتبرتها البنت ، صدَفة نادرة .

رات الأم بنتها تخطو مبتعدة ، مصادفة . تساءلت : كم ضجرت بسرعة الشيء الذي يغضبني منها . لم تأت الى هنا من أجل السباحة ، تحديداً . تبسمت فان نيكيرك ناظرة الى ابنتها الصغيرة الفارعة وهي تغيب بين الصدوع وخلف الزوايا مبتعدة كثيراً عن طفلها . فكرت الأم : نعم ، لاباس ، إنها ابنـة بيت ـ بيت فان نيكيرك أمضى كل دقيقة استطاع توفيرها من برنامج عمله التدريسي في مشفى جروت سكهور على الشاطىء . صيفا ، شتاء ، واي وقت إضافي .

تباعد الحشد ، بسهولة استطاعت أن ترى نينا تشق طريقها بين واقيات الشمس المزروعة على الشاطىء .

توقفت نينا قرب واقيتهم . لتأخذ دلوها او لتترك صندلها ، فكرت الام مراقبة ابنتها تنهض ثانية . لكن هذه المرة ، مشت نينا في الاتجاه

المعاكس للذي تجلس فيه كولن ، تراقب ثيموني الصغير يطارد الامواج التي تتكسر على الرمل البارد ، الرطب .

ضجرت أيضاً رفيقتنا اللعب في الدري بليكيي . اللعبة غير متكافئة ، تعبت فوملا من اللحاق بمنافستها . كانت تتصبب عرقا من اللحاق بالكرة ، من مطاردة الين التي تركض مثل فرس سباق ، وتحاول التملص من ضربات منافستها القاتلة .

لحسن حظ هذا الثنائي ، جاءت نوماليزو ، بنت اخرى من بنات المناطق السكنية ، للعب . تحمل في يدها حبلا . هكذا قررت البنات الثلاث أن يلعبن « النطة »* ، صاحبة الحبل تقفز أولا البنتان الاخريان تؤرجحان الحبل .

شي بندا ،

شي بندا ،

شي كليب ،

شي كليب ،

شي اومدري ،

شي اومدري ،

شي سيت

شي سيت

شي ليهي !

شي ليهي !

(*) نطة : هي التسمية الشائعة للعبة بين الصغار .

هذه « التعليمات » ، كانت تصدر عن اللتين تؤرجحان الحبل ، وتنفذها اللاعبة التي تقفز في الوسط . ويدور الحبل متأرجحاً دورة ، توقف ؛ دورة ؛ وأثناء التوقف تنفذ اللاعبة الأمر المناسب : منحنية لأمر « تنحني » ، مصفقة براحتيها الأمر « تصفق » ، دائرة حول نفسها بعد الأمر الخامس الوحيد الذي يلفظ باللغة الأفريقانية « أومدراي » : تخطو خطوتين متتاليتين تخطو خطوة وتخطو ثلاثاً اثنين متتاليتين وواحدة مفردة . هكذا فالنتيجة هي قفز ــ حركة قفز ــ حركة ؛ يتأرجح الحبل دائراً أثناء التوقف .

إذا تجاوزت اللاعبة أمر أومدراي ، فعليها أن تستعرض مقدرتها في الأمرين الأخيرين : « تجلس » يتطلب سرعة أكروباتية وأمر « تستلقي » يلحق عادة بترجمته الهكسوسية ربما للتوكيد : شي لي ! لا لا ! شي لي ! لا لا ! إيقاعياً ، يتزامن بين الصوت والتنفيذ. هنا ، يجب عليها أن تقفز ، تستلقي ، تنهض وتقفز ثانية ــ محافظة على الايقاع ، لسبب ما ، تهتاج للأمر « تجلس ! »

يكمن تعقيد هذه اللعبة أيضاً في متطلباتها الجسدية من اللاعب او القافز ، ضامنا ان لا فتاة تستطيع البقاء في الوسط الى النهاية ، لذلك السبب ، تفقد للاعبات الإحساس بالوقت لأنهن لا يبقين في الوسط ما يكفي لإرهاق أنفسهن .

كانت فوملا في الوسط ثانية ، رغم أنها لا تعرف كم عدد مرات وقوفها في الوسط ، كانت مستمتعة جداً ولم يعن انحراف الشمس نحو المغيب ، شيئاً بالنسبة لها .

في الوقت الذي هامت تينا وسط الصخور ، التي لم تكن عاليه فتحجبها عن النظر . طافت كل البرك ، مفتشة ، عيناها كموس حاد ، يقظتان كعيني شرلوك هولمز . في لمح البصر ، انشغلت عن كل شيء إلا الجمال الذي وجدته هناك : الوان مدوّخة ، اشكال مثيرة ، ونشاطات

مذهلة . كانت البنت صغيرة تشعر بالإلفة مع عالم الأشياء الصغيرة ، هذا الحي ، المختلف جداً ، الزاخر الذي لا يبدو انه يتوقف للراحة ابداً .

« فومـلا ! ويـه فومـلا ! » صرخت نولونجيل ؛ اعتاد صوتهـا القروي الترحال بين المنازل ، من النهر الى الحقل ، كان حاداً قليلاً بين حدود شقق المنازل المتكوّمه على بعضها كتلال النحل . كانت تقف في مدخل المنطقة ، قلقة قليلاً لأنها لم تستطع رؤية ابنتها ، التي اخبرت ان تلعب امام باب البيت حصراً ، والشمس على وشك المغيب الآن . إنه وقت عودة والد البنت .

« ما ـ ا ـ ا ـ ه ! » لم تستطع الام ان تخمن من اين جاءت إجابة ابنتها . لكن من الفرح الصريح في صوتها ، تأكدت ان فوملا كانت تستمتع بوقتها . مخجل ، لكنها تلقت التعليمات الواضحة ، فكرت الأم .

« ارجعي . عودي الى البيت . »

« تعالي هنا ! » نطق الرجل الغريب هامساً ، بصوت هادىء . عيناه مثبتتان في عيني البنت . لم تسمعه نينا يقترب . الآن ، تعجبت من اين فقس . تذكرت الصدفة في يدها اليسرى : الصدَفة الاكثر ندرة . حتى والدهـا لم ير مثلهـا قط ، كانت متأكدة من ذلك . رفيعة جـداً مثل شريطة . والوانها ، كثيرة ، زاهية ...

على الأغلب كفعـل انعكاسي ، فتحت يدهـا اليسرى ، نظرت الى الصدَفة قبل أن تعود عيناها وتنجذب الى عيني الرجل المطلتين عليها من علٍ .

حدث الامر سريعاً : طوّح الرجل بالصدفة الى الماء ثانية بينما تنهض نينا عن ركبتيها ، وتكتشف انه يسد عليها الطريق .. الرجـل الغريب .

مكتشفة انها غير قادرة على المرور ، بقيت نينا واقفة في مكانها . فكرت : اين مامي ؟ هل ستأتي وتاخذني ؟ لا احب هذا الرجل . سمعت قلبها يضرب كحوافر فرس فوق أوبا مزرعة ڤورستر .

« فومـلا ! فومـلا سأجلدك لأنك لا تصغين إلي . « بويا ــ اا ! » .

فشخة طويلة ، تطالهـا ذراع الرجل ، قبض الرجل على البنت الصغيرة ، التي انكمشت تئن ، عيناهـا الكبيرتان مترعتان بالخـوف ، وفمها جاف .

ندييزا ــ ا ! تحول الفرح الى فظاظة . البنت معتادة على مخاطبة الراشدين بالشكل لمناسب . اين « ماما » التي تقولها فوملا بعد « انـا قادمة » ؟

« م ــ م مو ــ ووه ... » اطبقت يده على فمها الواسع ، فمهـا الصارخ بحيث لم تكمل الكلمة التي كانت تصرخها .

قاومت نينا ــ بقوة وبكل طاقتها : صوص عمره يوم في مخالب صـقر .

كان والد فوملا يريد ان يرى طفلته في البيت عندما يعود من عمله . زوجته ناظرة الى الإحجام الذي بان على ابنتها وهي تدخل الغرفة ، مكتئبة كطفلة اكرهت على التخلي عن لعبة مثيرة ، فكرت لنفسها : « إنه لا يعرف شيئاً عن الأطفال . إنه لا يفهمهم . لكن عندئذ ، وحيث إنـه غائب طيلة الوقت فكيف سيعرف هكذا اشياء . » شعرت نولونجيل بالتعاطف مع زوجها الذي لن يرى أبداً ابنته تكبر . كانت حزينة ، أيضاً، لأجل الأطفال ، اطفالها ، لأنهم لن ينعمون حقيقة أبداً بأبوّة أبيهم . اتضح لها جيداً أن هذا هو معنى كلمة « مَنْفَصَلِة » (كما يسمى نظام العمال المهاجرين ، من قبـل الأماهكسوس) ، بـدلا من ضم الأسر تعمل على

فصلها الى اجزاء وافراد مثل حبيبات الرمل . يدان فولاذيتان اطبقتا على عنقها . سحق ، لحظة الم يقسو ، يوجع جداً . بسرعة رؤوفة ، قصيرة جداً تخيلت البنت أنها حلم . لا بد أن الأمر كان بتلك السرعة .

لكن الوحش الذي فقس حديثاً لم يكن بدأ مجزرته بعد . الى دغله تبعد عدة ياردات عن البركة انطلق يحمل الطفلة الهامدة حينا ويجرّها حينا ـ هناك ، من جديد دق الجسم الهامد ، قتله رغم انه كان ساكناً بلا حراك ، لا يبدي اية مقاومة .

« ماما » اريد ان اتابع اللعب . ما زال في الخارج بعض البنات يلعبن . سوف ... فجاة ، توقف توسل فوملا .

« قرع » الاب على الباب ! وتحيته المسائيه » وضعت حداً لأي يكن ما كانت ابنته تقوله . كانت فوملا هادئة جدا في حضور والدها ، الذي كانت تخشاه . بالنسبة لها ، كان شخصاً ما يرهب جانبه : غريباً حتى امها بدت لها تخشاه . خرجت كولين ڤان نيكيرك من الماء وشقت طريقها بين المتشمسين المنتشرين على الرمل تحت الشمس العارية أو تحت واقيات شمس . وهي في طريقها الى واقيتها الشمسية تفحصت الحشد الخفيف بحثاً عن أثر لنينا .

لم تكن نينا قرب الواقية البيضاء والزرقاء : تذكار الرحلة الى باريس ، التي بدت كنسخة قاتمة لكن مخروطية عن برج إيفل . هكذا تأكدت انها لم تخطىء ، تلك هي واقيتهم . ولم تكن نينا بجوارها . من حين لآخر تقع عينها على شكل يبدو هي لكن عندما تنظره عن قرب ، تقول الأم لنفسها : لا . ليست هي .

مشت مبتعدة عن الواقية ، معتقدة أن البنت ما زالت تبحث عن اصداف أو تراقب شيئاً استوقفها . هكذا وصلت غابة الصخور ... لا وجود لنينا . تكرمش جلدها ؛ جحافل نمل اجتاحت جسدها ، اطلقتها

شياطينها الداخلية . شياطين لم تعرف بوجودها حتى شنت هذا الهجوم أصابع ، طويلة ، نحيلة ، جليدية طوقت قلب كولين . . . وعصرته .

لا وجود لنينا في حقل الاكتشاف الفني ، اسرعت الأم عائدة الى الواقية . فكّرت : « انت تجننين نفسك من أجل لا شيء كولين » ، أبطأت خطوتها ، سحبت نفساً طويلا من الهواء المالح الذي فجأة اصبح كثيفا وثقيلا . لاحت لها الواقية ، مقفرة : مأوى مهجور .

وصلت الواقية ، وضعت تيموثي ارضا ، وجالت بعينها متفحصة الشاطىء بدقة .

زحف تيموثي خارجاً من تحت الواقية وشغل الأم . للحظة فقط . رفعته ووضعته في عربة اليد .

زررت عينيها ، يدها تظلل فوق حاجبيها ، بدّقة ، تفحصت كولين الشاطىء . لفت انتباهها رهط من الصغار . عازلة الكبار الذين ربما وقفوا يثرثرون مع نينا . الأشخاص الوحيدون ، متبطلين كانوا أم متنزهين . بدقة ، وبطء استدارت ، مستطلعة جزءاً صغيراً من الشاطىء كل مرة ، متوقفة هناك ومتنقلة من شخص الى آخر في محاولة لرؤية ابنتها ، لتعزلها ، بنظرها ، عن الحشد على الشاطىء . أكملت دائرة البحث ، ولم تعثر على نينا .

وضعت نولونجيل الركوة على وابور الكاز وقبل ان يغلي الماء طلبت من فوملا ان تدخل جاط الغسيل من الخارج . صبت فيه معظم الماء الذي سخنته ووضعت حفنة ملح . ونقع فيه زوجها قدميه المتعبتين .

بينما برد الماء واصبح للرمي خارجاً كان قد شرب كوب شايه الأول وكان مستعداً لتناول زبدية الذرة المطحونة والفاصولياء . بدات وجبة المساء .

لا تهلعي ، قالت والدة نينا لنفسها ، عاليا . كانت تحاول طـرد دلك الشعور المخيف الذي بدا يتنامى داخلها . إنها هناك في مكان ما ، قالت لنفسها ؛ ابحثي فقط . إنهـا في مكـان ما على الشاطـىء . اضبطي نفسك .

هل رأيتم بنتاً صغيرة تلبس بيكيني ؟ احمر ، ازرق ، وابيض ؟ كانت خطوتها طويلة ، مشيتها خرقاء ، وانطلق يحدوها الامل من مجموعة إلى اخرى ، ابتدات بالمجموعات الاقرب وببطء على طول الشاطىء .

هل رايتم بنتا صغيرة تلبس قبعة بيضاء بواقية حمراء ؟ في السابعة من عمرها لكنها اطول من عمرها ... هل رايتموها ؟ .

بدات تصرخ : نينا ــ ا ــ آه : نينا ــ ا ــ آه ! انت ؟ نينا ــ ا ــ آه ! ، لكن ولا راقصة باليه تلبس بيكيني انطلقت نحوها ؛ لا عالمة أحياء بحرية قيد الصنع عادت مترددة ، منزعجة من مقاطعة بحثها المهـم . انشقت الأرض وابتلعتها .

بعض الناس ، ملاحظين تعاظم قلقها ، عرضوا عليهـا المساعدة . شكلوا فرق بحث غير رسمية صغيرة وانطلقوا في اتجاهات مختلفة يمشطون الشاطىء بحثا عن البنت الضائعة . سرعان ماتعاظم النشاط إلى هياج مدوي . استدعي منقذ الغرقى . شخص ما ايضا طلب الشرطة. واعطتهم كولين رقم هاتف عمل زوجها . وعندئذ فقط بدات تغرق في الاعتقادالذي تعلقت به : ان نينا قد نسيت نفسها ، استغرقت في مراقبة نبات ، حيوان ، او صدفة ما .. اكتشاف اخاذ ما تحمست له كثيرا . لكـن الآن ، والشرطة توجه لها الاسئلة ، وتستدعي زوجها هاتفياً من العمل ، ومنقذ الغرقى يفتش البحر عن ... منعت نفسها من الاسترسال في التفكير ، المخيف جداً التفكير فيه . لا يمكن أن يكون . ليس نينا . لبس طفلتها . الله ، ليس ابنتها الصغيرة ... صلت دونما تفكير في ان ذلك ما كانت تفعله . صلت غير عارفة أنها صلت .

الشمس الغاربة ، تعذب بجسارة اي شخص يستطيع إيقافها ، تدلت منخفضة فوق جبل تابل ، تحتضن المنطقة بخفر في ظل حضنها . مثل صورة اغنية الأطفال حيث تقفز البقرة إلى القمر ، أعدت الشمس نفسها للقفز إلى الجبل ... بدت متألقة على وجه الخصوص في فرارها .

البروفيسور بييت ڤان ينكيرك ، مشهور عالميا متخصص في أمراض القلب ، وصل في ظرف ربع ساعة من تلقيه المكالمة . ما زال لابساً مئزره الأبيض لأنه كان في محاضرة عملية ، محاضرته الأخيرة لهذا اليوم . بعد ساعة ونصف كان يفترض ان يكون في البيت ؛ يلعب مع أطفاله قبل العشاء .

آخذا زوجته المرتجفة بين ذراعيه ، استمع الى القصة بعينين جامدتين . اسندت ظهرها على الكومبي حيث يستلقي تيمي غافلاً عن الهياج من حوله ، ذهب بييت ليستمع إلى ماتقوله السلطات .إن ثقته في شرطة جنوب افريقية كبيرة جدا .

حومت هيلو كوبتر فوق الشاطىء ، ضوءها الكشاف يضيءتكهنات الريف الصخري المغمورة بالماء ، تبيض البحر وتستكشفه بأشعة (x) التي لا تخطىء .

كانت السيدة ڤان نيكيرك مصدومه . وضعت في كومبي شخص ما، والقي فوقها بطانية صوفية، فجاة بدا شكلها الجليل كتمثال ، هشاً . غير قادرة على البكاء . أعطاها احد الأطباء شيئا ما تشربه ... حدث ذلك قبل وصول بييت . تجرعت السائل لكنها لم تستطع أن تحددطعمه. كانت حليماتها الذوقية خدرة .

على مبعدة من المكان الذي تركز فيه البحث ، بين بعض الصخور التي تتخللها اشجار ، عثرت متنزهة ، من غير متطوعي البحث ، على الجثة . تنبهوا إلى صراخها .

من وضعية الجثة غير الطبيعية ، اعتقد أولاً أن البنت قد انزلقت، سقطت ، إما كسرت رقبتها أو تحطمت رأسها ، لكن قطعة من مايوهها البكيني كانت مفقودة .

خيم الغسق على جوجوليتو ، لكن ما زال الضوء كافياً ليجعل والد فوملا يرسلها الى الدكان . لم يبق إلا القليل من زجاجة البيرة ، لكنها أصبحت فاترة بسبب الحر . والليل الطويل .

تأبطت زجاجة فارغة ، احكمت قبضتها على النقود ، وانطلقت الصغيرة الى الدكان . قبل ان تصل نيويورك (١) ، نوماليزو شريكتها في لعبة القفز بالحبل ، عائدة من جهة الدكاكين لمست* فوملا ، التي لم ترها تقترب ، على كتفها وركضت مبتعدة تصيح ، « ليبتي ! »

كي لا تكون خاسرة ، ركضت فوملا وراءها ، لحقت بها ، لمستها مرة على ظهرها ، واستدارت وهربت وهي تصرخ « ليبي! ليبي! ليبي!»

ترددت نوماليزو ، كانت تحمل زجاجة بارافين . لقد نفذ البارافين من وابور الكاز . والطبخ لم ينضج بعد . ترددت ... كانت تفكر ربما عليها العودة الى المنزل قبل ان تخرج امها للبحث عنها .

سخرية فوملا : « ستنامين مع قطة سوداء ! » اثارت نوماليزو . من يريد أن تلحقه قطة سوداء غريبة الى البيت وتصر بعدئذ على النوم معه ؟ قطة سوداء ؟

استمر الكر والفر حتى شق الهواء صوت ام نوماليزو : « نوماليـى ـي ـزووو ! نوماليـى ي زووو ! » يحث المتهمة للإسراع الى المنزل .

---

* لعبة يلعبها الصغار يلمس فيها احدهم الآخر ويهرب محاولا الا يسمح للآخر ان يلمسه.

تذكرت فوملا ، ايضاً ، مهمتها هي وانطلقت الى الدكان . الضوء لباهت ، آخر ضوء ترسله شمس اليوم ، من وراء الجبل انطفأ الآن .

على الشاطىء ، نقلت سيارة إسعاف الجثة . لكن الرعب سيطر على المستجمين . كان في كلماتهم . في اعينهم . في عقولهم ، في قلوبهم ، وفي الهواء الذي يتنفسونه. جمعت الأمهات اولادهن بعصبية، كدجاجات شاهدت صقراً . الغريب الذي كان لا يولى اي اهتمام أو ينظر إليه كجار ودود ، منذ قليل ، وجّهت إليه الآن نظرة اتهام باردة . ذهب خبر الحديث الشنيع بأية فكرة مرح .

جاء رجال الفرع الجنائي يتشممون ، يطرحون اسئلة ، يلتقطون صوراً ، ويأخذون عيّنات . كان شيئاً مطمئناً جداً لو انك رأيتهم يعملون . وقلق جداً ان تتذكر سبب وجودهم هناك .

ببطء عاد الناس الى واقياتهم المهجورة التي فقدت ضرورتها الآن، لقد غربت الشمس ــ نزولاً عند إلحاح رجال الشرطة أن يذهبوا ويتركوهم وحدهم ؛ آخرون لأنهم يهجسون الآن بالرحيل ، الابتعاد عن هذا المكان حيث وقع هكذا امر . بالنسبة للبعض ، سيفقد هذا الجزء من الشاطىء إغراءه لهم الى الأبد .

كانت حركة البشر كثيفة أمام دكاكين جوجوليتو . طلاب مدارس عادوا من مدارسهم ، عمال من عملهم المضني . إنه وقت العشاء . **السكوليز*** ، وهم يعرفون ذلك ، كانوا يجوسون ، أو واقفين امام الدكاكين ، جاهزين لاصطياد من يبدو ــ مغفلاً « غِرّاً » ، كما يسمون اولئك الجاهلين بأساليب النصب في الحياة المدينية السفلية .

---

* **النصابون .**

انطلقت البنت الصغيرة من باب دكان الى اخرى . مدركة انها اضاعت الوقت في لعبة **ليبي** مع نوماليزو ، فوملا تبحث الآن عن دكان غير مكتظة بالزبائن .

هبط الليل على آل نيكيرك . كانوا في المنزل ؛ يفتسون عن طريق جديدة للعودة الى رشدهم ، لمعرفة ماذا يفعلون بأنفسهم واحدهم بالآخر ... التعايش مع هذا الاسى غير المألوف الذي حلّ في حياتهم . تجاوزت الساعة الثامنة . لا احد منهم تناول العشاء . لا أحد فكّر بالطعام الآن. هدّأت عائلة الطبيب السيدة ڤان نيكيرك وعهد بتيموثي الى هيلدا حتى وصلت الجدّة . كلا الجدين والجدتين كانوا هنا الآن . جلس الأربعة في غرفة المعيشة ، ومع ذلك بدت الغرفة كأنها فارغة . صمت مطبق . بييت ، من جهة اخرى ، لم يستطع ان يهدأ . كان يصدر الأوامر الى هيلدا ، يجيب على التلفون ... اصدقاء يتصلون للتأكد مما سمعوه في الأنباء ... وسائل الإعلام ... الشرطة . بدا أنه الوحيد من بين الجميع كان على قدر المصيبة ، من حين لآخر ، يفلت نحيباً من آل فورسترز . ورؤية الوجه القانط لإحدى الجدتين يرتعش بالنشيج ، إنه منظر يفطر القلب حقيقة .

ضمت زجاجة بيرة الجينجر الى صدرها ، وانطلقت فوملا من الدكان الحادي عشر راكضة الى البيت . كانت قد تجاوزت مبنى الدكان عندما شعرت باليد الكبيرة تغطي وجهها . ذراع كبيرة طوقتها ، تدفعها الى الخلف الى ركبة صلبة بينما اليد تخنق صراخها ، تسلبها نفسها ، وتحجب عنها اضواء الدكاكين والشارع والسيارات التي تسير في النيويورك (١) . ابي ؟ فكر عقلها ؛ لكن غريزتها حذرّتها أنه ليس هو .

وسط صراخ الامهات يدعين أولادهن للعودة الى المنزل ، صغار العشاق يدعون معشوقيهم الى المواعيد السرّية ، ضجيج حركة المرور، واجهزة الراديو الصادحة ، كان صراخها أشبه بثغاء غنمة وسط عاصفة، ابتلعها الضجيج كما حجب الليل الفعل .

خطفت من الخلف وهي تجتاز الممر الفاصل بين الدكاكين والجزء الثاني من مكاتب إدارة بانتو ، قاومت الصغيرة لكن عبثاً ، محاولة النجاة . لقد جُرفت ، فأُكعِمَت ، وحملت الى الوراء في عتمة ظلال الدكاكين . وهناك ، خلف الدكان الصاخب في النيويورك (٥٠) ، جوجوليتو عصر الرجل حنجرتها حتى انسحقت ؛ خانقاً صوتها الى الأبد . بقيت تضرب بذراعيها لفترة ، تخرمش بأظافرها ، ترفس بقدميها بجنون . وبعدئذٍ ، همدت ، دفعة واحدة ؛ مشاهدة سقوط قواشح الذرة المُستمرّة في نار ، هناك بعيداً في قريتها . لقد خطفها الأسلاف الى مكان اكثر أمناً . « يجب أن تحاول النوم » ، قال بييت بهدوء : « لدينا عمل كثير غداً . دعونا نرتح قليلاً » .

حالاً ، ازواجاً او فرادى ، ذهبت عائلة نينا الى حيث ستمضي الليل . اوى آل ڤوسترز الى غرفة الضيوف . والدا بييت أويا الى مكتب بييت الذي فيه اريكة وصوفا . لم يرغب احد في استخدام غرفة نينا . لا احد . ولم يدع احد الى استخدامها .

لرجل الذي استقرت في قبضته البنت الصغيرة لم يلحظ همودها . لم ير حياتها تنحسر بعيداً . لديه هدف يحققه . وشرع يتأوه وينخر وفمه يزبد ، عيناه غائمتان ، العرق يتصبب من جبينه . قميصه التصق بظهره المنحني المتعرّق .

عندما نال وطره ، بدا الشكل الجاثم بين يديه كإوزة ميتة . ريشها المنتوف منثور في كل الاتجاهات . رأى أن الحياة قد نضبت منها . واشمأز ، تماماً ، من وضعية الركبتين الملامستين للصدر ، إنها على وجه التحديد ، تثير قرفه ، دفعها بعيداً عن جسمه المبلل بالدم . ها هي مرمية امامه ، رأى فعلته السيئة . إن تركها مكشوفة هكذا يعني افتضاح الامر وتحر سريع . هكذا رفعها ورماها في إحدى براميل القمامة القريبة منه .



بقي مكوابي ساكناً مفكراً فيما اخبرته زوجته . إن كانت هذه البنت تتسكع ، فسوف يؤدبها ضرباً .. يجب أن تمنع فوراً عن التمادي في عاداتها السيئة . هكذا فكر زوج فولونجيل ؛ هكذا فكّر والد فوملا . لكن فكره تغير بسرعة أيضا . انقبضت أحشاؤه كمن أكل وجبة كبيرة من الفاصولياء لم تطبَخ جيداً .

خرج الأب والأم للبحث عن ابنتهما . يحدوهما امل انها اضاعت طريق العودة ، ربما اربكتها العتمة ، الليل ...

لقد خفّ الحشد قليلا عن حالته عندما وقفت ابنتهما في تلك الدكاكين . من دكان الى اخرى شرعا يفتشان بين الحشد : « كررا على مسامع الناس لازمتهما القلقة » : « إننا نبحث عن بنت صغيرة » . اوقفا كل من قابلاه ، رجالاً ، نساءً ، واولاداً أيضا . لم يجداها في أي من الدكاكين . ولا في الدكاكين في نيويورك (٥٠) ، ولا عند المنعطف في دكاكين نيويورك (٣.١) . ولا واحد من الأولاد الذين ما زالوا يلعبون أمام الدكاكين تذكّر بنتاً بمواصفات فوملا .

مقتنعين انها عادت الى المنزل اثناء غيابهما ، عاد الزوجان الى المنطقة السكنية ، واثقين من رؤية ابنتهما هناك . لكن فوملا لم تكن قد رجعت . حتى الرجال الآخرين في هذه المنطقة نهضوا من أسرّتهم أو أوقفوا مهما كانوا يفعلون ، وساعدوا في البحث عن البنت المفقودة . يقرعون الأبواب ، ويصيحون باسمها في الهواء — « فو — ممم — لا — ا — ا » !

« هكذا طولها » ، بذراع ممدودة ، الراحة تواجه الأرض ، كان يوجّه السؤال الى الغرباء إن رؤوا بنتاً صغيرة تلبس تنورة قطنية زرقاء ووردية . لا أحد شاهد فوملا .

في الحادية عشر ، مكوابي ومجموعة الرجال من منطقته السكنية ومن المناطق المجاورة توزعوا الى مجموعات صغيرة وغامروا بالدخول بين

بيوت الأسر متجاوزين مناطق سكن الرجال العزّاب . النساء الأخريات في نفس المناطق اعتنوا بالطفلة ندولي ودعموا فريق البحث ، مقدمين له الشاي أو القهوة أو الخبز : اي شيء يدعم استمرار البحث .

حوالي الرابعة فجراً ، اتفقوا على متابعة البحث صباحا . لن يذهب الأب الى العمل ، احد المساعدين في البحث والذي اتفق انه يعمل ومكوايي في نفس المكان ، قال إنه سيبلغ السيد بسبب تغيبه عن العمل . بعدئذٍ ، ذهب الجميع الى غرف نومهم الخاصة محاولين النوم قليلا قبل ذهابهم الى العمل .

لا يلجأ سكان جوجوليتو الى الشرطة إلا عندما يجدون أن إحجامهم عن ذلك سيدخلهم في ورطة أكبر من التي هم فيها . كان لدى والدي فوملا نيّة في الذهاب الى الشرطة للإبلاغ عن ضياع ابنتهما . لكنهما املا الا يضطرا لفعل ذلك ... فهناك بعض التفسيرات لعدم عودة فوملا من الدكان ... أنه ، في الصباح الباكر ، سيأتيهما راشد ما وفوملا في يده يقول لهما ، « كانت ضائعة وأخذتها تمضي الليل في بيتي . هل انتما والداها ؟ » وسينتهي كل شيء عندئذٍ .

فيما تبقى من الليل ، لم تتحدث فولونجيل وزوجها الا عن احتفاء فوملا . والذهاب الى الشرطة صباحا ، حالما تسير الباصات : في همسات مسكنة وكأنهما لم يريدا ايقاظ سكان المنطقة الاخرين ، محصّنا مشكلتهما من كل الزوايا المحتملة وعزيا بعضهما وكأنهما لم يعترفا بخسارتهما .

مع هدير الباص الذي يجلب سائقي الباصات من جوجوليتو ، استيقظ مكوايي . اشعل وابور الكاز ، سخن ماء الاغتسال وصنع لنفسه بعض القهوة . اليوم ، لم ينتظر ان تصنعها له نولونجيل . كان يدرك كم كان قلبها مثقلا ... و ، لم يغمض لها جفن ابدا . لقد سمع نحيبها المكبوت وشعر بدموع عينيها .

عندما قدم مكوايي فنجان القهوة لزوجته لاحظ أن لا هو ولا هي قد خلعا ثياب الامس .

تناول مكوايي قبعته ، ودون ان ينظر الى عيني زوجته المنتفختين، متجنبا أن ترى بدورها حمرة عينيه ، هو ، قال ، ربما تعود هذه البنت قبل ان أعود . لاذهب ، وشق طريقه الى موقف الباص .

امام الدكان العاشر ، لجزار ، احد الشبان العاملين هناك ذهب الى ساحة الدكان الخلفية المفتوحة . تقتضي واجباته الصباحية ان يحرق النفايات الموجودة في البرميل ، المعلق عاليا بين عمودين لمنع الكلاب الشاردة في الناحية من نبشها بحثاً عن طعام وبعثره محتوياته على الارض . زجاجة البارافين في يده ، تقدم الشاب من البرميل ليرى ان كان مضطراً لاستعمال البارافين أم لا . ان كان في البرميل أوراق كثيرة ومواد قابلة للاشتعال لا يستعمل البارافين .

« ڤيكسودام ! » « يا إلهي . يا الهي ! » وهرول الشاب عائدا الى الدكان . مشدوها ، فاغر الفم ، مرتجفاً .

« بهوتي ، تعال وانظر ماذا رأيت في البرميل . » أخافت الكلمات المخنوقة الرجل الذي وُجهت إليه ومثل المغنطيس ، جذبته الى البرميل .

الجزّار ، رجل قصير ، اصلع ، كرشه يذكرك بالبرميل أو هومبتي ـ دومبتي(*) . لسوء الحظ ، لم تفعل ساقاه المغزليتان شيئاً يبدد الوهم . الآن ، مشى متهاديا من دكانه الى البرميل .

(*) هومبتي ـ دومبتي شخصية بيضوية الشكل في قصص الأطفال والتي تسقط غالبا عن الحائط وتتكسر الى قطع صغيرة .

« يا ألله ، يا قدير ! » أنسحب عائداً بسرعة ، لاهثاً . « سيلبي ! »
نادى على ابنه مشيراً بيده لعملية الاتصال بالهاتف ، اطلب الشرطة .
اطلب الشرطة . عندما بدا الذهول على وجه ابنه ، أضاف موضحاً ،
« هناك جثة طفلة في الخلف . » لم يستطع ان يقول له إن الجثة في برميل
القمامة .

فكّر : يا إلهي ، ما هذا العالم الذي نحن مقبلون عليه ؟ مبللا
بعرقه ، شعر بركبتيه تعبتين من عملهما الأبدي غير المشكورتين عليـه ،
حَمْلَ هذا الجسد . تهاوى في كرسيّه ، واهناً . كان بردانا ، بردانا
جداً . في صباح تحممه ــ الشمس ، كان بارداً كالذبائح في الجمّادة في
مؤخرة دكانه . كالنار في الهشيم ، انتشر خبر جثة الطفلة ، بنت صغيرة
في حوالي الخامسة أو السادسة ، انتشر في كل ذلك الجزء من الناحية .
واخترق حتى الحدود التي لا تخترق ــ انطلق من الدكاكين الى البيوت ،
قفز متجاوزاً الحواجز اللامرئية ، والى المناطق . لكن ، لسوء الحظ ،
لم يصل فولونجيل .

وصل أول شخصين الى موقع الجريمة ، ومن ثم شخصان آخران،
ومن ثم أشــخاص اكثر فأكثر . وفي فترة وجيزة ، تجمع حشـد أمام
المشهد الشنيع المكتشف .

مكوايي مازال ينتظر على موقف الباص ، شاهد احد مساعديه في
فريق بحث الليلة الماضية . « الى أين ، تشاوي ؟ » سأله مكورايي ،
« ولِمَ هذه السرعة في هذا الصباح الباكر ؟ »

عندما اخبره الرجل انه ذاهب للتأكد من الإشاعة حول اكتشاف
طفل ميت قرب الدكاكين لم يعد مكوايي راغباً في سماع شيء حول عدم
مرافقة جاره الذي حـاول حثيثاً ثنيه عن مرافقته . كمجرمين مدانين
ذاهبين الى حبل المشنقة ، عبرا نيويورك(١) وشقا طريهما الى الدكاكين .

خبطت عربة الشرطة في مطب وعر وهي تقترب من الحشد . بانغ ـ بانغ صوت انغلاق أبوابها أسكت الحشد المتجمع حول البرميل . التفتت الأنظار الى الرجلين الأبيضين اللذين قفزا من العربة قبل أن يتوقف هدير محرّكها .

لم يكن سحر عصا موسى اعظم من شق البحر . فمع اقتراب الشرطيين ، حدث انشقاق طبيعي ؛ انقسم الحشد مفسحاً لهما الطريق . لم يضطرا حتى لنطق كلمة واحدة .

مزيج غريب من الخوف والأمل مدّ مكوايي بالجراة . « دعوني أمرّ . أرجوكم ، دعوني أمرّ . لدينا بنت مفقودة ، دعوني أمرّ . » كما يسرع الأصحاء في إفساح الطريق لمجزوم ، تراجع الحشد مترقباً . ربما يكون هذا الرجل والد هذا الشيء المرعب الموجود في برميل القمامة . ربما كان ارتباطه بالرعب اعظم لو انه سمع همسة .

تقدّم مكوايي من الشرطيين اللذين كانا ينظران في البرميل وينبحان في اللاسلكي . وقف وحده . تأخر جاره خلفه قليلا ليميّز بين المعني مباشرة ومجرد الصديق .

« الى الوراء ! عُد الى الوراء ، هذا من شأن الشرطة ! » صاح به احد الشرطيين . ووجد مكوايي نفسه مجهولا من قبل الشرطي ، كمن شُلّ لسانه . أراد أن يقول : « أرجوك ، سيدي ، دعني انظر في هذا البرميل . انا متأكد انها ليست ابنتي ، فوملا ، ابنتي البكر . لكن ، ارجوك دعني انظر . » لكن الكلمات رفضت ان تجري على لسانه .

احد ما ، امراة مجهولة من الحشد : صاحت : « إنه والد الطفلة ! » وحاولت الا تبدو قسمات وجهها . جريئة ... مثل وجه شخص تجرأ واجاب الشرطة دون ان يوجهوا له سؤال . كانت تعرف منزلتها . منزلتها التي تحدّرت منها . عرفت موقعها وعرفت ، أيضاً ،

انها لو نسيته ، فهؤلاء الشرطيان لن يترددا في تذكيرها ، ووضعها ، فيه . هما الشرطة . وفي نظرهما ، هي نكرة .

مهما يكن ، ادى تدخلهـا عمله . للحظة قصيرة ، نسي الرجـلان مكانتهما وصارا مجرد رجلين عاديين ، إنسانين : لا اكثر ولا اقل .

نظرا الى الراجل الواقف ، هناك ، متقدما قليلا عن الرعاع . نظرا إليه ، ودون ان ينطقا بكلمة ، كلمة واحدة ، من سلوكهما فقط : كونهما ، لماذا ، مجرد بشر ـ عرف مكورايي أن بوسعه التقدم ، يتقدم من مكان وقوفهما .

لدى رؤيته يقابل بهكذا معاملة ، تقدم صديقه وتقدم الاثنان معـاً من البرميل المشؤوم . نظرة واحدة ذلك كل ما احتاجاه . نظرة واحدة ، وزال شك الرجل الآخر . على نحو اعمي استدار ومشى مبتعداً . بعد عدة خطوات توقف فجأة ، بدا انه تذكر شيئاً ما ، استدار الى الخلف ، ومشى عائداً الى الرجـل الذي ما زال واقفـاً في مكانـه ... ما زال يحدق ... في هذا الفم الكريه لبرميل القمامة المعدني الصدىء .

الزعيم دانييل لوف ، كاهن الكنيسـة حيث يصلّي ڤان نيكيرك ، رنّ الجرس ، ودون انتظار الدعوة ، فتح الباب ودخل . « مور المال . » أرسل صوته الصادح أمواجاً في أرجاء البيت النائح . لم يكن الكاهن أحد الذين تتجاوزهم بسهولة . تلفن لبييت بعـد أن تنـاول إفطاره ، في السادسة والنصف . لديه رعيّة كبيرة وكان مشغولاً . رجلاً مباشراً .

بييت ، الكاهن والجدان والجدتان جلسوا حول طاولة الطعام . كانت هيلدا قدوضعت عليها إبريق قهوة كبير وأطباق كويسيسترز . الآن ، شرع الرجال في العمل . بدا الرجال الأكبر قد صحوا نوعاً ما من نوم الليل . كان بييت أحمر ـ العينين ، نحيل الوجه شاحباً كمن لم ينم منذ اسبوع . كانوا يضطرون لسحب الكلام من فمه سحباً . كان

مبهماً شارد ــ الذهن ؛ مثـل شخص يعاني من فتور شـديد . لكن ، سريعاً ما وقف رجل الدين وودّعه . ما من احد كان قادراً على ادخال البهجة على هذه المجموعـة الصغيرة ، التي يودّعها . لكنـه ودعهم في سلام أكثر قليلاً ، بعد ان خطط لهم سير جنازة صغيرتهم الغالية .

وضع تشاوي يده على كتف صديقه . لا كلام لديه يقوله لكنـه اراد ان يشعر صديقـه انه موجود ، معـه ، لقـد قرر أن يتبع قياد مكوايي .

كان مكوايي رجـلاً استيقظ من نـوم عميق . استدار ونظر الى صديقـه كمن ينظر الى شخص لم يره قط . ببطء ، أدار وجهـه يميناً وشمالا وكأنه يبحث عن وجه وسط الحشد ، وجه يعرفه أو يتذكره ، وجه يعيد المعنى لأي يكن ما كان يجري في عقله ، وجـه يملأ الفراغ ، الفجوة العميقة داخل ، الشيء الذي هدده بسلبه كل انفاسه .

فجاة ، أشرق التفهم في عينيه . لقد عاد من المكان مهما يكن ، الذي كان قد ذهب إليه . الآن ، عرف بالضبط أين كان ولم هو هناك .

جار مكوايي كثور جريح ــ ووصل فم البرميل ، وقبل أن يلاحظ الشرطيان ما يحـدث ، كان قـد أخرج نصف تلك الهيئة الغريبـة من البرميل .

انطلق احد الشرطيين الى العمل عندما صرخ شخص ما . في طرفه عين ، كان قد خطف الجثة من مكوايي . تقدم شخص ما ببطانية مدّدت الجثة ارضاً وغطّيت . قاد الشرطي الآخر مكوايي بحزم لكن بلطف ، بعيداً . الرجال الثلاثة ، مكوايي والشرطي وتشاوي إثرهما ، ســاروا تعبين الى العربة التي تبعد عنهم اقل من ثلاثة أمتار .

« انتظر هنا . » ستاتي معنا الى مخفر الشرطة . وانضم تشاوي الى صديقه في مؤخرة العربة ؛ الباب مفتوح على مصراعيه ؛ ولم تخطر

لأي منهما فكرة الهرب . قلباهما المثقلان اغلقا بوابة العربة بأمان أكثر من القفل الأثقل والأقوى . جلسا هناك . وانتظر . عينا مكوايي مغرورقتان بالدموع ، لكنه لم يعرف هذا ولو عرف ، فلن يبالي . والدموع تغسل وجنتيه ، شاهد مكوايي أم طفلته ... طفلته طُوِيت وشوّهت ؛ وقُزّمت . بوضوح راى فولونجيل ؛ رآها وكأنها تقف أمام ناظريه الآن . نولونجيل . ماذا سيقول لها ؟

افاقت نولونجيل من سبات ذهول على بكاء نودولي ، وبسرعة أعدت لها زبدية عصيدة ذرة . والدفوملا ، فكرت بنفسها ، يجب أن يكون انهى إبلاغه في مخفر الشرطة . لم ترغب في أن تفكر في ابعد من ذلك . هناك مكان آخر ، وحيد ، أكثر رعبا بالنسبة لها من مخفر الشرطة : معرض الجثث . لكنها عرفت أيضاً أن زوجها لن يذهب الى ذلك المكان وحده . سيعود ويطلب من شخص ما مرافقته الى هناك إذاً ...

هناك ، رفضت أفكار نولونجيل ان توغل .

بينما ، الصحيفة ، الكيب تايمز ، الصباحية نشرت قصة الطفلة المغدورة على الشاطىء . على الصفحة الرئيسية . مرفقة بالصور لمكان العثور على الجثة . في الصورة إشارة (×) كبيرة حيث علقت الجثة . طبعاً متابعو التلفاز والراديو شاهدوا (او سمعوا) القصة ليلة امس . قدمت في نشرة السابعة مساء مرفقة بمشاهد تفصيلية . وفي نشرة الحادية عشرة تغطية كاملة . وكعادة وسائل الاعلام ، أبلغ المشاهدون أن الوالدين كانا ذاهلين ولم يستطيعا الإجابة على الأسئلة . الشيء الذي كان يعني أن شخصا ما قد ذهب فعليا الى والدي الطفلة الميتة ، قتلت عمداً ، قتلها ممسوس ... لكن المذيع ذهب الى هكذا والدين .

أي نوع من الأسئلة يسأله المرء لأناس نكبتهم هكذا فجيعة : « عفواً ، لكن هل انتما حزينان ؟ » كلا ، ربما هو شيء آخر مثل ، « متى رأيتما الطفلة آخر مرّة ؟ » او « هل ستفتقدانها ؟ »

ما ضرورة هكـذا اسـئلة ؟ ولم في هكـذا وقت ؟ الا يستطيعون الانتظار ؟

قرب الدكاكين وبعيداً عن مركز الجذب ، استيقظ النهار . أولاد يسرعون الى البيت بزجاجـات الحليب حيث ، بلا شـك ، كانت قهوة الصباح تُعدُ . موقف الباص مزدحم مثل كل صباحات السبت ــ عمال ومتسوّقون . لكن ، كان مكوايي أعمى عن كل هذا . عالمه استلقى عند قدميه ، طريقاً ، طويلة ، قاسية ، مليئة بالأشواك الى زوجته .

كانت نولونجيل تطعم الطفلة عندما دخل مكوايي عبر الباب ، ودون ادنى كلمة ، اعلمها ان ابنتها البكر قد رحلت . ماتت .

طارت الزبدية المطلية بالميناء من يدها وسقطت علـى الأرضيـة الإسمنتية مقرقعة . شخص ما حمل نودولي عندما انزلقت نولونجيل من كرسيها الخشبي . سمعت العويل من فوقها في الأعالي وعن مسافةبعيدة جداً. اندفعت اثنتان من النساء اللواتي دخلنمع مكوايي لمساعدتها بينما الرجال يحزمون الأثاث الضئيل،محضرين الغرفة للسهر عند جثة الميت.

ماتت بنتان صغيرتان. دُمّرت العائلتان نظفوا رأس البحر ــ صرخت العناوين الرئيسية لعدة اسابيع لاحقة . والقذارة ، الخبث الذي أشير إليه ، كان البشر الآخرون أولئك الذين آخريتهم وضعتهم على الجانب الآخر ، غيبتهم بخلاف اصحاب الآصوات العالية التي ارتفعت جميعا في غضب مقدس .

لفترة زمنية بعد ذلك ، خيم في الجو حملة اعتقالات لمن لايحملون بطاقات إقامة ، ضرب المتشردون بيدمن حديد. اي أسود يُرى خارجاً، بعد ساعة معينة كان يخضع لاستجواب قاسٍ . طال حظر التجول كيب تاون . ماذا كانت ستفعل المدينة لو سمعت الموت التوأم لموت نينا ؟ موت نوملا ذات السنوات الست ، فوملا ديانتي ، التي اغتصبها رجل ناضج

وكأنها عاهرة ؟ وبعدئذ خنقها وتركها جسدا ميتاً في برميل قمامة ؟ في وضعية انحناء .

ماذا كانت ستفعل المدينة لو رات كيف ، كي يمكن وضع الجثة الصغيرة في الكفن ، اضطروا لنشر ركبتيها بسبب التخشب الموتي الناتج عن وضعية الانحناء ؟

اليوم ، لا احد يعرف اسم البنت الصغيرة التي وجدت في برميل قمامة خلف دكان جزار ، لا يعرفونه اليوم ، لأنهم لم يعرفوه في حينه .

حتى القلته الذين يتذكرون القصة الحزينة غالبا ماتساءلوا ماذا كان اسمها . يتذكرون فقط كيف نشرت ركبتاها ليمكن وضعها في كفن .

ومع ذلك ، ليسوا قلة من يتذكرون اسم نينا ڤان نيكيرك . في جوجوليتو . بعد كل هذ السنين . . اكثر من عشرة .

يتذكرون الاسى . حزن الامهات . جريمة قتل البنات الصغيرات . في كيب تاون . إنهم يتذكرون الفجيعة . وحتى هذا اليوم مازالوا يتساءلون ، كيف وجدوا انفسهم أولاً بين المشتبهين . اسى كبير . وغضب متقد .

ومضى عهد بطاقة الإقامة

ربما لأنني جربت الاعتقال بسبب بطاقة الإقامة ثلاث مرات فقط في حياتي ؛ وفي المرات الثلاث لم أمضِ ليلتي في زنازين مخفر الشرطة . حدث الاعتقال الأول ذات مساء وكنت عائدا من عملي . لحظة ترجّلي من الباص وقبل ان أنطلق إلى بيتي الذي يبعد خمس دقائق سيراً عن موقف الباص . لحسن حظي ، فإن أحد الذين شهدوا اعتقالي اسرع إلى بيتي وابلغ اولادي الشخص نفسه ايضا احضر بطاقة إقامتي التي كنت قد نسيتها ذلك الصباح ، وجلبها إلى مخفر الشرطة وانتظر هناك لان الدورية التي اعتقلتني كانت ماتزال تتابع مهمتها . بعد ست ساعات، عندما عادت سيارة الدورية إلى المخفر ، اطلق سراحي . كنت منزعجا جدا ، كنت ميتاً من الخوف ، إحساسي بالذل يفوق التصور ـ نعم ؛ لكنني لم امض ليلي في زنزانة الشرطة مع المجرمين العتاة . كنت ممتناً ، لذلك ، جزيل الامتنان .

في الاعتقالين الثاني والثالث ، اضطررت لدفع غرامة الاعتراف بالذنب ، قسوة جلية إن اخذنا بعين الاعتبار أجري الزهيد ، أولادي الخمسة ، وحقيقة أنني رب العائلة الوحيد . لكن والدتي اقترضت مبلغاً من هذا الشخص ومبلغاً من ذاك ، وفي كلتا المرتين ، جمعت الخمسة عشر رائداً ، الغرامة ، وأخرجتني. ساهم الجيران والأصدقاء في جمع الغرامة؛ فتلك هي ضمانتهم الوحيدة إذا ماقرعت هذه المحنة ابوابهم .

لذلك وفي نهاية المطاف ، اعتبرت نفسي محظوظا بخصوص بطاقة الإقامة . يسمع المرء قصصاً مريعة مشابهة عن أناس تعرضوا للتحرش ،

للاغتصاب ، وإساءات مشابهة ... بسبب بطاقة الإقامة . أعرف أن هكذا فظائع قد حدثت ، وفي ضوء ذلك ، فما حدث لي ، بسبب بطاقة الإقامة ، يبقى محمولاً .

ربما كانت سعادتي واضحة ان هكذا اشياء مرعبة لن تحدث لي . ربما كنت مرتاحاً لفرصة طي صفحة ماضينا التعيس كله ، للهروب من الذكريات ، من ماض مليء بالألم ، ماض يصعب تخزينه . لا اعرف . الطبيعة الإنسانية هشة . انا مجرد إنسان ايضاً . لكن الآن ، بالنظر الى الوراء ، أعترف انه ربما هناك عنصر فرح جبان ، بهجة إن احببت ، لمعرفتي انني لم أتعرض للأسوأ ... بسبب بطاقة الإقامة ، اصبحت شيئاً من الماضي ، لست مضطراً للخوف منه اخيراً . كنت حرا على الأقل ، من هذا الخطر .

لم يكن الشعور بالخفة هذا من صنعي انا او من بنات خيالي . ففي عام ١٩٨٧ ؛ وقع غير المتوقع . الفي قانون بطاقة الاقامة . اصبحت البطاقة لاغية . بطلت . الإبتهاج ! لم اشاهد الأفريقيين قط متحدين هكذا في الفرح ؛ ما عدا ، ربما يوم اغتيل الدكتور فيرورد .

على مدار شهر إبريل المدوخ ذاك ، وسائل الإعلام ـــ الراديو ، الصحافة ، التلفزيون كانت تصرخ : مضى عهد بطاقة الإقامة !

حتى حزب القومية الافريكانية (NGK) القومي ذاك ، صوت بحذر مؤيداً ، مستحسناً إعلان الحكومة عن حقبة جديدة في تاريخ المنطقة .

كانت الآمال كبيرة . كان السود في نشوة غامرة . مع انتهاء عهد بطاقة الإقامة ، فكروا ، ايمكن ان تكون بطاقة الإقامة اصبحت ماضياً ؟ وبعيدة عن السود والبيض . جميعنا لبسنا المرح كراية ؛ ارتحنا من كارثة بطاقة الإقامة .

هكذا يكون غضبي من أمي مفهوماً . عندما كل الناس في النواحي الأفريقية ، في المعسكرات غير المرخصة ، في القرى ، في مناطق إعادة التوطين ، وفي مناطق أخرى مصنفة مناطق إقامة حيث بقوا ينتهكون ، القانون ، عندما اتحد كل أولئك الناس ، كواحد ، تنهدوا تنهيدة مشتركة هائلة ، ارتياحا واستحسانا .. فمن سيجرؤ ويكون الاستثناء؟ من كان بوسعه التذمر ؟... ليفسد احتفالاتنا الوطنية ؟

كالضرس المؤلم الذي سينتأ اكثر من أي ضرس آخر في فم المرء — لبست امي وجه الأرملة التي استيقظت ذات صباح ، لتكشف أن أبنتها الوحيدة التي دُفع مهرها ، قد فرت مع فقير معدم والذي بدوره خلف وراءه زوجة حبلى وستة أولاد وأماً عجوزاً درداء . أتستطيع هكذا ارملة ، هكذا أم لهكذا ابنة ، ان تعطي الابنة الاخرى بدلا من تلك التافهة الجاحدة التي فرت ؟ هل يمكن استعادة المهر — فقد انفق بعضه لتغطية نفقات العرس ؟ ايستطيع زوجها المتوفي ان يذهب الى المناجم ، يعمل وردية او ورديتين ، ويعيد دفع المهر ؟

يجيد البيض اللعب فينا . اننا ، حقاً ، دمى في أيديهم . حقيقة ، حقيقة انا عجوز . كوني عشت لارى هكذا يوما .

ويقولون اليوم ان بطاقة الإقامة قد ولت . اين ولت ؟ من أين اتت في الاصل ولماذا ؟ لماذا وجدت في الاصل ؟ ولماذا لنا نحن فقط ؟ ومن يقول انها لا يمكن أن تعود أبداً ؟ هل عرفنا سابقاً اننا سنتعايش، مضطرين للتعايش ، معها ؟

يوهووو ! يا ولدي، لقد عشت طويلاً . هذا اليوم، اليوم الذي يبتلع كل الأيام الأخرى . اقول لك ، إنه يوم رائع هذا اليوم .

تفجعت امي على ما كنا نحتفل به ، فاقت لا عقلانيتها كل تفهم . اعتقدت أن قديساً كان سيخنقها .

تلك الليلة ، مفكراً في استعادة مشاعري البنوية سريعة ـ التبخر :
ماما ، قلت ، ما الذي يزعجك في هذا ؟

بعد ليلتين وكنت قد نسيت على الأغلب تورتي عندما ، وبدون نكدها المميز ، سألتني أمي ، اتذكر عندما مرض بهوتي واعتقدناه جميعا يحتضر حقاً ؟

مه مه ؟ لم تكن لدي فكرة الى اين يقود هذا وكان انتباهي متركزا على جهاز التلفزيون الجديد سوني وكنت اود تركيز نظري وفكري في شاشته الآن . لكن أمي فهمت ما يناسبها . لديها شيء ما لتقوله وستقوله سواء بمساعدتي او بدونها .

اتتذكر قصة تشينا ، الرجل الشاب الذي رحبت به زوجته لدى عودته بأن وضعت يديها على راسها وعولت مرسلة صوتها الى اربعة اصقاع الارض وكأنها قد سمعت للتو أن توأميها الفاليين قضيا غرقاً ؟

ذلك بالتأكيد حقق لها ما ارادت ، لفتت انتباهي ، تشتت تركيزي عندما عاد ذهني الى زمن ، عشر سنوات مضت ، اقل او اكثر قليلا .

خالي البكر ، تقاعد وعاش غير بعيد جداً عن القرية مسقط راسه ، في الترانسكي ، مرض مرضاً خطيراً .

نحن الثلاثة ، الباقين احياء من نسل امي ، جمعنا بعض النقود واشترينا لها بطاقة قطار وذهبت لتكون قربه .

بعد شهر أو شهرين عادت أمي . كان أخوها يتحسن . انتهى الخوف . بينما كانت تحكي لنا عن رحلتها حكت لنا حكايته ذات مساء :

اتخذ وجهها تلك الهيئة وكأن اليوم يوم سبت بعد الظهر وصاحبة الوجه ذاهبة لتشييع جنازة :

بطاقة الإقامة قتلت الناس ، نعم ، قتلت الكثير منهم .

طال انتظارنا في محطة أومتاتا . حدث تأخير . لجأ بعض الناس الى الباصات ، لكن حتى الباصات لم تستطع أن تستوعب الكثير ، فقد وصلت المحطة ملأى . ولا باص ، مهما كان كبيرا أو مهما كان عدد مقاعده يستطيع استيعاب الناس الذين يستوعبهم قطار . حسن ، بينما كنا هناك ننتظر رايت رجلا ، شابا . . . قد تزوج حديثاً أو سيتزوج قريبا أو منهمكاً في البحث عن زوجة . نعم ، كان شخصاً عادياً لكنه كان في ريعان الشباب .

لا اعرف بالضبط كيف بدا ، لكن قبل ذلك كنا نرسله الى المقهى ليجلب لنا قهوة ، حلويات ، اكسترا سترونغ ، أو ديسبرنيز . لاحظت في البداية انه كان يجمع علب المشروبات الباردة والزجاجات الفارغة من براميل القمامة . بعدئذ بهدوء ، اقترب منا قائلاً « أمهاتي » ارجوكن لا ترمين اي طعام لا تستطعين إنهاءه . أنا جائع ولدي . . . أن يشحذ رجل — يا ولدي طعاماً ، يشحذ من الآخرين إهاناتهم . . . ما زاد عنهم من طعام . . . شيء حفر عميقاً في معدتي ، عميقا حيث تهجع ذاكرة الأمومة يقظة .

« أعطيته بعض الخبز وقليلاً من لحم الدجاج . اخذها ، وجلس : وشرع يأكلها ، ببطء ، ببطء شديد . أقول لك كان يمضغ كل لقمة وكأنه أراد لأسنانه ، للسانه ، للعاب فمه ، لكل بطانة فمه أن تتذكر . . . ولا تزعجه سريعاً بحاجتها لتكرار الأمر .

عندما انتهى ، طلبت منه ان يحضر لنا شيئاً نشربه — قهوة لي ، وشاياً او قهوة أو شراباً بارداً له .

متشكراً ، رفض الشراب قائلاً ، « افضل ، إن كنت لا تمانعين ، الاحتفاظ بثمن المشروب لأنني لا أملك شيئاً . . ولا سنتاً واحداً . »

« طبعاً ، » قلت ، « بإمكانك الاحتفاظ به » . وعندما عـاد بقهوتي أعطيته راندين . أتعرف أنه عندما شاهد ما أعطيته : جرت الدموع على خـديـه ؟

أوه ، مانتان أم ، لا تحدثيني عن بطاقة الإقامة . تلك الأفعى قتلت شـعبنا .

روى الشاب : قالت أمي ، قصة لها وللمنتظرين في غرفة الانتظار قال ، « ماما ، الحياة قاسية .الحياة ، حقيقة ، قاسية جداً » .

كان اسـمه تشينا ، قال ، وكان من عشيرة ماجولا .كان يحمل ثلاث مهمات عمل في مناجم جوهانسبورغ تحت نطاقه . في نهاية العقد الأخـير عاد مخططاً للمكوث في القرية أكثر من المعتاد ، لأنه سيتزوج . كان ذلك قبل ستة أشهر من لقائه بأمي . وعن لسانه هو :

« كنت مع **ماكوتي** ، زوجتي العروس ، نوموند (أم الصبر) ، قبل ستة أسابيع مـن مغادرتي لها للحضور الى هنـا لألتحق مـن القرية . الرؤساء* والمدراء يكسبون النقود من أجل عائلاتهم . لكن عندئذ ، أمـا هكسوسا تقول ، « لا طائر تدرّج ينبش الأرض لآخر ؟ » ومن يفعل ذلك يفعله لصيصانه .

المسألة أن أومتاتا كانت المدينة الأفضل لمن أراد الالتحاق* . كـان الملتحقون الجدد يفضلونها ، كونها مدينة كبيرة ، فيهـا فنادق ، حانات ، وأماكن أخرى يجد فيها الجنتلمانات المتعة بعيداً عن عائلاتهم . هكذا جئت الى اومتاتا .

---

* رؤسـاء العمل . * الالتحاق بسوق العمل المعروف عندنا باسم ـ النافعة ـ .

زوجتي المسكينة ــ ذبحت لي فرخة ــ عجنت خبزاً ، وصنعت لي مؤونتي : كانت الفرخة سمراء كالتي نشتريها من محلات الوجبات السريعة . وطبختها كلها .

سألتها من علمها الطبخ هذا فأجابتني ، حيّية ، « ماخولو . كانت تعمل عند اسرة بيضاء » . قلت عندما أعود من التحاقي سأذهب الى أبيك واعطيه بطبية خاطر مهراً إضافياً . ضحكنا معاً ورأت انني كنت سعيداً بها جداً .

زوجتي . معجزة حقيقية . شابة جميلة . وحيّية جداً . ومع ذلك فهي بارعة في اعمال المنزل . عرفت انني فعلت خيراً أن اتخذت زوجة الفتاة الشابة التي اشارت إليها أمي قائلة ، « تشينا ، هناك زوجة ، امراة شابة ستبني بيتاً للشاب الجميل الذي يخطفها قبل أن تنالها الذئاب » .

كان يبتسم ، متذكراً زوجته الشابة وأساليبها . قهقه بعض الناس في غرفة الانتظار ، مستمتعين بجديّة الحب الشاب . رجل معمّر كان يبدو نائماً طيلة الوقت تكلم فجأة فأفزعنا جميعاً : « هيه ، يا صغيري ، » قال بصوت خفيض ، عميق ــ مثل هدير رعد بعيد ، « تعال وأخبرنا عن زوجتك الجيدة عندما يصبح ابنك الأكبر قادراً على الذهاب واحضار الماء من النهر ، وعندها سنستمع لك . الآن ، كل ما نسمعه هو أغنية شجية للبطانيات الدافئة . دعني أخبرك ، أن تلك الأغنية قديمة قدم هذه الجبال التي تراها جاثمة على صدر الأرض » . ضحك الجميع لهذا ووافق كثيرون أن كل الحب الجديد ، في الواقع فيه سحر . لكن كان هناك الذين أكدوا ان الحب ، الذي نضج جيداً ، ــ يمكن أن يستمر بسحره الى النهاية الحلوة . هذه الأصوات ، القليلة ومعظمها أنثوية ، لا بد انها شجعت الشاب على ان يتابع :

« هل ستصدقني إن قلت لك إنها خبزت الخبــز مستخدمة فقط كيساً عتيقاً ؟ تلك هــي الحقيقة ... الحقيقــة البسيطة البحتــة ... مه مه مه » .

«نعم، رايتها بعيني هاتين ــ تأخذ كيساً وتغلف فيه قرص العجين. بعد أن تغلق الكيس جيداً ، متأكدة انها وضعته مستوياً في القدر المعدني، تشعل النار في الكيس . اتصدق انه بعد أن يتحول الكيس رماداً يكون رغيف الخبز قد نضج ؟ وابداً لم تر ــ خبزاً أطرى او ارطب . يذوب في فمي كالسكر. وفي السلة الأملودية ــ وضعت ايضاً بعض البيض والملح، وزجاجتي بيرة جنيجر ــ وهذه أيضاً من صنع يديها . وودعتني مثــل ... مثل رجل لديه زوجة محبّة تعرف انه يغادرها فقط كي يعمــل ويكسب لها النقود . غادرت يوم احد . الأحد الثالث من شهر بليادس؛ حزيران ، كانت آمالي عالية . قريباً جداً ، فكرت ، سيكون لدى اشياء جميلة اشتريتها لها . لاحظت ان والدها البخيل قد ارسلها إليّ بزوج احذية فقط ــ رغم انني دفعت له مهراً جيــداً . لكنني لــم اعترض . ما دمت قادراً ، اقسمت ، الا ادعها تحتاج شيئاً » .

غادر بيته في ذلك الهزيــع من الليــل حيث الجميــع ، باستثناء المرضى ، نياماً . اراد الوصول الى اومتاتا قبل شــروق الشمس ، في الواقع ، وصل المدينة صباح الاثنين المشرق .

« ما وجدته هنا مخيف . الناس ، الرجال مــن كل الأعمار ... كانوا ينتظرون ... الالتحاق بعمل .

« ترون ، مضــى خمس سنوات الآن والأرض لم تطــرح شيئاً . المطر منحبس في هذه المناطق . سمعنا عن سيول في المدن مثــل P-E وإيست لندن ... حتى في الشمال ، سمعنا عن بيوت غمرها الماء ... يعود **الأماجويبيني** من تلك الأماكن البعيدة بقصص عن امطار غزيرة تعطل السيارات والباصات.. وحتى القطارات ، تقتلع الأشجار من جذورها،

وتجرف البيوت او تقلبها سافلها عاليها . لكن هنـاك ، حيث ، تعتمد حياتنا على المطر . . . لا نرى مطراً البتـة .

لم تكن الدكاكين قد فتحت أبوابها عندما وصلت الشاحنات الأولى، وكنا كقطعان صغيرة من قرى مختلفة نزلت في خندق واحد . الرؤساء ، البويريون الذين جاؤوا في السيارات يركبون في المقدمة بجانب السائقين، الرجال الذين سيترجمون للرؤساء ــ لأن غالبيتهم لا يستطيعون تكلـم لغتنا ــ كانوا رجالاً جيدي التغذية كما تبـدو صحتهم جيـدة . كانت الحمرة تعلوهم جراء الحرارة داخل شاحناتهم وكانوا يلبسون سراويل قصيرة وقمصاناً قصيرة الاكمام مع أن الفصل شتاء .

تتوقف الشاحنة ، ويقفز منها ، السائق ، رجل أسود ، يصـيح ــ فونارهين ! او جيمستين ! او كيب تاون ! او دربان ! بذلك تعرف من اين جاءت الشاحنة . . . وأين مكان العمل .

وكلما هدرت شاحنة وظهرت للعيان انطلقت مجموعات من الرجال تتحلق حولها . الجميع يريد أن يركب في المقدمـة ، بجانب الرئيس ، لانه هو الذي يشير الى الرجال الذين ينتقيهم . الرئيس يختار . هكذا تصلي ان تقع عيناه عليك وتروق له .

هؤلاء الرؤساء لا يسألون احداً اي شيء . يختارون بعيونهم فقط. لا يهتمون كم تعمـل بجدّ ، اين عملت مـن قبل أو لا شـيء . ينظرون ويختارون فحسب .

كلا ، امهاتي ، ينظرون الى الاقوياء . ينظرون كم يبلـغ طولك ، اتملك عضلات أم انك مجرد جلد وعظم . يريدون اختيار رجـال يبدون انهم تغذوا جيداً مؤخراً . لا يريدون رجلاً كان يتضور جوعاً . هكـذا شخص يمكن أن تنهار صحته . لا يريد الرؤساء ثوراً يقف على قدميه الخلفيتين ، لا يريدون هكذا واحداً .

في ذلك اليوم فقط ، وصلت عشر شاحنات تبحث عن شباب . لكني لم أكن من بين المحظوظين ؛ لم أنتقَ . لو انني لم أر بعض الرجال الذين وجدتهم هنا يجففون دموعهم مع ابتعاد هدير آخر شاحنة خلفتهم خلفها ، لما كنت قلقاً هكذا . لكن دموع أولئك الرجال جعلت ركبتيّ كركبتي طفل سقط بعد خطواته التجريبية الأولى .

في ذلك المساء ، أكلت لأول مرّة منذ غادرت البيت . لا أريد أن استنفذ زادي . فماذا سآكل بعدئذ إن انهيته بسرعة ؟ لا أملك نقوداً .. فقط أربع راندات . أربع راندات واثنين وثلاثين سنتاً . فقط .

« مانتان آم ، ذلك الشاب المسكين أنهى زاده . فرخة ستدوم ثلاثة او اربعة ايام فقط ، تعرفون ؟ حتى في الشتاء فلن تبقى أسبوعاً دون أن تفسد . هكذا ، في نهاية الأسبوع ، نفذ طعامه ... لكنه ما زال في اومتاتا . اخبرناان الرجال القصار كانوا غير مرغوب فيهم . وهو نفسه لم يكن طويلا . الرؤساء كانوا يريدون رجالا اقوياء البنية ، حسني الغذية .

« كان تنافساً بيننا جميعاً » قال .

نأكل يوما ونصوم آخر ، حاولنا أن نبدو افضل وبصحة افضل وأقوى من كل الرجال الذين قربنا . خمسمئة رجل . كل يوم ، يتنافسون ، هناك ، مع بعضهم البعض . كل يوم ، كان ينتقى حوالي مئة ويغادرون يمتدحون أسلافهم الذين خلصوهم من هذا المزاد البشري المذري . أشيع انهم ليحافظوا على حظهم ، كان بعض الرجال يدفعون للسائقين الذين يأتون مع المجنّدين ، كي يذكونهم امامهم . آخرون استعانوا بخدمات العرافين والمداوين . والجميع ، طبعاً ، صلى لله القدير ، وسرعان ما يغادر المحظوظون ، يتدفق الآخرون من القرى : نبع أمل يائس لا ينضب ، يندفع المزيد ، أكثر من الذين غادروا ، ذهبوا متعاقدين للعمل بعيداً في المدينة أو في مزرعة . والبقية البشرية ،

المنبوذون ، تبتلعهم دائماً أعداد الوافدين الجدد الذين اعتقدوا أنهم عرفوا ماذ كانوا يبغون ، مسخرين قوتهم لهزيلة للتنافس في الجولة الثانية ؛ يبقى الأمل قائماً ان ذلك سيكون يوم حظهم . ذلك ما فعلته بنا بطاقة الاقامة . لقد حاصرتنا . كان بوسعنا أن نرعى هنا وليس هناك . وهنا ، حيث حوصرنا ، حيث كانت فرصتنا الأفضل ، لا يوجد شيء . لا شيء كبير جداً . التضور جوعاً فقط .

« رغم إن معظم الرجال كانو جائعين معظم الوقت ، معظمهم ، بعد أسبوعين كانت معدتي ، جيوبي مسطحين كبقة في بيت مهجور .

« مهما يكن ، فحالما تظهر شاحنة ، عندما يترجل منها الرئيس ، او يبقى داخلها وينظر عبر النافذة او يقف على ظهر الشاحنة ــ تعرفون ، لتكون إطلالته أفضل ، تعرفون ماذا ؟ كل الرجال كانوا يحاولون إظهار اقصى ما يمكن من صلابتهم . كل واحد يرفع رأسه عالياً ، ينفخ صدره مثل ديك يستعرض أمام دجاجة ، يفتح عينيه واسعاً بيقظة ليري الرئيس كم هو ذكي ، ولد مخلص ، ويبتسم ابتسامة واسعة تصل حتى اذنيه . الجميع يريد الظهور بمظهر الولد الودود والشجاع . سمعت أيضاً ان بعض الرجال كانوا يقفون على اصابع أرجلهم ، طيلة الوقت . وقع احد الرجال وكسر سنه . . . لأنه بينما كان مشرئباً يبتسم للرئيس هوت إحدى التنكتين الفارغتين اللتين كان يقف عليهما ، فسقط أرضاً .

في الأسبوع الثالث تنبهت للخطر . كان وضعي خطيراً . لا طعام . . لا نقود . ولأول مرة منذ وصولي هنا اظلمت آمالي . يومياً ، كنت آمل . . . كل يوم ، في قلبي ، املاً ، كبيراً ، بساماً . كنت واثقا أن أحد الرؤساء سيرى ــ لا بد ان يرى ، اي شاب جيد انا . أنا جيّد ، تعرفون . وكنت واثقا أن الحقيقة ستسطع وسوف أنتقى للعمل .

أقام بعضنا صداقات مع عمال هنا في المدينة . لكن هؤلاء ناس ليسوا في أوضاع آمنة بحيث يستطيعون هدر الوقت في مساعدة

الآخرين .. يغامر بعضهم بالسماح لصديق بزيارتهم في مكان العمل . إن وجدك رؤساءُهم تستحم في غرفة الشاب أو الفتاة ... سيواجه ذلك الشخص متاعباً ، متاعب كبيرة . هكذا ، كان النهر قِبلتنا ... معظم الوقت ... من اجل الاستحمام . والغابة لقضاء الحاجات الأخرى .

لم اعرف ما سأقوله لوالدتي وزوجتي . اعرف ان لا شيء لدينا هناك ؛ لقد تركتهما دونما شيء سوى الأمل بأنني ذاهب لأجد عملا وارسل لهما نقودا تعيشان بها . والآن وانا عائد إليهما . ماذا سأقول لهما ؟ كنت اعرف انهما كانتا تبحثان عن الأشخاص العائدين من سوق العمل ، يوميا ، املاً في رسالة او نقود ارسلتها لهما . كانتا تعرفان انني سأرسل لهما نقوداً حالما انال أول اجر . وحيث انه مضى أكثر من شهر على غيابي ، فلماذا لا يبدأ ترقبهما ؟ لم يكن ترقباً خارجاً على المنطق . كيف يسعهما المعرفة انني ما زلت هنا في اومتاتا ؟ كلا ، كانتا تعتقدان انني في مكان بعيد ؛ معتقدتين انني اعمل وانهما قريباً جداً ستستلمان نقوداً منّي .

كانت العودة الطويلة الى البيت تعذيباً . كنت مع كل خطوة اسائل نفسي : ماذا ستقول لهما ؟ ماذا ستقول ؟ لم اجد الإجابة وكنت ما ازال اسائل نفسي هذا السؤال عندما ، وقفت هناك ، اطلّ من اعلى التل ... في قريتي ... اتملاها وانا خائف كطفل يواجه وحشاكاسراً لا يعرف إسمه ؛ ماذا ستقولان ؛ هذا ما رحت اسأله لنفسي. كيف ستستقبلانني ؟

هازّاً كتفيه ، التقط الصرة من عند قدميه . نزل ، ببطء ... يدوس وكأن كل قدم كانت مضطرة للتفكير فيما تفعله . الآن ، كان على بعد ـ صوت واحد من البيت . بقي صامتا ؛ يقترب من بيته مثل لص أو مثل عرّاف يتخفى تحت جنح الظلام . وصل الفناء الخلفي للأكواخ . استطاع سماع الأصوات من الداخل ، لكن صوت قلبه الذي يعدو بسرعة كان أعلى من كل تلك الأصوات مجتمعة . ثانية ، توقف ساكناً كعمود

وفكر : بوسعي التوجه شمالاً الى الكوخ الذي اتشاركه وزوجتي او بوسعي التوجه يميناً ومقابلة الجميع معاً .

صرّ باب منفتحاً . « ڤويتسيك فاندل » صدح صوت ڤوسي . فوسومزي ، اخوه الأصغر ، كان يطرد الكلب خارجاً . عو ، عو ، عو ، وتوقف الكلب قليلاً ، لا شك انه كان يتنشم رائحته . هرّ الكلب ؛ آخذاً منه المبادرة . صفير منخفض ، فرقع بأصابعه : كريك ، كريك ؛ كريك ؛ شنّف الكلب اذنيه عالياً وتحول هريره الى عواء حائر ومن ثم سلسلة نخير فرح ؛ هازاً ذيله بعنف .

« ڤيرويرد ؟ » صاح فوسي وهو يفتح الباب ثانية . تلفت حول الكوخ ورأى بهوتي .

اوبهوتي ! نانك اوبهوتي ! اخي الاكبر . لقد جاء اخي الاكبر . آخذاً سلة الزاد الفارغة منه ، تقدم نوسي اخاه الاكبر الى داخل الكوخ ؛ الكلب ، ڤيرويرد ، بين ارجلهم ، يهز ذيله ولسانه الأحمر متدلٍ من فمه الرطب القاني .

« صافحت والدتي ونوموند . وحاولت كلتاهما إشاحة نظرهما عني . وكان الامر اسهل على نوموند . كونها زوجة ، وكان غطاء الراس الأسود الذي تلبسه منخفضاً جداً فوق عينيها . »

اطرقت نوموند ارضاً . لم ترغب في أن يرى زوجها خوفها وخيبتها وخجلها . كانت سعيدة ان غطاء ـ الراس للزوجة الجديدة قد ستر عينيها . قلبها توقف عن الضرب عندما دخل الباب . لا يمكن لأي عمل ان ينتهي بهذه السرعة . وجوده هنا يمكن ان يعني شيئاً واحداً . انه مريض وقد طرده الرئيس . كم يوماً عمل ؟ ثلاثين يوماً ؟ اقل ؟ تقطّع نفسها . تكثّف الهواء ، اصبح اثقل . اصبح جرّ نفس قصير عملا شاقاً ، مجهداً ، ومؤلماً . ماذا ستفعلان ؟

« لم اكن قد رايت امي تبكي مذ مات أبي . كان ڤوسي طفلاً حينئذ وهو الآن في الصف الخامس . لكنها تبكي الآن ، أوه ، حاولت إخفاء دموعها : « هذا الحطب رطب . الدخان يحرق عيني . الحطب الرطب لا يحترق جيداً عادة ويملأ البيت بالدخان . » عرفت أنني قتلتها بعودتي الى البيت ولم يمض على مغادرتي ستة أسابيع ، أعود خالي الوفاض . لكن الذي وخز قلبهـا أن ترى زوجتي الشـابة تبكي .... لم تكن أمي ساذجة . عرفت ان نوموند كانت تبكي ، في قلبها . وبعينيها . »

في تلك الليـلة وفيما بعـد ، في الخلوة الصغيرة ، التي اقتطعت للزوجين من الكوخ ، سألت نوموند ؛ (الآن وقد عدت ، ماذا تقترح أن نفعل ؟) بهدوء ، انسابت الكلمات على شفتي الفتاة ، وفاجأتهمـا كليهما . هكذا كانت مشحونة باليأس . كان ترحيباً غريباً من عروس بزوجها بعد اقل من ثلاثة أشهر زواج . كلمات غريبة جداً . شـديدة الفظاظة .

يبقى الأغرب في الامر ان الزوج لم يكن يملك إجابة عليهـا . رغـم انه قد تدرب، خلال الإثنتي عشرة ساعة الماضية، على ما سيقوله لزوجته، عندما يواجهها ، نسي كل ما كان ينوي قوله ... كيف سيفسر عودته .

قبل ان ينتهي الاسبوع ، كنت واثقا من شيء واحد . لقد ارتكبت خطأ فادحاً بعودتي . عشنا على حَسَنَات الآخرين . كانت زوجتي مثل خنزيرة ببطن كبيرة تتضور جوعاً . امتدت شبكة من آثار الأقدام بـين اكواخنا ومساكن الجيران . كل صباح ومساء كان عليها الذهاب إلى اؤلئك طلبا للحليب وإلى أؤلئك طلبا للسكر . هل يجب ان تقتـرض الطحين من المراة التي ما زالت مدينة لها بالفاصولياء ؟ والخميرة ؟ الآن وقد حصلت الطحين ، ممن ستطلب الخميرة ؟ شوهد الجيران القاطنون خلفنا عائدين من الدكان بنصف شوال دقيق ـ ذرة ، بالتأكيد ، بوسعهم ان يتنازلوا لنا عن ملء طنجرة ؟ سرت شائعة أن زوج ماكسولو قد أرسل لها بعض النقود من المناجم في كيمبرلي . ذهبت نوموند إليها قبل صباح

الديك : القرية كلها كانت جائعة . أرادت أن تكون السباقة إليها . لم تكن الوحيدين بآذان تصيخ السمع جيداً .

نعم ، رأيت ، أنه ليس بوسعنا العيش هكذا . لو بقيت ، لكنت رجلاً ميتاً . كنت بحاجة للغذاء . لا ، أسوأ ، الميت الحي . الرجل الميت لا يحتاج طعاما . كنت بحاجة للطعام . كنت آكل عندما تأكل أمي وزوجتي . حتى إنني تنازلت عن أكل الأموفينو . وبالنسبة لرجل أن يأكل طعاماً لن ترى حتى طفلا يأكله ... عندئذٍ عرفت أنه لايسعني البقاء .

بعد يومين ، عاد الشاب إلى أومتاتا . كان قد مضى على رحيله أكثر من عشرة أيام . عندما قابلته امي في صالة الانتظار في محطة قطار جنوباً أفريقية صغيرة في أومتاتا ، بعد أن أمضى هناك أكثر من ثلاثة أشهر . كان التحضير قليلا للرحيل الثاني ، لا زاد ، والدموع التي ودعته عندئذ لم تكن من ألم الفراق ، من جحود الحب وكانت دموع خوف عارٍ .

كان يأتي أحيانا للفرجة على شاحنات الملتحقين الجدد . يتفرج على هذا المزاد البشري الذي وصمه بوصمة مرفوض . الآن ، إنه متفرج، خارجي . كان يجمع علب وزجاجات البيرة والمشروبات الباردة ، الفارغة . النقود التي جناها من هذا العمل هي التي كان يذهب بها إلى أمه وزوجته . كان يراهما مرة شهريا .. لا تمتلكان أية فكرة عن نوع عمله . لكن ذلك كل ماوسعه أن يقدمه لهما ؛ وكان يقدمه كله . بالنسبة له ؟ حسن ، كان الناس في صالة الانتظار .. بعضهم ، كانوا لطيفين معه . إن أدى لهم خدمة من الدكان ، ساعدهم بحمل أمتعتهم ، أشياء صغيرة كتلك ، حسن ... كان بعضهم يعطيه نقودا ، وآخرون طعاما ؛ ويكتفي بالقليل .. بالقليل جداً . النقود التي يكسبها من عمله ، يجب أن يرسلها إلى البيت . أمه تحتاجها لإطعام اخيه ثوسي وإرساله الى المدرسة ، ... حسن ، اخبرته زوجته انه ربما تكون هناك عينان جديدتان تتطلعان إلى قدومه في عيد الفصح . **نوباسيكا** ، إن كان بنتا . احب ذلك الاسم . **نوباسيكا** ، هي التي تجيء في عيد الفصح .

هكذا قُتلت أمي رأسي بقدسص مثل قصة تشيناز وج نوموند ، والمهانة التي فرضتها بطاقة الإقامة على الافريقيين .

- اتساءل إن كان تشينا قد حصل قط على العقد كان بحاجة ماسة إليه . أين هو الآن ؟ هل نجوا من عطش الحاجة الرهيب ، الحاجة الماسة، بقايا ــ فقراء أحياء ؟ هل عاشوا حتى هذه الأيام ، وقد **مضى عهد بطاقة الإقامة** ؟ وإن كانوا قد عاشوا ، فأية ندوب سترافقهم أبداً . . . موروث الحرمان الشرس ، الفقر المدقع ، فقر ــ بطاقة الاقامة ــ المتحكم ؟

كنت قد بدأت أشاحن امي لأنها افسدت فرحة انتهاء عهد بطاقة الإقامة . وهاأنذا ، لا اوافقها فحسب . على الأقل ، فقد كانت هادئة في هواجسها . فأنا ، الذي اعتبرتها غير منصفة ، أشعر أنني موسوق . لأنني لم انج من ندوب بطاقة الإقامة . لم ينج منها أي منا . بطاقة الإقامة متجذرة في أرواحنا .

وانا وبختها ؟ إنها عاقلة جداً . امي هذه الآن تعرف الألم ، أسى رؤيتها ، وهي تتفرج علينا نرقص فوق قبرنا . الآن أفهم ماحاولت أن تقوله لي : مضى عهد بطاقة الإقامة ؛ بطاقة الإقامة لن تموت قط .

مع ذلك ، ملايين تشينا : أطفال ، رجال ، نساء ــ بملايينهم ؛ بونسي(*) . . . بسبب بطاقة الإقامة ــ الم يبقوا أحياء ؟ فقط ببقائهم أحياء ؟ موجودون هنا لقص الحكاية ، الم ينتصروا ؟ الآن وقد مضى عهد بطاقة الإقامة ، ستتعمق الجذور أكثر ؛ وستطرح الشجرة ثمارا حلوة وسط تألق الزهر . بالتأكيد ، وقد مضى الآن عهد بطاقة الإقامة . . بالتأكيد ، ستنتفخ الجذور العطشى والمتيبسة وستمتد وتنبض بالحياة، طارحة الأغصان بعيدا وفي كل الاتجاهات . بالتأكيد ، آن الأوان ، الآن بعد انتهاء عهد بطاقة الإقامة .

(*) البونسي : نبتة مقزمة ، شجرة مقزمة .

الفهرس

٢٥٠١٠١ ط ١/١٠/١٩٩٩





الطباعة وفرز الألوان مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٩

سعر النسخة داخل القطر

١٠٠ ل.س

في الأقطار العربية مايعادل

٢٠٠ ل.س